

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00855 3657

L
5
K
1
V



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة



05-1310850

65. B10850

محمد بن المنعم خفاجي

LG
511
C 45
K 45
1954
V. 1
C. 1

الأزهر في ألف عام

الجزء الأول

١٣٧٤ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٠١

٤٧٧, ٨٠
٢.٢٤

١٥

الطبعة الأولى بالقاهرة

المطبعة المنيرية بالآزهر

43817

تصدير

الأزهر هو النشيد الإسلامى الخالد ، الذى تردده الأجيال ، وتتناقله الألسن من جيل إلى جيل ، على مر العصور . .

والجامع الأزهر هو الدعامة الأولى التى استطاع الفاطميون من ألف سنة أن يحققوا بها أهدافهم الدينية والسياسية ، وأن يهيمنوا بها على الشعوب الإسلامية ؛ ولا يزال المحراب الرابع الذى يقده ويحمله المسلمون كافة ، فى مشارق الأرض ومغاربها والجامعة الأزهرية هى أقدم وأعرق الجامعات العلمية فى العالم كله حتى اليوم .

ولاز هذا التاريخ الخالد ، والتراث العظيم ، والمشاركة الجبارة ، للأزهر الشريف ، فى الحياة المصرية والإسلامية عامة . . لى الدافع الأكبر لنا على إخراج هذا التاريخ الحافل للأزهر ، فى ذكرى بنائه الألفية .

ولانه لمن دواعى الفخر للأزهر الشريف أن ينظر إليه المسلمون كافة خلال العشرة القرون الماضية ، نظرة مملوءة بالأكبار والأجلال ، وأن يعتبروه كعبتهم الثانية التى استبدت بشرف المحافظة على التراث الإسلامى المجيد .

وفى هذه الدراسة تأريخ لحياة هذه الجامعة العريقة ، من شتى جوانبها الروحية والعقلية والعلمية والتاريخية . . والله ولى التوفيق ، وواهب السداد ، وماتوفيقى إلا بالله . .

المؤلف

المقدمة

الأزهر في مقدمة الجامعات العلمية التي سارت مع التاريخ أجيالا طويلا ، فهو أطولها عمرا ، وأجلها أثرا في تاريخ الفكر العربي والإسلامي ؛ وإن ألف سنة أو تزيد ، قضاهم الأزهر الجامعي ، وشاهد أحداثها الضخمة ، واشترك فيها في هذه الأحداث مؤثرا وموجها وبانيا ؛ لتاريخ ممتد في الطول ، لا يمكن استيعاب حياة جامعة علمية لم تدون أخبارها فيه ، إلا بمشقة وعسر وجهد وإرهاق شديد . . ولم تعمر في الشرق جامعات علمية غير الأزهر في القاهرة ، والزيتونة في تونس . . ولكن الأزهر ينفرد بضخامة ما أحدث من آثار في تاريخ العرب والمسلمين ، من شتى النواحي الروحية والثقافية والفكرية والسياسية والقومية والاجتماعية ، بل والاقتصادية كذلك والأزهر - طول عصور التاريخ - حارس التراث العربي ، ومجدد الثقافة الإسلامية ، والمشعل الذي يضيء ولا يخبو ، والملاذ الذي تهوى إليه أفئدة المسلمين من كل مكان ، والضوء ينير لهم الطريق ، ويبصرهم سواء السبيل . . . والأزهر اليوم يتدثر برداء هذا المجد الخالد ، وذلك التاريخ القديم المجيد ، وإن كان قد أصبح وثيد الآثار والتأثير في حياة الناس ، في المادية المظلمة التي يعيش فيها عصرنا الحاضر ، وسار وراء المتنافسين في ميدان التجديد والابتكار واليقظة الفكرية ، وقيدته أغلال ثقيلة من الركود وفقدان الحيوية ، وأسأت إلى سمعته بين الناس التيارات السياسية التي كانت تدخل في العصور السابقة إلى أروقته ومحاريبه ومعاهده ، قاطعة ما بين الأزهر والناس من أسباب ، واستغلال بعض الناس له ، حفاظا على منصب ، أو تملقا لذي سلطان .

ولكن الأزهر - مع ما انتابه في بعض الأحيان من الحيرة والتردد - يسير اليوم منطلقا إلى غاياته وأهدافه ومثله ، يتطلع في نظرة الواثق إلى المستقبل ، ويحتقر هؤلاء المترددين والحائرين والمعوقين ، وتنظر مثذنته السماء في سخرية وإشفاق واحتقار ، إلى الذين يحاولون أن يبنوا وأن يهدموا ، فلا يستطيعون هدماء ولا بناء .

والأزهر اليوم يأبى النوم والحياة حوله صاخبة مضطربة متحركة ، وهو يكره اللهو وقد خلقه الله وخلق الحياة للعمل والجد والحيوية والنشاط .

وإذا كانت أول خطوة لفهم الإنسان لنفسه ورسالته في الحياة هي أن يعرف تاريخه ، ويعي ماضيه ، ويدرس ما يتصل به من مقومات وخصائص وتراث ، فإن هذا الكتاب لما يساعد على هذه الدراسة وتلك المعرفة وهذا الوعي ؛ التي هي العنصر الأول في البعث واليقظة والاحياء . . وإني لا أقدمه إلى القارىء ، معترزا بأنى أقدم له ثمرة مجهود شاق ، وبتوفيق الله الذى لا ينسانى ، وما توفيق إلا بالله . . .

المؤلف

الباب الأول

الأزهر خلال التاريخ

الفصل الأول

مصر الإسلامية قبل إنشاء الأزهر

- ١ -

فتحت مصر في عهد عمر بن الخطاب عام ١٨ هـ على يد عمرو بن العاص ، وبني بها مسجده الجامع المعروف اليوم باسم جامع عمرو بن العاص ، عام ٢١ هـ (١) ، واختط الجيزة في هذه السنة أيضا ، كما اختط مدينة الفسطاط حول مسجده الجامع ، واتخذها عاصمة مصر ، وحفر خليج أمير المؤمنين الموصل للنيل بالبحر الأحمر (٢) ووفد كثير من القبائل العربية على مصر زرافات ووحدانا ، وأقاموا بها ، وذاعت اللغة العربية بين أهلها ، بسبب اتصال العرب بأهل مصر واختلاطهم بهم . وقد استقر بمصر كثير من الصحابة (٣) ومشاهير التابعين (٤) وأتباع التابعين (٥) ، ونشأت بها طبقة من المجتهدين كالليث بن سعد المتوفى (٦) عام ١٧٥ هـ ، وهاجر إليها الإمام الشافعي (٧) المتوفى عام ٢٠٤ هـ ، وخلفه البويطي المصري المتوفى عام ٢٣١ هـ (٨) .

-
- (١) ١٣٣ ج ٢ حسن المحاضرة .
(٢) راجع الجزء الأول من حسن المحاضرة للسيوطي .
(٣) راجع ٧٢ ج ١ حسن المحاضرة وما بعدها .
(٤) ١٠٥ د د د د د
(٥) ١١٢ د د د د د
(٦) ١٢٠ د د د د د
(٧) ١٢١ د د د د ١٣٨ ج ١ ابن خلكان .
(٨) ١٢٣ د د د د د

وقد نمت الحركة العلمية في الفسطاط ، وكثرت الحلقات في مسجد عمرو الذي كان مركزا علميا لنشر الدين الاسلامي وتعاليمه السمحة . . وكبرت هذه الحركة العلمية واتسعت ، ونمت وازدهرت ، وأم هذا المسجد الجامع كثير من العلماء الأعلام ، والأئمة المجتهدين ، ممن أفادوا العالم الاسلامي ، وأدوا له خدمة صادقة في ميادين الدين والشريعة ، واللغة والعلوم . . وأشهر هؤلاء : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن لهيعة ، ثم الليث بن سعد . . وقد كان للإمام محمد بن إدريس الشافعي بمسجد عمرو زاوية يدرس فيها مذهبه ، ويدون آراءه ، وعلى يديه تخرج كثير من العلماء الفضلاء الذين دونوا مذهبه ، ونشروا علمه : كالربيع بن سليمان ، والمازني ، والبويطي ، وغيرهم . . وكان أبو تمام يسقي الماء في جامع عمرو ، وفيه كانت دراسته الأولى وقد انتشر المذهب الشافعي في مصر على يد الشافعي وتلاميذه ، ومن قبل كانت السيادة للمذهب المالكي ، الذي كان أول من أدخله إلى مصر عثمان بن الحكم الجذامي (١) المتوفى عام ١٦٣ هـ . كما كان أول محاولة لنشر المذهب الحنفي فيها على يد القاضي إسماعيل بن سميع السكندري (٢) ، الذي ولاه العباسيون قضاء مصر عام ١٦٤ هـ ، فعمل على نشر مذهب أبي حنيفة فيها ، وكرهه المصريون من أجل ذلك كرها شديدا ويذكر السيوطي في كتابه حسن المحاضرة كثيرا ممن كانوا بمصر من حفاظ الحديث ونقاده (٣) ، ومن المحدثين الذين لم يبالغوا درجة للحفظ (٤) ، كما يذكر من كان بها من الفقهاء الشافعية (٥) والمالكية (٦) والحنفية (٧) . . أما الحنابلة فكانوا قليلين فيها ، ولم يسمع السيوطي كما يقول بخبرهم إلا في القرن السابع وما بعده (٨) . . كما يذكر من كان بها من أئمة القراءات (٩) ، ومن الصالحاء والزهاد والصوفية (١٠) وأئمة

(١) ١٩٠ ١٥ حسن المحاضرة . (٢) ١٩٦ ج ١ المرجع

(٣) ١٤٥ د د وما بعدها .

(٤) ١٥٥ د د د

(٥) ١٦٧ د د د

(٦) ١٩٠ د د د

(٧) ١٩٧ د د د

(٨) ٢٠٥ د د د

(٩) ٢٠٧ د د د

(١٠) ٢١٨ د د د

النحو واللغة (١)، وأرباب المعقولات وعلوم الأوائل والحكام والأطباء والمنجمين (٢)، وقد ظل التدريس في الجامع العتيق عامر الحلقات مدة طويلة .
خضعت مصر - أول ما خضعت للحكم الاسلامي - للخلفاء الراشدين ، ثم لدولة بني أمية ، ثم لدولة بني العباس ، وكان يختار لها ولادة يثق بهم الخلفاء .

واستقل بمصر أحمد بن طولون وكان قد ولي الحكم فيها سنة ٢٥٣ هـ ، ثم أضيفت إليه نيابة الشام والعواصم والثغور وإفريقية ، فأقام بها مدة طويلة ، وبني جامعته المشهور ، وكان ميلاده في بغداد عام ٢١٤ هـ ، وكان أبوه طولون من الأتراك الذين أهداهم نوح الساماني عامل بخارى إلى المأمون . واستمر ابن طولون أميرا على مصر حتى مات بها عام ٢٧٠ هـ (٣) ، وولى بعده ابنه أبو الجيش خمارويه ، وظل أميرا على مصر حتى قتل عام ٢٨٢ هـ ، وولى بعده ابنه دجيش ، فأقام تسعة أشهر قتل بعدها ، وخلفه أخوه هارون بن خمارويه الذي ظل أميرا على مصر حتى قتل عام ٢٩٢ هـ ، وولى عمه أبو المغانم شيبان ، فورد من قبل المكتفي بعد اثني عشر يوما من ولايته محمد بن سليمان الوائلي الذي سلم إليه شيبان الأمر ، واستصفي أموال آل طولون ، وانقضت الدولة الطولونية ، واحت أيامها من تاريخ مصر السياسي .

كان من البدهي أن تكون عاصمة الملك في أيام الدولة الطولونية هي مدينة أحمد ابن طولون ، وأصبح مسجده المشهور محط الرحال ، ومجلس العلماء ، ومستقرا للحلقات العلمية الكثيرة التي تدرس فيها علوم الدين واللغة والأدب . . . وظهر في مصر وفي حلقات مسجد أحمد بن طولون كثير من العلماء والأئمة والأدباء والشعراء ومع ذلك فقد ظل « مسجد عمرو » يؤدي رسالته بجانب المسجد الطولوني الكبير ، بل ظل إلى أمد قريب يعج بالحلقات والعلماء ، حتى ليرى أنه كان فيه قبل عام ٧٤٩ هـ بضع وأربعون حلقة ، لأقراء العلم لا تكاد تبرح منه (٤) .

أسس جامع ابن طولون (٤) عام ٢٦٣ هـ ، في مدينة أحمد بن طولون التي سماها « القطائع » ، وفرغ من بنائه عام ٢٦٦ هـ . وصلى فيه القاضي بكار إماما وخطب

(١) ٢٢٨ ج ١ حسن المحاضرة وما بعدها .

(٢) ٢٣٢ د د د

(٣) راجع ٩ و ١٠ ج ٢ حسن المحاضرة .

(٤) ١٣٦ ج ٢ حسن المحاضرة طبعة القاهرة ١٣٢٧ .

فيه بوي يعقوب البانخي ، وأملى فيه الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الامام الشافعي (١) ، وظلت الحلقات العلمية فيه إلى آمد بعيد ، فكانت فيه دروس للتفسير والحديث والفقه على المذاهب الاربعة والقراءات والطب والميقات (٢) . . . وكان أعمر ما يكون في دولة بني طولون .

وفي عام ٥٣٢١ هـ ولي على مصر من قبل خلفاء بني العباس محمد بن طنج الاخشيدى الذى أقام الدولة الاخشيدية في مصر والشام ، ومات في ذى الحجة عام ٥٣٣٤ هـ ، وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور وكان صغيرا ، فأقيم أستاذه كافور الاخشيدى وصيا عليه ، وحكم المملكة باسمه ، ومات أنوجور عام ٥٣٤٩ هـ ، فقام أخوه على مقامه حتى مات عام ٥٣٥٥ هـ ، فاستقرت المملكة باسم كافور ودعى له على المنابر في مصر والشام ، ومات عام ٥٣٥٧ هـ ، فولى المصريون بعده أبا الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد ، فأقام شهورا حتى فتح الفاطميون مصر ، وانتزعها جوهر الصقلي منه عام ٥٣٥٨ هـ . وفي عهد الدولة الاخشيدية ظل المسجد العتيق ومسجد أحمد بن طولون يؤديان رسالتهما العلمية

كانت الحلقات العلمية في هذين المسجدين حافلة بالعلماء والمتعلمين ، وكانت تعقد حلقات خاصة في منازل أكابر العلماء والفقهاء ، حيث كانوا يجتمعون بتلامذتهم ، يقرأون ويدرسون بعض شروح الفقه الاسلامي ، وبعض كتب العبادات والتصوف واللغة والأدب ، ومن ذلك حلقة بيت عبد الله بن الحكم الفقيه المالكي وولديه عبد الرحمن ومحمد ، وكانوا من أنبغ الفقهاء المحدثين حتى أوائل القرن الثالث . . . وهذه الأسرة هي التي أكرمت وفادة الامام الشافعي في مصر . . . وفي القرن الرابع كان العلماء في المسجد العتيق والمسجد الطولوني عديدين ، وكان من أشهرهم : أبو القاسم ابن قديد ، وتلميذه الكندي صاحب الكتاب المشهور في تاريخ ولاية مصر وقضاتها وأبو القاسم بن طباطبا الحسنى الشاعر . . . وكانت مجالس الدراسة والحلقات الأدبية الخاصة من تقاليد الحياة المصرية العالية ، وشجع الاخشيدى وخلفاؤه العلوم والآداب ودراسة الشريعة ، وكانت حلقة المتنى الذى وفد إلى مصر عام ٥٣٤٦ هـ — ٩٥٧ هـ من أحفل مجالس الأدب والشعر والنقد . ولقد كانت السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور تعتكف بمسجد عمرو .

(١) ١٣٧ ج ٢ المرجع السابق

(٢) ١٣٨

الفصل الثاني

مصر في ظلال الدولة الفاطمية

تمهيد :

إن شيعة علي كرم الله وجهه بعد قتل علي ظلت تتوارث الدعوة إلى خلافة آل البيت ، لاعادة الملك والخلافة للعلويين ، وزعم الكثير منهم أن الخلافة لم تصح ولن تصح لغير أهل البيت من أولاد علي . . ولما عجز العلويون عن الاستحواذ على السلطة من طريق السياسة والقوة ، لقتل من خرج من أئمتهم ، التمسوها من طريق الدين ، فقالوا : إن الله لا يترك خلقه بدون إمام حق ، واعتقدوا أن ذلك الامام هو المهدي المنتظر ، الذي يبيد المعتصبيين ، ويحيي مجد بيت رسول الله .

بدء الدعوة للفاطمية :

في عام ٢٨٠ هـ - ٨٩٣ م ذهب أحد دعاة الشيعة ، واسمه د أبو عبد الله الشيعي ، إلى بلاد البربر بشمال إفريقيا ، داعيسا لعبيد الله بن محمد من نسل جعفر الصادق ، فنجح في دعوته . وطرده الأمير الأغلب الحاكم لتلك البلاد التابع للدولة العباسية ، وذلك عام ٢٩٦ هـ - ٩٠٨ م ، وأعلن أن الخليفة الحقيقي للمسلمين ورئيس دينهم المنتظر هو إمامه د عبيد الله ، الملقب بالمهدي ، من نسل السيدة فاطمة بنت رسول الله ، ولذلك سميت سلالته بالفاطميين .

قيام الدولة الفاطمية :

حضر عبيد الله إلى بلاد المغرب ، وظل ملكا عليها مدة كبيرة (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ : ٩١٠ - ٩٣٤ م) ، كان الأمر فيها كله بيده ، وأخضع قبائل العرب ، والبربر ، ودان له الحاكم المسلم الوالي على جزيرة صقلية ، وجاهد في سبيل نشر الدين ومحاربة البدع في تلك البلاد ، وكان من أكبر أمانيه فتح مصر ، فأرسل لغزوها ثلاثة جيوش : اثنين منها بقيادة ابنه د أبي القاسم ، فحال دون نجاحه عدة أمور ، منها مجاعة في المغرب حدثت عام ٣١٦ هـ ، ووباء فشا في أحد هذه الجيوش ، وفشلت عدواه بأهل المغرب . . وشغل عبد الله بالأمور الداخلية باقي حياته .

وفي عام ٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م خلفه ابنه الأكبر د القائم بأمر الله أبو القاسم محمد ،

فبذل غاية همته في توسيع نطاق ملكه ، وأرسل أسطولا أغار على شواطئ إيطاليا وفرنسا والأندلس ، وأرسل جيشا إلى مصر هزمه الاخشيد ، ووطد ملكه في شمال إفريقيا .

وخلفه المنصور إسماعيل ، سنة ٥٣٣٣ هـ - ٩٤٥ م ، فسار في الملك سيرة أبيه نحو سبع سنوات .

ولما مات خلفه ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد ، سنة ٥٣٤١ هـ - ٩٥٣ م ، فكانت أيامه مبدأ عصر جديد في تاريخ الفاطميين ، وكان مثقفا ثقافة عالية ، سياسيا داهية ، ووطد ملكه في بلاد المغرب ، فدانت له جميع رؤساء القبائل المغربية ، وخضعت له مراکش بأكملها حتى شواطئ المحيط الأطلسي .. ثم صرف همه لفتح مصر ، فخر الآبار ، وبني أماكن للاستراحة في الطريق الموصل إليها ، وكانت مصر وقتئذ في اضطراب لحقها عقب وفاة كافور ، ولم يكن في وسع خلافة بغداد مساعدتها لاستغلالها بصد غارات القرامطة ، وكان دعاة المعز ينشرون دعوتهم في أنحاء كثيرة من القطر المصري .. وוכל المعز قيادة الجيش الفاتح إلى أكر قواده ، وهو جوهر الصقلي الرومي الأصل ، وكان تحت إمرته مائة ألف مقاتل مزودين بالآلات الحربية ، وبالمال الكثير .

جوهر الصقلي فاتح مصر :

ولد جوهر بجزيرة صقلية نحو عام ٣٠٠ هـ ، ومع أنه رومي الأصل إلا أنه نشأ في صقلية نشأة إسلامية خالصة ، فقد دخل الاسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ ، ويرجح المؤرخون ان أباه كان مسلما (١) .

واتصل جوهر ببلاط المعز ، ويبدو أنه كان في حاشيته العسكرية ، وقد قربته الخليفة الفاطمي ، لما توسمه فيه من الاخلاص للدين ، ولما وهبه الفذة وثقافته الواسعة ، وظل يتدرج في سلك المناصب في دولة المعز ، حتى اتخذ المعز كاتباً له عام ٣٤١ هـ - ٩٥٣ م ، وهي السنة التي ولي المعز فيها الخلافة ، ثم رقاها إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٧ هـ ، وولاه قيادة جيش كثيف لتوسيع ملك المعز في شمالي إفريقيا ، وقد انتصر جوهر ، وتوغل في فتوحه حتى وصل إلى شاطئ المحيط الأطلسي .

ولما فكر المعز في فتح مصر أسند لجوهر قيادة الجيش الفاتح ، ولما رحل

(١) تاريخ جوهر الصقلي لعلي إبراهيم حسن ط ١٩٣٢

جوهري من القيروان إلى مصر في يوم السبت ١٤ ربيع الثاني عام ٣٥٨ هـ - فبراير ٩٦٩ م، خرج الخليفة لتوديعه بنفسه، وقال: والله لو خرج جوهري وحده لفتح مصر وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولينزلن في خرابات ابن طولون، ويبنين مدينة تقهر الدنيا، وانشد ابن هانيء الاندلسي المعز قصيدته:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمنله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له غرار الكرى جفن ولا بات يجمع
إذا حل في أرض بناها مدائننا وإن سار من أرض غدت وهي بلقع
تحل بيوت المال حيث محله وجهم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله ورق كما رق الصباح الملمع
رحلت إلى القسطنطينية أول رحلة بأيمن فال بالذي أنت تجمع
فإن يك في مصر ظماء لمورد فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع
ووصل جوهري إلى برقة، ومنها سار حتى دخل الاسكندرية في رجب ٣٥٨ هـ، ثم استمر في سيره فدخل مصر وقت الزوال من يوم الثلاثاء ١٧ شعبان عام ٣٥٨ هـ بناء على صلح عقد بين المصريين والفاطميين، وجاء في وثيقة الصلح الرسمية (١): أنه يتعهد بـ "نشر العدل، وبسط الحق، وحسم الظلم، وقطع العدوان، ونفي الأذى ورفع الحزن، والقيام في الحق، وإعانة المظلوم، مع الشفقة والاحسان، وجميل النظر وكرم الصحبة، ولطف العشرة واقتداد الأحوال، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم النخ".

واتصل نبأ الفتح بالمعز فسر سرورا عظيما، ونظم ابن هانيء أمامه قصيدته:
تقول بنو العباس: هل فتحت مصر؟ فقل لبني العباس: قد قضى الأمر
وأخذ جوهري يعمل على بث الدعوة للمعز الفاطمي في مصر خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة، واختط مدينة القاهرة المعزية، وبني الأزهر الشريف، وصار جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر مراكز للدعاية لعقائد العلويين

الفاطميين ودعوتهم ، كما كانت الدعوة لهذا المذهب تذاغ على يدي داعي الدعوة ومن كان يعاونه من الدعاة .

خطب للمعز في جامع عمرو في التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م ، وكان ذكر المعز في خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسي حادثا خطيرا في تاريخ مصر ، وفي يوم الجمعة ١٨ من ذى القعدة سنة ٣٥٨ هـ دعا الخطيب لآل البيت وزاد في الخطبة : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين » . . . وفي يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى ٣٥٩ هـ صلى جوهر بجامع ابن طولون وأذن المؤذنون : « حتى على خير العمل » . . أما الجامع الأزهر فقد كان أهم مركز للدعوة الفاطمية .

ولأنسى أن نذكر أن جوهر أقام في القاهرة الجديدة « القاهرة المعزية » في الليلة التي دخل فيها مدينة الفسطاط ، أي في ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ - ١٧ يوليو ٩٦٩ م وأقام فيها قصر الخليفة المعز ، وضع أساسه في اليوم التالي . . وتشمل القاهرة المعزية على مارواه المقريزي أحياء : الجامع الأزهر والجمالية والحسينية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق ، وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن ، وكانت بولاق هى ميناء القاهرة ، وقد أصبحت بولاق بعد ذلك بمدة كبيرة مدينة تجارية منذ سنة ٧١٣ هـ ، عند ما أمر الملك الناصر بعمارها وبنى بها الدور على شاطئ النيل فسكنها الناس وعمروها . وقد جعل جوهر للقاهرة أربعة أبواب هى بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح

وبعد ذلك رحل المعز من مدينته المنصورية (١) ، ودخل القاهرة في ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ - نصف يونيو ٩٧٣ م ، وظل ملكا على مصر حتى توفي عام ٣٦٥ هـ ، وتوفي بعده جوهر بمدة كبيرة ، وذلك عام ٣٨١ هـ (١/٢٠ ابن خلكان)

(١) راجع الحديث عنها في كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » للمقريزي ٣٦٦ ج ١ . وهذا الاسم أطلقه اسماعيل بن المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين على مدينة « صبرة » ، وتتصل بالقيروان وقد بناها المنصور الفاطمي في سنة ٣٣٧ هـ واستوطنها وسماها المنصورية (ص ٢٥ البكرى) .

المعز الملك الفاطمي :

هو الخليفة الفاطمي الرابع ، يتنسب إلى رسول الله عن طريق ابنته فاطمة الزهراء
ولمى على بن ابي طالب ابن عم الرسول .

ولد بمدينة المهديّة قرب القيروان ، وهي عاصمة الفاطميين ، وذلك في ١١ رمضان
سنة ٣١٧ هـ ، وأمه أم ولد . وربى تربية عالمية ، وكان ولي عهد أبيه المنصور ، وولي
الخلافة عام ٣٤١ هـ . . وفي عام ٣٤٨ فتح جيوشه بقيادة جوهر مصر
خرج المعز من المنصورة دار ملكه يوم الاثنين ٢١ شوال عام ٣٦١ هـ : ٥ أغسطس
عام ٩٧٢ . . ودخل الاسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان ٣٦٢ هـ : ٢٩ مايو ٩٧٣ م .
وقد دخل القاهرة عام ٣٦٢ هـ - ٩٧٣ م ، وتوفي في ١٤ ربيع الثاني ٣٦٥ هـ -
٢٠ ديسمبر ٩٧٥ م ، بعد أن وسع دولته ، وصيغها بصيغة عالية من الحضارة والرقى
والنهضة ، وكانت القاهرة بعد إنشائها عاصمة ملكه الضخم .

كان نقش خاتم المعز يحمل شعار دولته وهو « لتوحيد الإله الصمد دعا الإمام
معد ، لتوحيد الإله العظيم دعا الامام أبو تميم » .

وقد وضع على كل مصلحة من مصالح الحكومة موظفين : أحدهما مصري
والآخر مغربي . . وكان عهده على قصره من أزهى عصور مصر وأزهرها ، وزادت
فيه ثروة البلاد زيادة كبيرة . وكانت القاهرة إذ ذاك تسمى « المدينة » ، وكانت في
الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين ولو احقهما : بهما من السكان ٣٠٠٠٠ نسمة ، وكان
بين القصرين ميدان عظيم يكفي لاستعراض ١٠٠٠٠ جندي ، وكان ثروة الأسرة
المالكة زمن المعز وبعده فوق ما يتصور ، فإن إحدى بناته ماتت وتركت وراءها
ما يعادل ٢٠٠٠٠٠ ديناراً ، وأخرى تركت خمسة أكياس من الزمرد ومقادير كثيرة
من الأحجار الكريمة الأخرى علاوة على ٣٠٠٠ إناء فضي مطعم .

وقد بذل المعز ، غاية وسعه في استجلاب محبة الناس واحترامهم له ، بعدله ، وحسن
إدارته والتفاته إلى جميع دقائق شؤونهم . فكان يرأس بنفسه حفلة قطع الخليج ،
وزاد من محبتهم له إرساله كسوة فاخرة للسكبة كل عام . ومنع جنده من البقاء في
المدينة بعد الغروب ، اجتناباً بالمعاشاة أن يحدث من الهياج ، وألغى نظام جباية الخراج
بواسطة الملتزمين ، للخسارة التي كانت تلحق البلاد من وراء أربابهم الباهظة ،
وبذلك زاد الخراج بدون أن يضر بمصلحة المزارعين .

وكان للمعز عدة أبناء ، ومن بناته رشيدة بنت المعز ، وعبدية بنت المعز (١) .

وقد خلف المعز ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار (١) ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ : ٩٧٥
 ٩٩٦ م ، وكان يعقوب بن كلس أكبر وزرائه .
 وبعده تولى حكم مصر الحاكم بأمر الله أبو علي منصور ٢٨٦ - ٤١١ هـ : ٩٩٦
 ١٠٢١ م ، وقدمات مقتولا .
 وخلفه ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي ٤١١ - ٤٢٧ هـ : ١٠٢١
 ١٠٣٦ م .
 وتولى بعده ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ : ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م .
 وظل الفاطميون يتوارثون حكم مصر (٢) ، حتى انتهى ملكهم منها عام ٥٦٧ هـ

الفصل الثالث

تأسيس الأزهر وبداية حياته الجامعية

الأزهر بيت العلم العتيق ، ومثابة الثقافة الإسلامية ، حمل لواء المعرفة في مصر
 وفي الشرق الإسلامي قروناً متصلة ، وحفظ التراث الإسلامي ديناً ولغة من عادات
 الزمن ، ونشره على الآفاق ، ولم ييخل به على أي طالب علم قصده من مشارق الأرض
 أو مغاربها . وقد ظل الأزهر طوال ألف سنة - وما يزال حتى اليوم - كعبة العلم
 والدين ، ومعقد آمال المسلمين ، وقد تخرج فيه أفواج وأفواج من جلة العلماء انتشروا
 في بقاع الأرض ، وحملوا معهم مشاعل المعرفة والثقافة التي تزودوا بها في الأزهر ،
 فأضاءوا جنبات الأرض علماً ونوراً وتقى .
 أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلي قائد الخليفة الفاطمي « المعز لدين الله » ،
 وشرع في بنائه يوم السبت لست بقين من شهر جمادى الأول (٣) سنة ٣٥٩ هـ
 (٩٧٠ م) ، وكمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ ٢٢ يونيو ٩٧٢ م ،
 وكان الغرض من إنشائه أن يكون رمزاً للسيادة الروحية للدولة الفاطمية ، ومنبراً

(١) ولد في المهديّة عام ٣٤٤ هـ .

(٢) وهم : المستعلي بالله (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) ، والآخر بأحكام الله المنصور
 (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) ، ثم الآخر بأحكام الله عبد المجيد (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ، ثم الظاهر
 (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ) ، ثم الفائز (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) ، ثم العاضد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ)
 (٣) يذكر بعض المؤرخين أنه شرع في بنائه في يوم السبت الرابع من شهر رمضان
 عام ٣٥٩ هـ (٢٧٣ ج ٢ المقرئ ، ٣٦٤ ج ٣ القلقشندي) .

للدعوة التي حملتها هذه الدولة الجديدة إلى مصر . وقد كتب بدائرة القبة التي في الرواق الاول وهي على يمين المحراب والمنبر مانصبه بعد البسملة : بما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم محمد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الاكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي ، وذلك في سنة ستين وثلثمائة .

وقد أطلق على هذا المسجد اسم الأزهر ، نسبة إلى فاطمة الزهراء التي ينتسب إليها الفاطميون ، أو لأنه كان يحيط به قصور نخمة ، تسمى بالقصور الزهراء ، أو لأنه يظن أن هذا الجامع أكثر الجوامع نخامة ورواء ، أو للتفاؤل بأنه سيكون أعظم المساجد ضياء ونورا .

وضع يوم السبت ٢٤ جمادى الاولى سنة ٣٥٩ هـ الحجر الاساسي له ، وظل العمال والمهندسون يعملون في بنائه عامين تقريباً حتى جاءت أول جمعة رمضان سنة ٣٦١ هـ ، فجمعت فيه ، باحتفال رسمي هائل ، تجلت فيه أهبة الملك وسودده وعظمتته ، التي اشتهر بها الفاطميون أكثر من سواهم . والمقرئ يصف لنا هذا الاحتفال وصفا شائفاً يفيض روعة وجلالا .

وبعد أن استقر سلطان المعز ، وتم بناء المعقل الذي أقامه للدعوة ، أفرغ جهده في إحكام دولته وتنظيمها ، ووفق في ذلك أكثر توفيق ، وقطع المعز الفاطمي كل علاقة بينه وبين الخليفة العباسي ، وقضى على كل صلة روحية له في مصر ، فقصر التدريس في الأزهر على المذهب الفاطمي في الفقه ، وتعاليم الفقه ، وتعاليم الشيعة في الدين والفلسفة والتوحيد ، واستجلب لهذه الدراسة أكابر العلماء وفطاحل الفقهاء في عصره ، وكان عددهم ثلاثين عالماً ، أجزل لهم العطاء وبنى لهم منازل نخمة ألحقت بالأزهر فيما بعد ، وصارت من أروقه ، وشرعوا يدرسون ويتفقهون في مذاهب الفاطميين وتعاليمهم ويهدمون بذلك المذاهب الأخرى التي كانت شائعة في بغداد مقر الخلافة وسائر البلاد الاسلامية ، وكانت هذه النخبة الممتازة من الاساتذة وعلى رأسها كبير العلماء د أبو يعقوب قاضي الخندق ، سببها من الاسباب التي جعلت الأزهر يصبح قبلة كل طالب من أقاصي الارض يعد أن ذاع صيته في الآفاق . وذكر المقرئ أن أول مدارس في الأزهر الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة ، فانه في صفر سنة ٣٦٥ هـ جلس قاضي مصر د أبو الحسن علي بن النعمان بن محمد بن حيون ، وأملى مختصر أبيه في الفقه على أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر بالاختصار ، وكان جمعاً عظيماً أثبتت فيه

أسماء الحاضرين .. فكان الأزهري على ذلك ظل معطلا منذ افتتاحه أربع سنوات من التدريس حتى جاء صفر سنة ٥٣٦هـ وافتتحت الدراسة فيه باجتماع عظيم حضره كثيرون ، وقيدوا أسماءهم .

واستوزر (المعز) وابنه (العزيز) من بعده الوزير يعقوب بن كلس ، وهو يهودى الأصل ثم أسلم ، ولعل الخليفة تخيره لما اشتهر عن اليهود من الخدق في الدعاية وإتقانها ، وقد نشط الوزير فألف كتابا في الفقه ، يتضمن ماسمعه من الخليفة المعز وابنه من بعده . وهذا الكتاب محبوب على أبواب الفقه الفاطمى ، وكان يقرؤه على الناس ، وكان يجلس بنفسه يوم الجمعة يقرأ على الناس في مجلس خاص به مصنفاته كما كان يجتمع يوم الثلاثاء بالفقهاء وجماعة المتكلمين وأهل الجدل .

قام المعز بتأسيس الأزهري لذن ، واستوزر ابن كلس وعمل على استجلاب أكابر العلماء ، وأوعز اليهم تدريس الفقه الفاطمى ، ولم تقتصر هذه الدعوة في اتجاهها على هذه الناحية فقط ، بل هناك ناحية سرية كان يقوم بها (داعى الدعاة) وأعوانه ، من قبل الحكومة ، ليثبتوا تعاليم الشيعة ومبادئهم ودعوتهم من طريق السر والخفاء أحيانا ومن الجهر والعلانية في غالب الاحيان . وكان لهذا الداعى مجلس يفرد في الأزهري للنساء ، وهذه الدعوة كما يقول المقرئى وضعوا فيها الكتب الكثيرة ، وصارت علما من العلوم المدونة ، ثم اضمحلت وذهبت بذهاب أهلها .

سلك الفاطميون في دعوتهم طريق الجهر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وسلكوا الخفاء والتستر إذا أعوزتهم الحاجة ، وكانوا يدرسون الفقه الفاطمى علانية لانه الوسيلة المناسبة التى يستطيعون بها الدخول على سائر الشعب المصرى ، الذى كانت تهيم عليه السنة ومذاهبها سيما المذهب الشافعى منها ، ولأن حاجة الناس إلى الفقه ماسة ، ينظمون به شئونهم ويحددون به أحوالهم الشخصية وما يتبعها من حقوق وواجبات ، سيما وأن هذا الفقه فى قضاياها ليس بعيد الخلاف مع السنة ، بعد التعاليم الشيعية وفلسفتها مع مبادئ التوحيد الاسلامى . وكان يقوم بكل هذا العلماء المعتبرون وأتباعهم وكانوا يمنحون مرتبات شهرية ، وجعلوا ذلك بابا من أبواب الدعوة .. وكان القائم بهذه الدعوة هو داعى الدعاة ، وهو من كبار الموظفين ، وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزى بزيه ، وكانت وظيفة قاضى القضاة وداعى الدعاة تسندان فى كثير من الاحيان إلى رجل واحد ، وقد خصص لداعى الدعاة قسم كبير من قصر الخلفاء الفاطميين ،

وكان يساعده في نشر تعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً ، كما كان له نواب ينوبون عنه في البلاد بلغ عددهم مائة وواحداً وخمسين ، وكان فقهاء الدولة البارزون في الشريعة الإسلامية تحت نفوذه وله مكان خاص بالقصر هو (دارالعلم) ، فكانوا يتصلون به ويتلقون عنه الاوامر ويقدمون إليه في يوم الاثنين ويوم الخميس ما أعدوه للحاضرة في أصول المذهب الفاطمي ، وكانت المحاضرات تعرض قبل إلقاءها على الخليفة فيقرؤها ويذيلها بإمضائه ثم تبلغ اليهم عن طريق (داعي الدعاة) وهو الذي يعرضها بنفسه على الخليفة . وكان الداعي فوق هذا يعقد المجالس ويقرأ على الناس من مصنفاته ، وكان يجلس على كرسي الدعوة في الايوان الكبير فيحاضر الناس ، ويعقد للنساء مجلساً خاصاً بالازهر ، وفيه يلتقن أصول مذهب الاسماعيلية أو الفاطمية .

ولم يكن ذلك كل ما قام به الفاطميون في نشر مذهبهم ، فكانت هناك مجالس تعرض على الناس كل على حسب طبقة . فكان لاهل البيت مجلس ، وللخاصة مجلس . وشيوخ الدولة مجلس ، وللعامة والطارئين مجلس ، والوافدين من البلاد الاجنبية مجلس وكان عند ما يفرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضراته على المؤمنين والمؤمنات أقبلوا عليه فقبلوا يديه فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي عليه إمضاء الخليفة ، وكان من اختصاص (داعي الدعاة) جمع النجوى وتدوين اسم من يدفع إليه أكثر من المال المقرر ، والنجوى نوع من الصدقة مقدارها ثلاثة دراهم وثلاث دراهم ، أما السادة الاسماعيلية فكان الواحد منهم يدفع ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلاثي دينار ويمتازون عن عامة الناس فيعطى الواحد منهم رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة وفيها هذه العبارة (بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك) .. وقد لاقت الدعوة الفاطمية السياسية والدينية نجاحاً عظيماً في خلافة الحاكم بأمر الله ، فقد بذل هذا الخليفة مجهوداً كبيراً في نشرها حتى أرغم الناس عليها لقوانينه الجائرة وانضموا إليها مكرهين .

وأهم الكتب التي تبحث في هذه التعاليم كما يقول الأستاذ أحمد توفيق عياد كتاب « أسرار الباطنية للباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ » و « الملل والنحل » للشهرستاني و « رسائل إخوان الصفا » : ويجب أن يشار إلى وثيقة هامة في هذا الموضوع وهي المخطوط الموجود بدار الكتب بالقاهرة وعنوانها (رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته) . كما أنه يوجد مخطوط آخر في أربعة مجلدات بالمكتبة الأهلية بباريس عنوانه (المشاهد والأسرار التوحيدية لمولانا الحاكم) .

ومنها يتبين أن الدعوة قد بنيت على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة .

والفلسفة وهي أساس الشريعة عند الفاطميين قد حلت في عهد الحاكم في محل القرآن والسنة ، ومنها يتضح كيف بلغت هذه الدعوة وعملت في عقول الأهلالي حتى تجاسر الحاكم أن يدعى الألوهية وأن الله قد تجسم في شخصه . وهذه الدعوة تلخص لنا تعاليمهم ، والأصل فيها أنهم أخذوا مذهب الأفلاطونية الحديثة وطبقوه على مذهبهم الشيعي تطبيقاً غريباً ، واستخدموا ما نقله إخوان الصفا في رسائلهم من هذا المذهب الأفلاطوني .

ودعوتهم مرتبة على منازل ، دعوة بعد دعوة ، حتى تبلغ هذه الدعوات تسعاً يبدأ الداعي أولاً باستدراج المدعو بعد أن يكون قد وقف على هذه التعاليم ومبلغ إيمانه بدينه ، ويستتوي به إلى هالته العقلية ، ويشرح يشككه في أفكاره بأسئلة إنكارية : ما معنى العدو بين الصفا والمروة ؟ ولم كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة وما بال الله قد خلق الدنيا في ستة أيام ؟ أعجز عن خلقها في ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب في القرآن مثلاً والكاتبين الحافظين ؟ أخاف أن نكابره ونجاحده حتى أدلى العيون وأقام علينا الشهود وقيد ذلك في القرطاس بالكتابة ؟ .

وهكذا يستمر يلقى الأسئلة سراعاً وينفث سموم الريب في النفس ، ثم يعقب على هذه الأسئلة بأسئلة الغرض منها استواء المدعو إلى حظيرة الفلسفة والطريقة التي كانوا يقولون بها : أين أرواحكم ؟ وكيف صورها وأين مستقرها ، وما أول أمرها ؟ والانسان ماهو ؟ وما حقيقةته ؟ وما الفرق بين حياته وحياته البهائم ؟ وما معنى قول الفلاسفة : الانسان عالم صغير والعالم لإنسان كبير ؟ وأمثالها حتى إذا علم الداعي أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه وطلب منه الجواب عنها ، قال له حينئذ : لا تتعجل فإن دين الله أعلا وأجل من أن يبذل لغير أهله ، ثم بعد حديث وإغواء يأخذ عليه عهداً ألا يفشي سراً ، ولا يظاهر أحداً عليهم ، ولا يطلب لهم غيلة ، ولا يكتسبهم نصحاء ولا يوالي عدوا لهم ، فإذا أعطى العهد طلب منه جملاً من المال يجعله مقدمة أمام كشفه له الأمور وتعريفه إياها .

وينتقل إلى الدعوة الثانية ومرماها لإثبات ضرورة وجوب الامام الذي ينصبه الله للناس ، وإلى تقرير أن الأئمة السبعة آخرهم محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وهو صاحب ذلك الزمان ، وعنده علم المستورات وبواطن المعلومات التي لا يمكن أن توجد عند أحد غيره ، وعلى جميع الكافة اتباعه والخضوع له والانقياد إليه والتسليم له ، لأن الهداية في موافقته واتباعه والضلال والخيرة في العدول عنه . . ثم ينتقل إلى

تعليل اعتقادهم في الاثمة والنقباء الاثني عشر .

وهنا يكون الداعي قد تمكن من نفس المدعو فيعمل على تعمير منطقته العقلي ويدعوه إلى النظر في كلام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ، وينهاه عن قبول الاخبار والاحتجاج بالسمعيات .

ثم ينتقل إلى إثبات معجزة النبي الصادق والوحي على طريقة تعاليمهم الشيعية . وقد ظلت الدعوة قائمة إلى هذه المبادئ ، وكان من زعمائها في القرن الخامس الهجري « الحسن بن محمد الصباح » .

وهذه التعاليم تظهر بجلاء في رسائل إخوان الصفا ، وتوهم أن الروح التي أملتها روح عالية تتسع آفاقها لاستيعاب حيز كبير من حقائق هذا الوجود ، وأن العقلية التي أخرجتها عقلية حرة جريئة . والواقع ربما خالف هذا فإن الفاطميين وإن كان يشم من كلامهم الدعوة إلى وحدة الوجود ، والنظر إلى هذا العالم بعين الحكمة والاعتبار والفلسف ، إلا أنهم أفسدوا هذه النظرة السامية بحجرهم على العقول في الاعتقاد بآثمتهم ، وأفسدوا كل شيء حينما حاولوا أن يستغلوا ما في هذه التعاليم من طرافة وطلاوة لمصالحهم الخاصة ، بمحاولة تطبيقها على ما يتبغى أهواؤهم للسياسية ، وأنهم حاولوا فرض شيء كثير من الاستبداد على عقول الناس ومشاعرهم لحد يكاد يبلغ اليهود ، وآية ذلك ظاهرة في الفقه في هذا العصر ، وتوقف التفكير فيه عند حد التقليد وعجزه عن الابتكار والرأي والقياس . وآية ذلك ظاهرة في بعض شعراء هذا العصر الذين أفسدت عليهم شاعريتهم حتى صاروا يؤطون الحاكم ويعتقدون أن الله قد يتجسم في شخص الاثمة والخلفاء : من ذلك ما قاله ابن هاني الأندلسي في المعز :

ماشدت لاما شامت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الانصار
وهو الذي تجدى شفاعته غدا حقا وتحمد إذ تراه النار

لأنهم استمدوا تعاليمهم من الأفلاطونية الحديثة وأخذوا ما نقله إخوان الصفا عنها وعن الفلسفة اليونانية فأفسدوها حينما أرادوا تطبيقها على الناس ، يبتغون من وراء ذلك تشكيل عقائدهم بأسلوب يضمن لهم السلطان والامامة . ومثل هذا الأسلوب في التفكير والاعتقاد أقرب إلى أن يكون فارسيا منه إلى أي شيء آخر ، وقد كان للشيعنة أكبر عضد في فارس ، ولعل المذهب تأثر كثيرا بعقلية الفرس الواقعية واعتقادهم في الحلول وتأليه الاكاسرة . ومثل هذا الأسلوب أبعد ما يكون عن النفسية المصرية

فقد صعب تمثيله وهضمه فنبذته ولو أنها أكرهت عليه مدة طويلة .

ولا يمكننا أن نقدر مقدار النجاح في شوع المذهب الاسماعيلي بمصر وقدر الذين انتحلوه من خاصة الائمة ، إلا أننا نعلم أن أثره في العامة كان قليلا جدا لما يروى من أخبار نفورهم من مظاهر الاسماعيلية ومن عقائدهم ، ويظهر أن بيئة الفقهاء لم تقبله ، ووسموه بميسم الكفر والالحاد ، فنفر الجمهور منه ، وزاد نفرتة السرية التي كانت تحيط بالدعوة ، فزاد ذلك في تأييد اعتقادهم أنه خارج عن الدين توارثوه عن أئمتهم وعن علمائهم .

وهذه العبودية التي فرضها الفاطميون على العلماء بأشر تعاليمهم وحدها وتأيد مذهبهم الفاطمي في الفقه ومحاجتهم الناس ، أثرت أثرا بليغا في تطور التشريع الاسلامي ، فقد سار التشريع في هذا العهد في دور التقليد وعدم الاجتهاد . فإن الجؤ ، لا يساعد العلماء على الابتكار والتجديد .

ولكن نلاحظ من ناحية أخرى أن نشاطهم في بث الدعوة أدى إلى خلق هذا النوع الجديد من العلوم الذي أطلق عليها « أدب البحث » وألفت في قواعدها الكتب ، وكثرت مجالس النظر وشاعت المناظرات والمجادلات شيوعا .
وبقي مذهب الشيعة منتشرا في مصر قضاء وفي الأزهر دراسة ، إلى أن انقرضت دولة الفاطميين . . .

وعادت لمصر حينئذ السنة المحمدية ، وأول مذهب سني درس بالأزهر المذهب الشافعي وانقرض من ذلك الحين المذهب الشيعي ، ولم يبق له من أثر بالأزهر سوى الجراية ، تعطى لمن هو متمذهب بهذا المذهب ، وهذه الجراية كانت تصرف لأصحابها الوقت قريب . هذا وتعاليم الشيعة الآن معمول بها في فارس وبمصر متحف خاص (بالبهائية) التي تعمل على حد هذه التعاليم ، ويقرر الأستاذ (بيرم) في رسالة وضعها عن الأزهر وقدمها لمؤتمر المستشرقين المنعقد بمدينة (هامبورج) في أوائل سبتمبر سنة ١٩٠٢ ان العلوم الرياضية كانت تدرس بالأزهر ، كالعلوم الفلكية والطبيعية والجغرافية ، ولكنه استند في تقريره هذا إلى أنه استنتج ذلك من رعاية الفاطميين بهذه العلوم وعنايتهم بالكتب وجمعها واستبعد ألا تكون هذه العلوم قد درست بالأزهر ، والأزهر كان متأثرا في حياته بكثير من العوامل السياسية التي ظهرت وقتذاك . وان ما كان يدرس فيه في عهد الفاطميين هو التعاليم الشيعية الاسماعيلية والدعوة إليها ، والمذهب الفاطمي في الفقه . . وكان لهذه التعاليم أثر واضح في الحياة الخلقية في ذلك العصر ، وقد عدد آفاتنا الغزالي

وآفات عقلية أوقفت التشريع الاسلامي عند حد التقليد وعدم الاجتهاد ، وأصبح التشريع الاسلامي في هذا العصر هو المرحلة الاخيرة لتطوره . ولم يكن للعقول في ذلك الوقت سبيل إلى الاجتهاد والقياس ، واحتاجوا إلى تنظير المسائل في الالحاق وتفرقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على هذا النوع من التنظير والتفرقة .

ومن هذا كله نعلم أن الأزهري اتخذ أول ما أنشئ مسجدا لعبادة الله والدعاية للفاطميين ودواتهم ، ثم عقدت في جنباته حلقات الدروس العامة ، فكان الاساتذة من فقهاء الشيعة يجلسون لالقاء دروسهم على كل من يحضرها في الفقه واللغة والأدب والمنطق والطبيعات والرياضيات .

وأول كتاب قرئ في الأزهري على ما ذكرناه هو « الاقتصار » في فقه آل البيت لأبي حنيفة النعمان بن أبي عبد الله بن محمد القيرواني قاضي المعز لدين الله ، وكان مالكي المذهب ثم انتحل المذهب الاسماعيلي فأخلص له ، وكان من دعائم الدعوة الفاطمية . وكتابه « الدعائم » من أصول المذهب الاسماعيلي ، ونهج على منهاجه الوزير يعقوب ابن كلس في كتابه « مصنف الوزير » ، وله كتاب اسمه « مختصر الآثار فيما روى عن الائمة الأطهار (١) » ، ومن كتبه أيضا : « الينبوع » ، « المجالس والمسائرات » . وتوفي النعمان هذا في شهر جمادى الآخرة عام ٣٦٣ هـ ، وصلى عليه المعز لدين الله وكان يتولى دراسة كتاب « الاقتصار » في الأزهري ابن النعمان واسمه أبو الحسن علي بن النعمان (٢) . . وكتبه الأخرى كان بعضها يقرأ في الأزهري ، والبعض الآخر

(١) منه نسخة خطية في الفاتيكان رقم ٥ - ١١٠٤ .

(٢) كان علي شيعيا غالبا ، وشاعرا مجودا (٨٤ ج ٣ شذرات الذهب) وتوفي أبو الحسن هذا عام ٣٧٤ هـ - فولى القضاء بعده أخوه أبو عبد الله محمد وتوفي عام ٣٨٩ هـ (٥٥ ج ٤ ابن خلدون) .

ولأبي الحسن علي بن النعمان شعر في البيتية (٣٨٤ و ٣٨٥ ج ١) . . وكذلك لأخيه القاضي أبي عبد الله محمد بن النعمان شعر (٣٨٥ و ٣٨٦ ج ١ البيتية) . وكان أبو الحسن علي بن النعمان أول من لقب بقاضي القضاة في مصر (٩١ ج ٢ حسن المحاضرة) .

وكان علي بن النعمان محل عطف وثقة العزيز بالله ثاني خلفاء دولة هذا المذهب بمصر ، إلى أن قلد القضاء بالديار المصرية ، والشام ، والحرمين ، والمغرب ، وجميع

يقرأ في حلقات خاصة للذين يريدون التخصص في فقه الشيعة والدعوة الفاطمية .
وظال الجامع الأزهر مثابة لحلقات الدروس يلقيها بنو النعمان حتى سنة ٣٦٩ هـ ،
إذ بدأت حلقات الأزهر تتحول إلى دراسة جامعية منظمة مستقرة ، فقد بدأ يعقوب
ابن كلس (١) وزير المعز لدين الله يقرأ بانتظام فيه كتابه المعروف بالرسالة الوزيرية
في الفقه الشيعي ، وكان يجلس بنفسه لقراءته في الناس خاصتهم وعامتهم ، ويهرع
لسماعه سائر الفقهاء والقضاة والأدباء وأكابر القصر ورجال الدولة والدعوة ،

ملكته ، والخطابة والامامة ، ودار الضرب . وقرى مرسوم توليته هذه الأشياء
بالجامع الأزهر وبجامع عمرو ، وكان أمرهما إليه . وكان من عادة الدولة وقتئذ أن
من يقلد هذه الوظيفة يخلع عليه الخلع المذهبة ، ويقلد السيف ، ويتم له ذلك بلا طبل
ولابوق ، إلا إذا ولي أمر الدعوة مع الحكم ، فلقد كان للدعوة في خلعه الطبل ، والابوق
والبنود ، ولا تزال الطبول والبنود موجودة بمصر حتى الساعة عند أرباب الطرق
الصوفية ، وهي بقية أو أثر من آثار هذه الدولة بمصر .

وكانت رتبة قاضي القضاة وقتئذ أجل رتب أرباب العمام بمصر . ويكون في
بعض الاوقات داعيا فيقال له حينئذ : قاضي القضاة وداعي الدعاة . وكانت العادة
ألا يحضر لاملاك ولا جنازة إلا بإذن . وكان داعي الدعاة يلي قاضي القضاة في الرتبة
ويتزيا بزيه في اللباس وغيره .

(١) كان يعقوب يهوديا ، ولد في بغداد ، وجاء إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، واتصل
بكافور ، وأسلم في شعبان ٣٥٦ هـ ، ثم سار إلى بلاد المغرب واتصل بالمعز وكان
رائدا لجيشه في فتح مصر ، وحضر مع المعز إلى مصر عام ٣٦٢ هـ ، ولما توفي رثاه
مائة شاعر (٣٩١ - ٣٩٧ هـ ٣ ابن خلكان) .

ويروى أنه تسابق العزيز بالله الفاطمي مع وزيره يعقوب بن كلس بالحمام ،
فسبق حمام الوزير ، فعز ذلك على العزيز ، ووجد أعداء يعقوب إلى الطعن فيه سيلا
فقالوا للعزيز : إنه قد اختار من كل صنف أجوده وأعلاه ، ولم يبق منه إلا أدناه
حتى الحمام ، وراموا بذلك أن يغروه به حسداً منهم لعله يتغير عليه ، فاتصل ذلك
بالوزير فكتب إلى العزيز :

قل لأمير المؤمنين الذي له العلا والمثل الثاقب
طائر ك السابق لكسه جاء وفي خدمته حاجب

فأعجب ذلك منه ، وسكن غضبه .

وكانت تمتاز حلقات ابن كلس بتحررها من القيود الرسمية ، واتجاهها نحو الاهداف العلمية ، وبذلك كانت أول مجالس جامعية عقدت بالجامع الأزهر .

وفي عام ٣٧٨ هـ - ٩٨٨ استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه ويعقدون مجالسهم بالأزهر في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيها ، وكان رئيسهم ومنظم حلقاتهم هو الفقيه أبو يعقوب قاضي الخندق ، وقد رتب لهم العزيز أرزاقا وجرايات شهرية وأنشأ لهم دارا للسكنى بجوار الأزهر ، وخلع عليهم في يوم الفطر ، وأجرى عليهم ابن كلس أيضا رزقا من ماله الخاص (١) .

وفي عام ٣٨٠ هـ رتب المتصدون لقراءة العلم بالأزهر ، وبذلك صار الأزهر معهدا جامعيًا للعلم والتعليم والدراسة ، وكان هؤلاء الأساتذة الذي رتبهم ابن كلس للقراءة والدرس بالأزهر وأقرهم العزيز بالله أول الأساتذة المدرسين الذين عينوا بالجامع الأزهر الشريف ، ومن هذا التاريخ يبدأ الأزهر حياته الجامعية العلمية الصحيحة . . . وفي الحق أن هذا يدل على أن ابن كلس كان وزيرا عظيما وعالما جليلا وأديبا كبيرا .

وكان يعقد بداره مجالس علمية وأدبية دورية ينتظم في سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء (٢) ، وكان يشرف بنفسه على هذه المجالس ، ويشترك في أعمالها ، ويعقد العطاء على روادها . وقد أخذ ابن كلس بقسط حسن في التأليف والكتابة فوضع كتابا في القراءات ، وكتابا في الفقه ، وكتابا في آداب رسول الله ، وكتابا في علم الأبدان والصحة ، ومختصرا في فقه الشيعة مما سمعه من المعز لدين الله . وهو المعروف بالرسالة الوزيرية . وكان يقرأ كتبه على الناس تارة بالجامع الأزهر وتارة بداره ، ويجتمع لديه الكتاب والنحاة والشعراء فيسأظروهم ويصلحهم ، وكانت موائده دائما منصوبة معدة للوافدين ، وكان كثير الصلات والإحسان ، وبالجملة فقد كان هذا الوزير والعالم الأديب مفخرة في جبين عصره ، وقد أشاد شعراء العصر بجلاله وجوده ، ومن ذلك ما قاله أحدهم حين أصابت الوزير علة في يده :

يد الوزير هي الدنيا فإن أملت رأيت في كل شيء ذلك الأملما
تأمل الملك وانظر فرط علته من أجله واسأل القرطاس والقلما

(١) صبح الأعشى عن المسبحي ٢٦٧ ج ٣ ، وخطط المقرئ ص ٤٩ ج ٤

(٢) ٤٧ تاريخ الأزهر لعنان .

ومرض ابن كلس في شوال سنة ٣٨٠ هـ ، فخرج عليه العزيز أيما حزن ، ولبت يعود ويرعاه ، حتى توفي في الخامس من ذي الحجة ، فحزن عليه حزناً شديداً ، وأمر بتجهيزه تجهيز الأمراء والملوك ، وخرج من القصر إلى داره في موكب صامت محزن ، وشهد تجهيزه وصلى عليه بنفسه ، ووقف حتى تم دفنه وهو يبكي بدمع غزير واحتجب في داره ثلاثاً لا يأت كل على مأثته ، والحزن يشمل الخاصة والقصر كله ، وأفاض الشعراء في رثاء الوزير الراحل ومدحه ، فوصلهم العزيز جميعاً ، وعلى الجلة فقد سما ابن كلس في ظل الدولة الفاطمية إلى أرفع مكانة .. ومهما كان فإن تلك الخطوة الأولى في ترتيب الأساتذة والدروس بالأزهر بطريقة منظمة مستقرة ، كان لها أثر كبير في تطور الغاية التي علمتها الخلافة الفاطمية بادية ذي بدء على إنشاء الجامع الأزهر ، فقد كانت هذه الغاية كما رأينا أن يكون المسجد الجامع الجديد رمز الخلافة الجديدة ومنبرا لدعوتها (١) .

ابتدأ الأزهر حياته العلمية المنظمة بخمسة وثلاثين طالباً . ولم يشجع هؤلاء بما رأينا فحسب ، بل كان هناك لون آخر من ألوان التشجيع ، فيحدثنا المقرئ أن العزيز بالله « خلع عليهم في يوم عيد فطر وحملهم على بغلات » . ولم يكن الأزهر في ذلك العهد مقصوراً على الرجال فحسب ، بل كان للمرأة فيه نصيب فسكن يفردن فيه بمجالس خاص (٢) .

وهكذا آلت تلك الحركة العلمية الميمونة إلى الأزهر ، وازدهرت فيه وترعرعت حتى تخرج فيه أئمة فضلاء ، وشيوخ أجلاء ، خدموا الإسلام والمسلمين بالتأليف تارة ، وبالتدريس أخرى ، حتى أصبح مفخرة العالم الإسلامي عامة ، ومصر خاصة . ولقد عالجت هذه الجامعة الكبرى علوم الدين ، فيسرت سبلها ، وأكثرت كتبها واهتمت بشئون اللغة العربية ، فهدت طرقها ، وأصلحت شأنها ، وبقيت على مدى الأجيال والقرون قائمة بعملها ، مضطلة بمهمتها ، حتى نبه ذكرها وذاع صيتها ، وأما الطلاب من كل فج ، ليغترفوا من منهلها ، ويستضيئوا بنورها ، وانحدر إليها العلماء من كل صوب ، ليسهموا في النفع بها ، ونشر آثارها ، فازدهرت فيها أنواع العلوم

(١) راجع في هذا البحث وما يتعلق به : خطط المقرئ (الطبعة الأهلية)

ج ٤ ص ٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ج ٣ ص ٧ - ١٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ :
والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي ص ٢٣ .

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٢٦ .

والفنون ، وأمدت العالم الاسلامى بما هو فى حاجة إليه .
ولقد كان الأزهر الشريف منذ نشأته موضع عناية الخلفاء الفاطميين : يتعهدونه
بالعناية والرعاية ، ويغدقون على من به من العلماء والطلبة العطايا والهبات ، ويذهبون
إليه بأنفسهم للصلاة والوقوف على حاله ، بما كان له الأثر البالغ فى حفزهم الشيوخ
والطلبة إلى التفرغ للعلم .

الفصل الرابع

الأزهر فى ظلال الفاطميين

تمهيد :

بما تقدم نعلم أن الأزهر بدىء فى بنائه فى ٢٤ جمادى الأولى عام ٣٥٩ هـ - إبريل
٩٧٠ م ، وافتتح للصلاة فى يوم الجمعة ٧ رمضان ٣٦١ هـ : ٩٧٢ م ، وبدأ نظام
الحلقات العلمية فيه من عام ٣٦٥ هـ : ٩٧٦ هـ ، وصار جامعة إسلامية كبيرة من عام
٣٧٨ هـ : ٩٨٨ م .

وإن الفضل فى ذلك يرجع إلى المعز وقائده جوهر ، ثم إلى أسرة القاضى النعمان
الشيعى ، ثم إلى الوزير يعقوب بن كلس .

وكأن المسجد منذ نشأته يسمى جامع القاهرة باسم العاصمة الجديدة ، وقد تكون
تسميته بالجامع الأزهر قد تأخرت قليلا عن التسمية الأولى ، ويرجع عنان (١)
أن اسم « الجامع الأزهر » أطلق عليه بعد إنشاء القصور الفاطمية فى عصر العزيز
بالله ، فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة ، ومنها أطلق على جامع القاهرة وهو
مسجد الدولة الرسمى اسم الجامع الأزهر ، واستمر مسجد القاهرة الجامع يعرف
باسم جامع القاهرة (٢) أو الجامع الأزهر ، حتى عصر المقرئى فى أوائل القرن
التاسع ، ثم تقلص الاسم القديم - جامع القاهرة - شيئا فشيئا وغلب عليه اسم الجامع
الأزهر ، أو جامع الأزهر حتى عصرنا .

ولا بد أن يكون الأزهر قد أسهم فى الحركة العقلية والعلمية فى عصر المعز

(١) ٢٠ تاريخ الجامع الأزهر لعنان .

(٢) ورد فى أخبار العزيز بالله أنه أقام طعاما فى جامع القاهرة - وهو الأزهر
الشريف - لمن يحضر فى رجب وشعبان ورمضان .

والعزيز بالله ، وأن يكون أعلام الدين واللغة والأدب قد اتخذوا منه حلقة علمية منظمة .

فلقد جاء قوم من علماء المغاربة في ركب المعز ، ومن أشهرهم النعمان بن محمد الذي تولى القضاء في مصر هو وأولاده وأسرته عهدا طويلا في ظلال الحكم الفاطمي ، وكانت هذه الأسرة تقوم بالقضاء والدعوة والتأليف في المذهب الشيعي ، وتتخذ من الأزهر مكانا مختارا لنشاطها العلمي ، وكذلك ابن كلس الذي أشرف على تنظيم الأزهر تنظيما جامعيًا علميًا عاليًا .

ومن أشهر العلماء الذين شهدوا عصر المعز والعزيز : ابن زولاق المصري المؤرخ (١) (٣٠٦ - ٣٨٧ هـ) ، وعبد الغني المصري (٢) (٣٣٢ - ٤٠٩ هـ) وكان حافظ مصر في عصره (٢) ، والحسن بن الهيثم المصري الفيلسوف (٣) واشتهر بعد عصر العزيز وتوفي عام ٤٣٠ هـ ، وابن يونس المصري المنجم المتوفى عام ٣٩٩ هـ (٤) والحوافي النحوي المتوفى عام ٤٣٠ هـ (٥) . . . ولا شك أن هؤلاء العلماء وغيرهم قد كانت لهم حلقات في الأزهر .

ومن الأدباء والشعراء في هذا العهد أبو الرقعمق المتوفى عام ٣٩٩ هـ الشاعر (٦) وابن وكيع الشاعر المتوفى عام ٣٩٣ هـ (٧) ، والتهامي الشاعر المتوفى عام ٤١٦ هـ (٨) والمسبحي المصري الكاتب (٩) (٣٦٦ - ٤٢٠ هـ) ، وأبو القاسم (١٠) عبد الغفار شاعر دولة العزيز والحاكم وقتله الحاكم عام ٣٩٥ هـ . . . ولا شك أن هؤلاء الأدباء والشعراء كانوا يحفلون بإلقاء ثمرات قرائحهم على تلاميذهم في حلقات الأزهر العلمية الحافلة (١١)

-
- (١) ٢٣٨ ج ١ ابن خلكان ، ٢٢٥ - ٢٣٠ ج ٧ معجم الأدباء . . . وله كتاب في سيرة المعز وآخر في سيرة العزيز . (٢) ٥٤٧ ج ١ ابن خلكان .
 (٣) ١١٤ و ١١٥ أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي .
 (٤) ٨٥ و ٨٦ ج ٢ ابن خلكان . (٥) ٦ ج ٢ المرجع نفسه .
 (٦) ٧٠ و ٧١ ج ١ المرجع نفسه ، ٣١٠ - ٢٣٤ ج ١ اليتيمة .
 (٧) ٢٤٣ و ٢٤٤ ج ١ ، ، ، ٣٥٦ - ٣٨٤ ج ١ ، ، ،
 (٨) ٥٣ - ٥٥ ج ٢ ، ، ، (٩) ٣٤٢ - ٣٤٣ ج ٢ المرجع نفسه .
 (١٠) ٣٩٦ ج ٣ المرجع نفسه .
 (١١) ويروى أن النساء كن يحضرن في الجامع الأزهر (٢٢٦ ج ٢ الخطط للبقريري)

الآزهر في عصر الحاكم :

وفي عصر الحاكم (١) استمر الأزهر يؤدي مهمته العلمية ، وإن كان الأزهر فوجى . بإقامة الخليفة جامعة جديدة سماها « دار الحكمة » ، أو دار العلم الشهيرة في سنة ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م .

ولكن الأزهر كان يومئذ بفعل الظروف والتطورات التي أشرنا إليها قد بدأ حياته الجامعية ، ومع أن دار الحكمة لبثت مدى حين تنافس الأزهر وتستأثر دونه بالدراسة المتصلة المنظمة ، فإنها لم تلبث لصرامة نظمها وإغراق برامجها في الشؤون المذهبية ، أن اضطربت أحوالها وضعف نفوذها العلمى ، هذا بينما كان الأزهر يسير في سبيل حياته الجامعية الوليدة بخطى بطيئة ولكن محققة ، ويسير في نفس الوقت إلى التحرر من أغلال تلك الصبغة المذهبية العميقة التي كادت في البداية أن تقضى على صبغته الجامعية الصحيحة .

وقد وقف الحاكم وفاقية على الأزهر ودار الحكمة وغيرهما من المساجد ، وجامع الحاكم ، وجامع المقس ، وجامع راشدة ، لإقامة الشعائر الدينية فيها ، وصيانة مبانيها وهذا هو نص الاشهاد الشرعى على هذه الوقفية :

« هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى على جميع ما نسب إليه بما ذكر ، ووصف فيه ، من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسهما الله ، وأجناد الشام والركة والرحبة ونواحي المغرب وسائر أعمالهن ، وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب ، بمحضر رجل متكلم — أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والخصص الشائعة التي يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب ، وأنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة والجامع بالمقس ، اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التي وقفها ، والكتب التي فيها قبل تاريخ هذا الكتاب ، منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا جميع ذلك غير مقسوم : ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها . فن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة

(١) ولد بالقاهرة عام ٣٧٥ هـ وتولى الخلافة عام ٣٨٦ هـ وقتل عام ٤١١ هـ

المحروسة ، جميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف
وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة الذي كله بنفس طاط مصر . ومن ذلك
ما تصدق به على جامع المقس جميع أربعة الحوانيت والمنازل التي علوها والخزنين
الذي ذلك كله بنفس طاط مصر بالراية ، في جانب العرب من الدار المعروفة كانت بدار
الخرق ، وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق في الموضع المعروف بحمام الفار .
ومن ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التي بنفس طاط مصر
بالراية أيضا بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسي
بحدود ذلك كله وأرضه ، وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقاته وحوانيته وساحاته
وطرقه وبمرايه ، وبجاري مياهه ، وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه ، وجعل
ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بته ، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تملكها ، باقية
على شروطها ، جارية على سبيلها المعروفة في هذا الكتاب ، لا يوهنها تقادم السنين
ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ، ولا يستغنى بتجدد تحببها
مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض
والسماوات ، على أن يؤجر ذلك في كل عصر من ينتهي إليه ولايتها ويرجع إليه
أمرها بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من إشهارها عند ذوي الرغبة في
إجارة أمثالها ؛ فيبتدأ من ذلك بمهارة ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته ،
من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه ، وما فضل كان مقسوما على ستين سهما .

من ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور في هذا الاشهد الخمس والثلث
ونصف السدس ونصف التسع ، يصرف ذلك فيما فيه عمارته ومصلحته ، وهو من
العين المعزى الوزن ألف دينار واحدة وسبعة وستون دينارا ونصف دينار وثلث
دينار ، ومن ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون دينارا ، ومن ذلك ثلث ألف
ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك ،
ومن ذلك ثلث ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع في كل سنة
عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير ، ومن ذلك ثلث ثلاثة قناطر
زجاج وفراخها اثنا عشر دينارا ونصف وربع دينار ، ومن ذلك ثلث عود هندي
للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع خمسة
عشر دينارا ، ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفل سبعة دنانير ، ومن ذلك لسكنس

هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمان الخيط وأجرة الخياطة خمسة أدنانير ومن ذلك ثمن مشاققة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلي دينار واحد ، ومن ذلك ثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلي نصف دينار ، ومن ذلك ثمن إردبين ملحاً للقناديل ربع دينار ومن ذلك ما قدر لمؤنة الناس والسلاسل والتنانير والقباب التي فوق سطح الجامع أربعة وعشرون ديناراً ، ومن ذلك ثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء آدم نصف دينار ، ومن ذلك ثمن قنطارين خرقاً لمسح القناديل نصف دينار ، ومن ذلك ثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنبل لتعليق القناديل ، وثمان مائتي مكينة لكنس هذا الجامع دينار واحد وربع دينار ، ومن ذلك ثمن أزيار غفار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع أجرة حملها ثلاثة أدنانير ، ومن ذلك ثمن زيت وقود هذا الجامع واتب السنة ألف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة وثلاثون ديناراً ونصف ، ومن ذلك لأرزاق المصلين يعني الأئمة وهم ثلاثة وأربعة قومة ، وخمسة عشر مؤذناً خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف ، منها البصلين ، ولكل رجل منهم ديناران وثلاث دينار في كل شهر من شهور السنة ، والمؤذنون والقومة ولكل رجل منهم ديناران في كل شهر ، ومن ذلك للشرف على هذا الجامع في كل سنة أربعة وعشرون ديناراً . ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد ، ومن ذلك لمرة ما يحتاج إليه في هذا الجامع في سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك بما قدر لكل سنة ستون ديناراً ، ومن ذلك ثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية لعلف رأسى بقر المصنع الذي لهذا الجامع ثمانية أدنانير ونصف وثلاث دينار ، ومن ذلك للتبن مخزن بوضع فيه بالقاهرة أربعة أدنانير ، ومن ذلك ثمن فدانين قرط لتربيع رأسى البقر المذكورين في السنة سبعة أدنانير ، ومن ذلك لأجرة متولى العلف وأجرة السقاء والحبال والقواديس وما يجرى مجرى ذلك خمسة عشر ديناراً ونصف ، ومن ذلك لأجرة قيم الميضاة إن عملت بهذا الجامع اثنا عشر ديناراً .

والى هنا انقضى حديث الجامع الأزهر ، وأخذ في ذكر الجامع براشدة ، ودار العلم ، وجامع المقس ، ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلاً من الفضة ، فلجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلاً ، ومنها لجامع راشدة تنور واثنا عشر قنديلاً ، وشرط أن تعلق في شهر رمضان ، وتعاد إلى مكان جرت العادة أن تحفظ فيه . . وشرط بعد ذلك في الوقف شروطاً كثيرة ليس هنا مقام ذكرها

وقد أسس الحاكم جامعة المشهور عام ٣٩٣ هـ ، وخطب فيه وصلى فيه بالناس الجمعة وكانت دار الحكمة التي أنشأها يدرس فيها علوم القرآن واللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم وغيرها ، واجتذبت الجامعة الجديدة إليها كثيرا من أعلام المشرق كالرحالة الفارسي ناصري خسرو ، ولبثت دار الحكمة تنافس الأزهر مدى قرن من الزمان ، حتى أغلقت .

مشاركة الأزهر في الحياة العقلية في عصر الفاطميين

كان للأزهر نشاط ضخم في الحياة العقلية والعلمية في العصر الفاطمي كله حتى نهايته عام ٥٦٧ هـ .

ولقد جاءت الدولة الفاطمية إلى مصر مع نفوذها السياسي بحركة علمية قوية فقدمت حركة العلم والأدب والفن في مصر والشام خطوات ، حتى لا يعد شيئا بجانبها ما كان في العهد الطولوني والأخشيدي ، ويصح أن توازن بما كان في العراق ولا سيما العلوم العقلية والفلسفية ، فقد ازدهرت في مصر وسارت شوطا بعيدا . . نعم نشطت الحركة العقلية في مصر والشام في هذا العصر نشاطا كبيرا ، وذلك بفضل الأزهر ودار العلم وحلقاتها العلمية ؛ وعينت الدولة بدور الكتب ونشر العلم ، وتشجيع العلماء ، فظهر الكثير من المؤرخين والفلاسفة والعلماء والرياضيين واللغويين والنحويين والأدباء ، ومنهم الأديفي تليذ أبي جعفر النحاس (١) المصري ، الذي توفي عام ٣٨٨ هـ ، وابن بابشاذ (٢) ، وابن القطاع النحوي م ٥١٥ هـ (٢) المتوفى عام ٤٦٩ هـ وسواهم .

ويقول المقرئ : « إن أول مدارس الأزهر الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة ، ولقد كان ممن ألقى محاضراته في الأزهر المؤيد الشيرازي داعي الدعاة الذي ناظر فيها المعري في عهد المستنصر الخليفة الفاطمي ، وكان الشيرازي شاعرا كتب إلى المستنصر لما حسده الحساد باحتجاب الخليفة عنه بعد قدوم الشيرازي إلى مصر : كتب المؤيد الشيرازي :

أقسم لو أنك توجعتي بتاج كسرى ملك المشرق
وأنتني كل أمور الوري من قد مضى منهم ومن قد بقى
وقلت أن لانتني ساعة أجبت يامولاي أن نلتني

(١) توفي أبو جعفر النحاس عام ٣٣٨ هـ (٢٢٨ ج ١ حسن المحاضرة) .

(٢) ٢٢٨ ج ١ حسن المحاضرة .

لأن إبعادك لي ساعة شيب فودي مع المفرق
فاجاب المستنصر بالله بخطه :

يا حجة مشهورة في الوري وطود علم أعجز المرتقى
ما غلقت دونك أبوابنا إلا لأمر مؤلم مقلق
ولا حجبناك ملالا فثق بوجدنا وارجع إلى الأليق
خفنا على قلبك من سمعه فصدنا صد أب مشفق
شيعتنا قد عدموا رشدهم في الغرب ياصاح وفي المشرق
فأنشر لهم ماشئت من علمنا وكن لهم كالوالد المشفق
إن كنت في دعوتنا آخرأ فقد تجاوزت مدى السبق
مثلك لا يوجد فيمن مضى من سائر الناس ولا من بقى
وللشيرازي محاضراته التي ألقاها في الأزهر مناظرا أبا العلاء المعري .

وله مؤلفات أخرى عدا سيرته وديوانه ومحاضراته ، منها : كتاب الابتداء
والانتهاء ، وكتاب المسألة والجواب ، وكتاب نهج العبادة ، وشرح المعاد ، والمسائل
السبعون ، ونهج الهداية للمبتدئين ، وأساس التأويل بالفارسية ، والسبع السبع ،
والإيضاح والتبصير في فضل يوم القيمة ، وتأويل الأرواح ، والمجالس المستنصرية .
وقد لاحظنا أن هذه المحاضرات القصيرة ، إنما كانت ملخصاً لدروس طويلة فيما يظهر
فلعله كان يكتبها بعد إلقاء الدرس وتفهيمة على سبيل التسجيل والحفظ ، لنسكت هامة
لينتفع القارىء ، كما استفاد السامع .

وهذه هي المحاضرة الأولى من محاضراته :

الحمد لله الذي نظم بين الإنسان والبهائم أن خلقهم من طين ، ثم جعل إنسانهما
من ماء مهين ، ثم اقتضت العناية الإلهية أن رعى في أخلاط الصورة الانسانية من
أكسير العقل بلغة أهل صنعة الكيمياء ، ماعرج به أعلا الماعارج من الفضل والعليا ،
فصار بمن قال الله سبحانه فيه - ومن أصدق منه قبيلا - ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم
في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ،
فاستنزل بتدبيره الطير من الهواء واستخلص الحدث من لج الماء ، واستعبد أجناس
الحيوان طيراً وبهائم وسباعا ، فمنها ما انتفع بلحومها ، ومنها ما استمتع بجلودها
وأصوافها وأوبارها استمتاعا ، وجعل الفلك المحيط على عظم فضائه محصورا في
سرادق فكره ، بدل كون جسمه بالكون والفساد محصورا في سرادق ملكته وأسرره ،

فهذا منفوعه الذى نفعه الله به فى الدار الأولى ، ثم جعله سلما يرتقى به إلى دائم البقاء فى الدار الأخرى . فلو لا نور استبصاره بالعقل ، لما كانت رسالة عن مرسل تقبل ، ولا أمر عن مرسل يؤخذ ويتحمل ، ولا نفس بمعركة توحيد الله سبحانه ترتسم وتنير ، ولا لسان بمعارف الآخرة بين اللهوات يدور . وصلى الله على محمد خير رسول ، استنار بنور سراجيه ، وسار على واضح منهاجه ، وعلى وصيه الذى عرج به من أفق المجد إلى أعلا معراجيه ، وعلى آله الداعين إلى عذب المشرب وفراته ، الناهين عن ملحه وأجاجه .

معشر المؤمنين : جعلكم الله بمن استنارت بنور العقل قلوبهم ، وتجاغت عن مضاجع الجهل جنوبهم ، إن قوما من الآخذين الدين بالعادات ، والجارين فيه على آثار الوالدين والوالدات ، زعموا أن شرائع الأنبياء عليهم السلام التى هى أسباب النجاة ، والطريق إلى دائم الحياة على غير العقل موضوعها . وفى سوى موقعه وقوعها فلو أنهم أنعموا النظر ، وجردوا من شوب العصبية والهوى الفكر ، لعلموا أن أحدهم لو قيل له فى شيء من خاصة أعماله ، وما يصدر عنه من أقواله وأفعاله ، إن فعلك هذا على غير أساس العقل موضوعه ، ولا من مطالعه طلوعه ، لاستشاط من ذلك غضبا ، ولقام له مكذبا ، وفى مثل هذه المواجهة مستذنبا ، فكيف يرضون للأنبياء الذين هم سادات دينهم ، والوسائط بينهم وبين ربهم مالمو قابلهم بمثله مقابل لسكرهوه ، أم كيف لا يعتبرون أن الخطاب فى كتاب الله كله مع أولى الألباب بقوله الله تعالى : « فاتقوا الله يا أولى الألباب ، وقوله « إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » ، وما يجرى مجراه بما كثر وتكرر ، وليس يخلو من كون هذه الأوضاع الشرعية ليس لها برهان من العقل عند الرسول عليه السلام ، الآتى بها نفسه أو كون البرهان عنده فلم يشعر به ، فإن كان لا برهان لها عنده فهو فحش ، فلو أن سائلا سأله عن العلة التى اقتضت أن يجعل الصلاة خمسا ، ولا يجعلها ستا ، فكان يقول لا أدري ، لكشفاه طعنا أن يأتى بشيء لا يدري العلة فيه إذا سئل عنها ، وإن كان لها برهان عند نفسه عقلى - والبرهان مما يحمل الأقوال والأفعال - ثم لم يظهره فلم يقم إذن بحق البلاغ ، وهذا منتف عن الرسول عليه السلام ، لأنه باغ وقال فى النادى : « اللهم اشهد أنى باغت » وسوى هذا فمعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكلف تكليف الشريعة إلا إذا عقل ، فكيف يكلف ذا عقل ما كان موضوعه على غير عقل ، لأن ما كان موضوعه

(٣ - الأزهري)

على غير عقل ، فهو بغير ذى عقل أولى منه بذى عقل ، وما السبب فى تولية العقل أولا وعزله آخرًا ؟ ولما لا تكون التولية آخرًا ككونها أولا ، أو العزل أولا ككونه آخرًا ؟ وهذا بما لا يخفاء به على منصف .

والمعلوم أن الفلاسفة يدعون العلوم العقلية والأشياء الحقيقية ، وأن المسلمين يكفرونهم مع ذلك ، لا نقطاعهم عن سبب الرسالة ، وقولهم أنهم غشوا عن الأنبياء فى معرفة معالم نجاتهم ، وأن الحاجة إليهم لسياسة أمور الدنيا فقط ، بتحسين الدماء والأموال ، ومنع القوى عن الضعيف . واعتقاد المحققين أن العلوم كلها التى منها العقلية التى يدعونها فى علوم الأنبياء اجتمعت ، ومنها اشعبت وتفرعت ، وتصديقهم قول الله سبحانه « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ، وقوله جل جلاله « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » ، فلو أن أحد الفلاسفة قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام ، يسأله عن الملائكة ، والعرش ، والكبرى ، والجنة ، والنار ، وأوضاع شريعته : من صلاتها ، وزكاتها ، وصومها ، وحجها ، وجهادها ، من حيث يدل عليه البرهان العقلى ، أكان يقول النبي ﷺ ، لا قبل لى برهان ذلك ! حاشا لله .. وقول آخر مأثور عن النبي ﷺ أنه قال « أول ما خلق الله تعالى العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال : وعزنى وجلالى ما خلقت خلقا أجمل منك ، بك أثيب ، وبك أعاقب .. فإن كانت الشرائع على غير العقل موضوعا ، فلا ثواب لها ولا عقاب على مقتضى الخير ، « بك أثيب وبك أعاقب » .

معشر المؤمنين : دعوا أهل الفرقة والخلاف ، فإنهم أشياخ غي بقول الله تعالى لنبيه ﷺ « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لنست منهم فى شيء » : وتمسكوا فى دينكم بالأدلة ، واعرفوا المواقيت بالآلهة ، وأصلحوا أموالكم ، وطهروا أسراركم واحمدوا الله تعالى الذى فتح لكم إلى الحقائق أبصارا والناس عنها عمون ، وكشف لكم حجبها فانتم فى رياضها تتنعمون . واجروا فى مضمار التائبين العابدين واستشعروا شعار الراكعين الساجدين . وكونوا دعاة إلى أئمتكم بحسن الأفعال صامتين وقوموا آناه الليل قانتين . جعلكم الله من الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وأوزعكم شكر عارفه . إذ ألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . والحمد لله القاهر سلطانه . الباهر برهانه . العظيم شأنه . الواسع إحسانه . وصلى الله على محمد المنزل عليه فرقانه . المنزل للشرك بنيانه . وعلى وصيه الذى هو مستودع علمه وترجمانه على بن أبى طالب بيده يد الحق . والناطق بلسانه لسانه . وعلى الأئمة من ذريته المحفوظة بهم حدود الدين وأركانه .. وسلم تسليما ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولقد أصيبت الحياة العقلية في مصر الإسلامية بكثير من الاضطراب والضعف في أواسط القرن الخامس الهجري كما يقول عنان ، أى منذ اضطربت شئون الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر بالله ، ونكبت مصر بالشدة العظمى ، وعانت عسف القحط والوباء أعواماً طويلة (٤٤٦ — ٤٦٤ هـ) ، وشغل المجتمع المصرى حيناً بما توالى عليه من الأرزاء والمحن ، وشغل الخلفاء ورجال الدولة بالتنازع على السلطان وتدبير الانقلابات السياسية العنيفة عن تعهد الحركة الفكرية ، وقترت الدولة على معاهد التعليم لنضوب مواردها ، وبددت خزائن الكتب أثناء الفتنة وكانت من أنفس وأعظم ما عرف العالم الإسلامى (١) . . وكان لهذا الاضطراب أثره في الأزهر ودار الحكمة فركدت حركة الدرس والتحصيل تبعاً لركود الحياة العامة واضطراب الحياة الخاصة . وفي أواخر القرن الخامس في عصر أمير الجيوش بدر الجمالي المتغلب على الدولة (٤٦٥ — ٤٨٧ هـ) وولده الأفضل شاهنشاه (٤٨٧ — ٥١٥ هـ) عاد النظام والأمن والرخاء إلى البلاد ، وانتظمت الحياة العامة ، واستعادت الحياة الفكرية نشاطها بما أسبغ عليها من الرعاية ، وما بذل للاتفاق على معاهد الدرس من الأموال والأرزاق .

ويقول عنان : كان نظام الحلقات العلمية وقت إنشاء الجامع الأزهر هو نظام الدراسة الممتازة في مصر الإسلامية وفي معظم الأقطار الإسلامية الأخرى ، وكان قوام الحياة الجامعية والفكرية في العالم الإسلامى ... وكان طبيعياً أن الأزهر حينما أتيح له أن يدخل هذا الميدان الدراسى ، أن تقوم الدراسة فيه وفقاً لهذا النظام التقليدى المتوارث . ولم يك ثمة نظام آخر يمكن التفكير فيه في عصر لم تكن قد عرفت فيه المدارس بعد . . وهكذا بدأت الدراسة في الأزهر في حلقات علمية وأدبية ، واستمرت كذلك على كر العصور . وعقدت أول حلقة للدرس بالأزهر في صفر سنة ٣٦٥ هـ كما تقدم ، وعقدها قاضى القضاة على بن النعمان وقرأ فيها مختصر أبيه في فقه آل البيت وهو الكتاب المسمى «الاقتصار» ، في جمع حافل أثبتت فيه أسماء الحاضرين . وفي سنة ٣٧٨ هـ أذن العزيز بالله لوزيره ابن كلس أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للدرس والقراءة ، وكانوا يعقدون «حلقاتهم» الدراسية بالجامع يوم الجمعة من بعد الصلاة إلى العصر ، وهم أول أساتذة أجريت عليهم من الدولة رواتب خاصة حسبما قدمنا . وفي هذين النصين القديمين ما يوضح لنا نظام الدراسة الأساسية بالأزهر ، وهى نظم

كان قوامها الحلقة الدراسية ، فيجلس الأستاذ ليقرا درسه في حلقة من تلاميذه والمستمعين إليه ، وتنظم الحلقات في الزمان والمكان طبقا للواد التي تدرس ، ويجلس أستاذ المادة من فقه أو حديث أو تفسير أو نحو أو بيان أو منطق أو غيرها في المكان المخصص لذلك من أروقة الجامع أو أبنائه ، وأمامه الطلبة والمستمعون يصغون إليه ويناقشونه .

وكان الأزهر منذ بدأت فيه الدراسة مفتوح الباب لكل مسلم يقصد إليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها ، وكان يضم بين طلبته دائما إلى جانب الطلاب المصريين عددا كبيرا من أبناء الأمم الإسلامية يتلقون الدراسة ، وتجري عليهم الارزاق ، وتقيم كل جماعة منهم في مكان خاص بها . وهذا هو نظام الأروقة الشهير الذي نعتقد أنه بدأ في عصر مبكر جدا (١) ، والذي استمر قائما حتى العصر الأخير ، وما زالت منه إلى اليوم بقية بالجامع الأزهر . ومعظم سكان الأروقة الباقية اليوم من الطلبة الغرباء . ويذكر المقرئ أن عدد الطلبة الغرباء الذين كانوا يلزمون الإقامة بالأزهر في الأروقة الخاصة بهم في عصره - أعني في أوائل القرن التاسع - بلغ سبعمائة وخمسين ، ما بين عجم وزيا لعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة ، وهو رقم كبير يدل على ضخامة العدد الذي كان يضمه الأزهر بصفة عامة من طلاب مصر وطلاب الأمم الإسلامية المختلفة في تلك العصور .

أما مواد الدراسة بالأزهر في هذا العصر فلا ريب - كما يقول عنان - أن علوم الدين واللغة كانت في المقدمة دائما ، وكان للعلوم الدينية بنوع خاص أوفر قسط ، فعلم القرآن والحديث والكلام والاصول والفقه على مختلف المذاهب ، وكذلك علوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة ثم الأدب والتاريخ ، هذه كلها كانت زاهرة بالأزهر خلال العصور الوسطى .

وقد كانت الصيغة المذهبية تغلب كما رأينا على الدراسة بالأزهر ولا سيما في بداية عهدها ، ولم يك ذلك غريبا في ظل دولة كالدولة الفاطمية تتشع بثوبها المذهبي العميق وكان من الطبيعي أيضا أن تحتل علوم الشيعة وفقه آل البيت من حلقاته الدينية المقام الأول ، بيد أنه يمكن أن يقال من جهة أخرى إن هذه الصيغة المذهبية لم تكن دائما

(١) يستفاد من أقوال المقرئ أن نظام الأروقة قد بدأ بالأزهر منذ بناء الجامع ذاته (الخط ج ٤ ص ٤٥)

مطلقة ، ولم تكن دائماً لازماً على الطلاب . ونحن نعرف أن الخلافة الفاطمية على الرغم من استمساكها بصبغتها المذهبية العميقة لم تستطع أن تحشد سواد الشعب المصرى إلى جانبها فى هذا المضمار ، ولم تحاول دائماً أن تجرى على سياسة الارغام فى طبعه بطابعها ، وفى فرض لونها المذهبى على عقائده ، بل نراها فى أحيان كثيرة تلجأ فى ذلك إلى سياسة الرفق والتسامح . ولنا فى ذلك دليل فى المرسوم الدينى الذى أصدره الحاكم بأمر الله — وهو من غلاة الخلفاء الفاطميين — فى سنة ٥٣٩٨ (١٠٠٨م) وفيه يقرر بعض الاحكام ويفسرها على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف فى فهمها ، ويحاول أن يوفق فى ذلك بين المذاهب المختلفة ، وقد جاء فيه بعد الديباجة : « يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ، صلاة الخمس للذين بما جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ، يخمس فى التكبير على الجنائز الخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون ، يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ، لا يسب أحد من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف والخالف فيهم بما خلف ، لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ميعاده ، وعنده كتابه وعليه حسابه . ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم ، لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمد ، من جميع مانصه أمير المؤمنين فى سجله هذا ، وبعده قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » (١) .

وكانت الدراسة فى دار الحكمة ذاتها وهى الجامعة الفاطمية المذهبية حرة تدرس فيها علوم السنة إلى جانب علوم الشيعة ، وقد تحررت كثيراً من صبغتها المذهبية حينما أعيدت بعد إغلاقها فى عهد الخليفة الأمر بأحكام الله ، فمن الواضح إذاً أن الدراسة بالازهر كانت حتى فى الوقت الذى يشتد فيه تيار الدعوة المذهبية تحظى دائماً بقسط من الحرية يريد أو ينقص وفقاً للظروف والاحوال . وكانت دار الحكمة تستأثر بعد ذلك بتدريس العلوم الدينية . بيد أن هذه الصبغة المذهبية خفت وطأتها ... وأخذ الازهر بنصيبه من العلوم بجانب الدين .

هذا وأما عن المكتب الدراسية التى كانت تدرس بالازهر فى العصر الفاطمى ،

(١) راجع نص هذا المرسوم بأكمله فى ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠

فليس لدينا أيضاً سوى إشارات موجزة جداً . وأول كتاب درس بالازهر هو كتاب «الإقتصار» الذي وضعه أبو حنيفة النعمان بن محمد القيرواني قاضي المعز لدين الله في فقه آل البيت ، وكان يتولى قراءته وتدريسه بالازهر ولده أبو الحسين علي بن النعمان كما قدمنا . واستمر في قراءته مدى حين على يد بني النعمان الذين تعاقبوا في قضاء مصر حتى نهاية القرن الرابع . وكان للنعمان القيرواني كتب أخرى في فقه الإمامية (الشيعة) ذكر ابن زولاق مؤرخ المعز لدين الله أسماءها وهي كتاب «دعائم الاسلام» ، الذي عني بتدريسه في الازهر فيما بعد عناية خاصة ، وكتاب «اختلاف أصول المذاهب» ، وكتاب «الاخبار» ، وكتاب «اختلاف الفقهاء» ، ومن المرجح أنها كانت تقرأ أو تدرس بالازهر إلى جانب كتاب «الاقتصار» حتى أواخر القرن الرابع (١) .

وقد انتهى إلينا بعض هذه المؤلفات الشيعية التي افتتحت بها الدعوة إلى دراسة فقه الإمامية بمصر . ويوجد بدار الكتب المصرية نسخة مصورة من المجلد الاول من كتاب «دعائم الاسلام» ، وعنوانه الكامل «دعائم الاسلام في الحلال والحرام والقضايا والاحكام» ، من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله . ويقول النعمان القيرواني في ديباجته : «إنه لما اضطربت الاحكام واختلفت المذاهب وانقلبت أوضاعها ، رأى عملاً بقول رسول الله : «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم عليه» أن يضع كتاباً جامعاً مختصراً بما جاء عن الأئمة من أهل بيت رسول الله ، من جملة ما اختلف فيه الرواة عنهم في دعائم الاسلام ، وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والاحكام . وهذه الدعائم حسبما ورد عن الامام جعفر بن محمد الصادق هي «الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد» ، وهي الموضوعات التي يتناولها المجلد الاول من الكتاب .

وتوجد بدار الكتب نسخة مصورة قديمة من كتاب «الاخبار» ، أو «شرح الاخبار» ، وقد ذكر النعمان القيرواني موضوعه وطريقة تأليفه في مقدمته فيما يأتي : «أثرت منه الاخبار وجمعت منه الآثار في فضل الأئمة الابرار حسب ما وجدته ، وغاية ما أمكنني واستطعته ؛ فصححت ما بسطته في كتابي هذا وألفته ، بأن عرضته على ولي الأمر وصاحب الزمان والعصر ، مولاي المعز لدين الله أمير المؤمنين عليه السلام وعلى سلفه وخلفه ، وأثبت منه ما أثبتته وصح عنده وعرفه وأمره عن الأئمة الطاهرين

وأجاز لي سماعه منه ، وبأن أرويه لمن يأخذه عنى وعنه عليه السلام ، فبسطت في هذا الكتاب ما أثبتته وأجازه وعرفه ، وأسقطت ما أنكره من ذلك ، وذلك مما نسبته إلى أهل الحق المبطلون وحرف من قو لهم المحرفون .

ثم قرىء بالأزهر كتاب ألفه الوزير ابن كلس في الفقه الشيعي على مذهب الاسماعيلية مما سمعه في ذلك من المعز لدين الله والعزير بالله ، وهو المعروف بالرسالة الوزيرية ؛ وكان يجلس لقراءته وتدرسه بنفسه حسبما قدمنا . وأفتى الناس بما فيه (١) فالكتب الأولى التي قررت للتدريس بالأزهر هي كتب اشتقت من المصادر المذهبية الرسمية أعني من أولياء الخلافة الفاطمية ذاتها ، وكان لها صبغة رسمية واضحة . وكان التدريس بالأزهر يجري يومئذ على مذهب الشيعة بصفة رسمية . وشدد في ذلك بادىء ذي بدء حتى إنه في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة في عهد العزيز بالله ، قبض على رجل وجدعده كتاب « الموطأ » للإمام مالك . وجلد من أجل إحرازه (٢) وفي سنة ست عشرة وأربعمائة ، أمر الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله ولد الحاكم بأمر الله بأن يدرس الدعاة للناس كتاب « دعائم الإسلام » ، وكتاب « مختصر الوزير » ورتب لمن يحفظهما مالا (٣) والدعاة هم أساتذة دار الحكمة وقد كانوا يجلسون للتدريس بالجامع الأزهر في أحيان كثيرة (٤) وقد عرفنا موضوع كتاب « دعائم الإسلام » وعرفنا مؤلفه . أما « مختصر الوزير » فيلوح لنا أنه هو مؤلف ابن كلس أعني « الرسالة الوزيرية » .

والمرجح أن كثيراً من الكتب الفقهية التي كانت تدرس بدار الحكمة كانت تدرس أيضاً بالأزهر كما يقول عنان ، وإن كنا لم نعثر على نصوص أو بيانات أخرى تلقى ضوءاً على أنواع الكتب التي كانت تدرس بالأزهر في هذا العصر في العلوم الأخرى . وكانت تشمل مصنفات أعلام الاساتذة المعاصرين الذين انتهت إليهم الرياسة في بعض العلوم أو الذين تولوا التدريس بالأزهر يومئذ ، مثل العلامة أبي الحسن علي بن إبراهيم الحوفي إمام العربية والنحو وصاحب كتاب إعراب القرآن وابن بابشاذ النحوي صاحب كتاب « المقدمة » و« شرح الجمل » ، وابن القطاع اللغوي

(١) راجع الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي ص ٢٣ ، وابن خلكان

ج ٢ ص ٤٤١ ، والخط ج ٤ ص ١٥٧ .

(٢) الخط ج ٤ ص ١٥٧ . (٣) الخط ج ٢ ص ١٦٩ .

(٤) الخط ج ٣ ص ٢٢٦ ، تاريخ ابن ميسر ص ٦٤ .

صاحب كتاب « الافعال » ، وأبى محمد عبد الله بن برى المصرى إمام اللغة فى عصره ، وأبى العباس أحمد بن هاشم المحدث والمقرئ ، وأبى القاسم الرعينى الشاطبى إمام القراءات وصاحب القصيدة الشهيرة فى علم القراءات « حرز الامانى ووجه التهانى » (١) ، وغيرهم ممن انتهت إليهم الرياسة فى هذا العصر ، واعتبرت مصنفاتهم متونا ومراجع . بل لقد لبثت مصنفات بعض أولئك الأئمة تدرس بالأزهر حتى العصر الأخير مثل قصيدة الشاطبى فى القراءات .

على أن كثيراً من الكتب التى ألقت ودرست فى هذا العهد ، قد دثر بانهاء الدولة الفاطمية وحرص الدولة الأيوبية التى خلفتها ، على محو رسومها واثارها .

هذا وقد عنتت الدولة الفاطمية عناية خاصة باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات العظيمة ، وكان بالقصر الفاطمى مكتبة جامعة يفيض المؤرخون كما يقول عنان فى وصف عظمتها ونفاسة محتوياتها ، وكان بها ما يزيد على مائتى ألف مجلد فى سائر العلوم والفنون ، فى الفقه والحديث واللغة والتاريخ والأدب والطب والكيمياء والفلك وغيرها . وقال ابن أبى طى بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر « ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ، ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر » (٢) . وكان بدار الحكمة مكتبة أخرى يرجع إليها الأساتذة والطلاب ، وبها عدد كبير من الكتب الفلسفية والرياضية والروحانية وغيرها مما يتصل بدروس الحكمة (٣) .

وكانت فى الواقع خلفاً لمكتبة الاسكندرية الشهيرة . وكان للجامع الأزهر مكتبة خاصة به ، وكانت المساجد الجامعة تزود فى هذه العصور بمجموعات من الكتب ولا سيما كتب الحديث والفقه . ولكن يوجد ثمة ما يدل على أن الأزهر كان له من خزائن الكتب نصيب حسن ، وكانت له مكتبة كبيرة ذات أهمية خاصة ، فإن

(١) توفى الحوفى سنة ٤٣٠ هـ وابن بابشاذ سنة ٤٦٩ هـ وابن القطاع سنة ٥١٥ هـ وابن برى سنة ٤٩٩ هـ وابن هاشم سنة ٤٤٥ هـ . والشاطبى سنة ٥٩٠ هـ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٥٣ - ٢٥٥ . ولعله لم يفتق المكتبة الفاطمية فى ضخامتها سوى مكتبة قرطبة الشهيرة التى بلغت فروتها فى عهد الحكم المستنصر بالله . وقدر ما بها يومئذ من الكتب بستائة ألف مجلد .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٥٤ و ٣٣٤ .

ابن ميسر يقول في أخبار سنة ٥١٧ هـ إنه قد أسند إلى داعي الدعاة أبي الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب (١) ؛ وإسناد الإشراف على خزانة الكتب إلى داعي الدعاة ، وهو أكبر رئيس ديني بعد قاضي القضاة ، دليل على قيمتها وأهميتها .

وكان في مقدمة الأساتذة المدرسين في الأزهر بنو النعمان قضاة مصر ، فكان القاضي أبو الحسن علي بن النعمان أول من درس بالأزهر ، وكان فوق تضلعه في فقه آل البيت أديباً شاعراً ، وتوفي سنة ٣٧٤ هـ ، ودرس بالأزهر أيضاً أخوه القاضي محمد بن النعمان المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ، ثم ولده الحسين بن النعمان قاضي الحاكم بأمر الله (٢) . ومن المرجح أن فقيه مصر ومؤرخها الكبير الحسن بن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) ، كان من الذين تولوا الدراسة بالأزهر يومئذ ، فقد كان صديق المعز لدين الله ومؤرخ سيرته ، ثم صديق ولده العزيز من بعده . ومن المعقول أن يقع الاختيار عليه للتدريس بالمعهد الفاطمي الجديد ، كما يقول عنان .

وهناك من أعلام الفكر والأدب في هذا العصر من كانت لهم صلة علمية بالأزهر فتلقوا دراستهم كما يقول عنان أو تولوا التدريس فيه ، فمنهم المسيحي الكاتب والمؤرخ الشهير ، وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرائي ، ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ ، وتوفي سنة ٤٢٠ هـ . وكان من أقطاب الأمراء والعلماء ، تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه ، وأخذ بقسط في مختلف علوم عصره ، ومن المعقول أن يكون المسيحي وهو من أولياء الدولة الفاطمية وأقطاب علمائها من أساتذة المعهدين الفاطميين : دار الحكمة والأزهر . وشغف المسيحي بتدوين التاريخ وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » ، وهو أثر ضخم يتناول تاريخ مصر وما بها من الأبنية والعجائب ، وذكر نيلها وإقليمها ومجتمعاتها حتى أوائل القرن الخامس الهجري ، ولم يصلنا هذا الأثر الذي يلقي بلا ريب أعظم ضوء على تاريخ الدولة الفاطمية في عصرها الأول ، ولكن الشذور التي وصلتنا منه على يد المقرئ وغيره من المؤرخين المتأخرين تنوه بقيمة

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٤ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٣ . وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٨ ،

وذيل قضاة مصر (ملحق كتاب الكندي) ص ٥٨٩ و ٦١٠ و ٦١١ .

هذا الاثر ونفاسته . وكتب المسيحي كتباً أخرى في التاريخ والأدب والفلك ولكننا لم نلق شيئاً منها (١) .

ومنهم أبو عبد الله القضاعي الفقيه والمحدث والمؤرخ ، وهو محمد بن سلامة ابن جعفر ، ولد بمصر في أواخر القرن الرابع ، وتوفي بها سنة ٤٥٤ هـ . وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي ، تولى القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وأوفده المستنصر سفيراً إلى تيودورا قيصرية قسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر ، وكتب عدة مصنفات في الحديث والفقه والتاريخ ، منها « الشهاب » و « مسند الصحاب » وهما في الحديث وكتاب « مناقب الإمام الشافعي » و « أنباء الأنبياء » و « عيون المعارف » وهما مختصران في التاريخ ، وكتاب « المختار في ذكر الخطط والآثار » وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره (٢) .

ومنهم الحوفي النحوي اللغوي ، وهو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد وكان من أئمة اللغة في عصره ، واشتغل مدة طويلة بالتدريس في مصر والقاهرة ، وألف كتباً كثيرة في النحو والأدب ، منها كتاب « إعراب القرآن » وكانت وفاته في سنة ٤٣٠ هـ .

ومنهم أبو العباس أحمد بن هاشم المصري ، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين واشتهر بتدريس علم القراءات ، وتوفي سنة ٤٤٥ هـ .

ومنهم ابن بابشاذ النحوي الشهير ، وهو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصري المعروف بابن بابشاذ ، كان إمام عصره في اللغة والنحو وألف فيه مائة كتب ضخمة واشتغل حيناً بديوان الانشاء في عهد المستنصر بالله وتوفي سنة ٤٦٩ هـ .
ومنهم أبو عبد الله محمد بن بركات النحوي تلميذ القضاعي ، كان أيضاً من أئمة اللغة والنحو وتوفي سنة ٥٢٠ هـ .

(١) راجع في ترجمة المسيحي ، ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) راجع في ترجمة القضاعي ، ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ . والسبكي في طبقات الشافعية ج ٣ ص ٦٣ ، وأخبار مصر لابن ميسر في حوادث سنة ٤٤٧ هـ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ .

وبعد فقد كان الأزهر بحق أعظم مؤسس لصرح الحياة العقلية والثقافية في عصر الفاطميين .

ونذكر في هذه المناسبة أن من عهد إلهم في التدريس في الأزهر عند إنشائه القاضي علي بن ميمون المتوفى ٢٧٤ هـ — ٩٨٤ م وأخوه القاضي محمد المتوفى عام ٣٨٩ هـ — ٩٩٨ م . وقد نبغ الحافظ السلفي المتوفى عام ٥٧٦ هـ ولاشك أنه كان له نشاط علمي في الأزهر .

ونحن نعلم مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الرياضية والطبية والفلكية والجغرافية تلك العلوم التي أنشأوا لها في عهد الحاكم سنة ٣٩٥ هـ مؤسسة خاصة أسموها دار الحكمة ، وهذا مما يرجع في نظرنا أن هذه العلوم كانت موضوع دراسة في الأزهر أيضا ، بالإضافة إلى العلوم الأخرى . غير أنه ليس من شك أن الصدارة والشرط الأكبر من العناية كانتا للعلوم النقلية الدينية ولا سيما علوم قانون الشريعة .

نعم إنه في عهد الدولة الفاطمية — أعني في غضون قرنين كاملين — اقتصر التعليم الديني على المذهب الشيعي ، فأصبح هو المذهب السائد في التطبيقات العلمية والأحكام القضائية ، وصارت مذاهب أهل السنة مجهولة ، بل كانت كتبهم تصدر في بعض الأحيان .

الأزهر جامع الدولة الرسمي :

في يوم عيد الفطر سنة ٣٦٢ هـ ركب المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر عقب مقدمه إلى عاصمة مملكة الجديد بقليل ، كما يقول عنان (١) — إلى الجامع الأزهر لصلاة العيد ، وألقى خطبة بليغة أبكى فيها الناس (٢) ، وكانت هذه أول صلاة رسمية يشهدها الخليفة الفاطمي بالجامع الأزهر .

واستمر الأزهر يستأثر بهذا الامتياز الرسمي في ظل الدولة الفاطمية زهاء أربعين عاما تقام فيه الجمع الرسمية ، ويخطب الخليفة فيه بنفسه في جمع رمضان وفي الأعياد ، حتى تم إنشاء الجامع الحاكمي أو الجامع الأنور في عصر الحاكم بأمر الله ، وكان الخليفة العزيز بالله قد بدأ بإنشائه منذ سنة ٣٨٠ هـ ، وشهدته الجمعة في رمضان وخطب فيه غير مرة ، ولكنه توفي قبل إتمامه ، فعني ولده الحاكم بأمر الله بإتمامه منذ سنة ٣٩٣ هـ ، واستغرق بناؤه عشر سنين . ولما تم بناؤه عني الحاكم بفرشه وتأنيته عناية

(١) ص ٩٥ الأزهر لعنان .

(٢) المقرئ عن ابن زولاق في تعاظم الخلفاء ص ٩٢ .

كبيرة ، وزين بالستور الفخمة والتنانير الفضية ، وأقيمت فيه الجمعة الرسمية في رمضان سنة ٤٠٣ هـ وصلى فيه الحاكم بالناس وكان يوماً مشهوداً (١) ، وألنى الجامع الأزهر لأول مرة في جامع الحاكم منافساً ينافسه الصفة الرسمية التي استأثر بها حتى ذلك الحين . وكانت الجمعة الرسمية تقام أيضاً من وقت إلى آخر في بعض المساجد الفاطمية الأخرى ، مثل جامعي راشد والمقس اللذين أنشأهما الحاكم بأمر الله ، وكانت الخطب الخلافية تلقى في الأزهر والجامع الحساكي ، وكذلك في جامعي عمرو وابن طولون اللذين لبثا يحتفظان دائماً بهيئتهما القديمة (٢) ، بيد أن الجامع الأزهر لم يفقد من جراء هذه المنافسة مكانته الخاصة ، بل كان دائماً يعتبر في نظر الخلفاء الفاطميين ورجال الدولة مسجد الدولة الأول .

وكانت إقامة الجمعة والصلوات الموسمية الجامعة بالأزهر من أخص المظاهر المذهبية الرسمية التي أسبغتها عليه الخلافة الفاطمية ، وقد رأينا فيما تقدم أن الجامع الأزهر أنشئ ليكون رمزاً لإمامة الدولة الجديدة ومنبرا لدعوتها ، وقد لبث الأزهر منذ إنشائه محتفظاً بهذه الصفة بالرغم من قيام عدة أخرى من المساجد الفاطمية الجامعة التي نافسته فيما بعد في إقامة الجمعة والصلوات الموسمية ، وكان الخليفة يشهد الصلاة أيام الجمع والأعياد الموسمية ، ويخطب فيها بنفسه في أحيان كثيرة ، وكانت خطبة الجمعة الرسمية ماتزال على عهدنا تلقى بالجامع الأزهر حتى أواخر الدولة الفاطمية (٣) . وكان الخليفة يلقي خطب الجمعة في شهر رمضان بالجامع الأزهر قبل إنشاء الجامع الحساكي وغيره من المساجد الفاطمية الجامعة ، وكان يستريح الجمعة الأولى ويلقي الخطبة في الجمع الثلاث الأخيرة . وكان يركب إلى الصلاة في هيئة مخصوصة وبؤديها وفقاً لرسوم وتقاليد معينة ، وقد انتهت إلينا من أقوال المؤرخين المعاصرين نبذة شائقة في وصف هذه المواقب والرسوم المذهبية الفخمة ، فنلا يقول لنا المسبحي في حوادث سنة ٣٨٠ هـ ما يأتي :

« وفي يوم الجمعة غرة رمضان سنة ثمانين وثلثمائة ركب العزيز بالله إلى جامع القاهرة بالمظلة الذهبية ، وبين يديه نحو خمسة آلاف ماش وبيده القضيبي ، وعليه الطيلسان

(١) المقرئ في الخطط ج ٤ ص ٥٦ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣ .

(٣) راجع النجوم الزاهرة ٥ ص ١٧٦ حيث يذكر أن خطبة الجمعة كانت

تلقى بالأزهر حتى عهد الأمر بأحكام الله (٤٩٦ - ٥٢٥ هـ) .

والسيف ، فخطب وصلى صلاة الجمعة وانصرف ، فأخذ رقاع المنظرين بيده وقرأ منها عدة في الطريق ، وكان يوماً عظيماً ذكرته الشعراء ، (١)

وكان الجامع الأزهر يستأثر منذ عهد المماليك لدين الله حتى قيام الجامع الحاكى بالخطب الرسمية الثلاث في جمع رمضان ، ثم كانت تلقى هذه الخطب بعد ذلك على الترتيب الآتي : الأول بالجامع الحاكى (أو الجامع الأنور) ، والثانية بالجامع الأزهر ، والثالثة بالجامع العتيق أو جامع عمرو ، وقد نقل المؤرخون المتأخرون عن ابن الطوير وغيره من المؤرخين المعاصرين هيئة صلاة الجمعة في هذه الأيام المشهودة .

وبيان ذلك - كما يقول عنان - أن يركب الخليفة في موكبه الفخم إلى الجامع ويخرج من باب الذهب والمظلة بمشدة الجوهر على رأسه ، وقد ارتدى ثياب الحرير الأبيض الساذجة توقيراً للصلاة ، ويدخل من باب الخطابة ، وبين يديه القراء يرتلون منذ خروجه من القصر ، ومن حوله الجند والركاية . وإذا كانت الصلاة بالجامع الأزهر فإنه يخرج في موكبه إلى الجامع من باب الديلم الذي غدا باب المشهد الحسيني فيما بعد ، ويعبره الخوخ ، (الدروب) السبع إلى رحبة الجامع الأزهر ، وكانت هذه الرحبة ساحة شاسعة تقع في الجهة البحرية من الجامع ، وكان يحشد فيها الجند كلما قصد الخليفة إلى الأزهر ، ثم يدخل الخليفة الجامع من باب البحرى ، ويجوز إلى الدهليز الأول الصغير ، ومنه إلى القاعة المعلقة التي كانت يرسم جلوسه فيجلس في مجلسه ، وترعى المقرمة الحرير وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واسفسلار الجند ، ومن الداخل حتى الباب بصبيان الخاص وغيرهم . ويقرأ المقرئون وتفتح أبواب الجامع حينئذ للناس بعد غلقها ، ووضع الحجاب عليها قبل مقدم الخليفة ، وتتخذ الأئمة منذ الصباح لاستقباله ، فيأتى صاحب بيت المال وبين يديه الفرش المختص بالخليفة محمولا بأيدي الفراشين المميزين ، ملفوفاً في العراضى الديبكية ، فيفرش في المحراب ثلاث طراحت فاخرات واحدة فوق أخرى ، ويعلق ستران يمين ويسرة يكتب في أولها بالحرير الأحمر سورة الفاتحة وسورة الجمعة ، ويكتب في الستر الثانى سورة المنافقين كتابة واضحة ، فإذا استحق الأذان أذن مؤذنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة ، وعندئذ يصعد قاضى القضاة إلى المنبر وفى يده مدخنة لطيفة من

الخيزران يقدمها صاحب بيت المال وفيها ند خاص بالخليفة ، ويخير بها أعلى المنبر وهو يقبل درجاته . ثم يدخل مقصورة الخليفة مسلماً بقوله : « السلام على أمير المؤمنين الشريف — القاضي — الخطيب ورحمة الله وبركاته والصلاة يرحمك الله » . فيخرج الخليفة وحوله الاساتذة المحنكون والوزراء والامراء والحرس المسلح ، ويصعد إلى أعلى المنبر تحت القبة المبخرة ، ويقف الوزير بباب المنبر ووجهه إليه ، فإذا جلس أشار إلى الوزير بالصعود فيصعد إليه ويقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزر تلك القبة حتى يصير كالهودج ، ثم ينزل مستقبلاً للخليفة . ويقف ضابطاً للمنبر ، وينهض الخليفة فيلقى خطبة قصيرة من مسطور يعده له ديوان الانشاء يتلو فيها آية من القرآن الكريم ، ثم يصلي على أبيه على بن أبي طالب وجده النبي عليه الصلاة والسلام ، ويعظ الناس وعظاً بليغاً موجزاً ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه ويتوسل بدعوات فخمه تليق به ، ثم يدعو للوزير وللجيوش بالنصر والظفر على الكافرين والمخالفين ، ثم يختم بقوله : « أذكروا الله يذكركم » ، فيصعد إليه الوزير ، ويفك أزرة القبة ويعود القهقري ، فينزل الخليفة ويقف للصلاة فوق الطراحت المذكورة في المحراب وحده إماماً ، وخلفه الوزير والقاضي ومن ورائهما الاساتذة والامراء وأصحاب الرتب والمؤذنون بترتيب مخصوص ، فإذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضي ، وأسمع القاضي المؤذنين فأسمعوا الناس ، ويقرأ الخليفة في الركعة الاولى ماهو مكتوب على الستر اليمين ، وفي الركعة الثانية ماهو مكتوب على الستر الايسر ، فإذا انتهت الصلاة خرج الناس وركبوا تبعاً ، ثم يعود الخليفة بموكبه إلى القصر والبوقات تضرب ذهاباً وإياباً ، ويتكرر هذا الترتيب والنظام في الجمعيتين الآخرين (١)

وقد لبث الازهر في العهد الفاطمي فضلاً عن صبغته الجامعية وعن إقامة الجمع والصلوات الرسمية فيه مركزاً لكثير من المظاهر والمناسبات الرسمية الأخرى . فمن ذلك أنه كان مركز المحتسب ، وكان منصب المحتسب من أهم المناصب الدينية في الدولة الفاطمية ، وهو الثالث عندهم بعد قاضي القضاة وداعى الدعاة ، وعمله يتناول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة ، وله نواب في جميع

(١) راجع الخطط ج ٤ ص ٦١ و ٦٢ - وراجع أيضاً صبح الاعشى ج ٣

ص ٥٠٩ - ٥١١ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

أنحاء القطر ، ويجلس بالجامع الأزهر وجامع مصر (جامع عمرو) يوماً بعد يوم (١) ، وكانت مجالس القضاء تعقد قبل قيام الجامع الأزهر بجامع عمرو والجامع الطولوني ومن ذلك أنه كان مركز الاحتفال الرسمي بالمولد النبوي الكريم ، ففي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول يركب القاضي بعد العصر ومعه الشهود إلى الجامع الأزهر ، ومعهم أرباب تفرقة صواني الحلوى التي أعدت بالقصر لتفرق في أرباب الرسوم : كقاضى القضاة وداعى الدعاة وقراء الحضرة والخطباء وغيرهم ، فيجلسون في الجامع مقدار قراءة الختمه الكريمة ، ثم يعودون في موكبهم إلى القصر ، وينتظرون تحت المنظرة التي يجلس فيها الخليفة ، ثم تفتح إحدى طاقات المنظرة ويبدو منها وجه الخليفة ، ثم يخرج أحد الاستاذين المحنكيين يده ويشير بكمه بأن الخليفة يرد عليكم السلام ، ويقرأ القراء ويخطب الخطباء بترتيب معلوم ، فإذا انتهى الحفل أخرج الاستاذ يده مشيراً برد السلام كما تقدم ، ثم تغلق الطاقتان وينصرف الناس (٢) .

وكان الاحتفال المحزن بيوم عاشوراء ، أو ماتم عاشوراء ، يقام بالجامع الأزهر قبل إنشاء المشهد الحسيني في سنة ٥٤٩ هـ ، وكان هذا الحفل من أجل المظاهر المذهبية التي رتبها الدولة الفاطمية لأحياء ذكرى الحسين . ففي العاشر من المحرم يحتجب الخليفة عن الناس ، وفي الضحى يركب قاضى القضاة والشهود ، وقد ارتدوا ثياب الحداد ، إلى الجامع الأزهر (أو المشهد الحسيني فيما بعد) في حفل من الأمراء والأعيان وقراء الحضرة والعلماء ، ثم يأتى الوزير فيتبعوا صدر المجلس ، ويجلس إلى جانبه قاضى القضاة وداعى الدعاة ، والقراء يتلون القرآن ، ثم ينشد قوم من الشعراء أشعاراً في رثاء الحسن والحسين وآل البيت ، ويضج الحضور بالبكاء والعويل ، ثم ينصرف الوزير إلى داره ويستدعى القوم إلى القصر وقد فرشت أروقته بالحصر بدل البسط ، فيجدون صاحب الباب فى انتظارهم فيجلس القاضي والداعى إلى جانبه والناس على اختلاف مراتبهم ، ويقرأ القراء وينشد المنشدون على النحو السابق . ثم يمد فى القاعة سباط الحزن عند الظهر ، وليس فيه سوى العدس والالبان والاجبان الساذجة والاعسال النحل والخبز الاسمر ، ويدخل من شاء لتناول الطعام ، فإذا انتهى القوم انصرفوا إلى دورهم . ويعم الحزن والنواح القاهرة فى ذلك اليوم ، وتعطل الأسواق

(١) صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٨٧ .

(٢) صبح الاعشى ج ٣ ص ٥٠٣ .

ويعتكف الناس حتى العصر ، ثم تفتح الاسواق وتسترد العاصمة شبتاً من نشاطها ومظهرها العادى (١) .

وفى ليالى الوقود الاربع ، وهى ليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه ، كان الخليفة يقصد مساء إلى منظرية الجامع الازهر ، وكانت بجواره من الجهة القبلىة وتشرف عليه ويجلس الخليفة فى هذه المنظرية ومعه حرمه ، وذلك لمشاهدة الزينات المضيئة والاحتفالات الفخمة التى كانت تقام فى تلك الليالى الشهيرة (٢) . وإليك وصف المسبحى لبعض هذه الليالى . قال فى حوادث شهر رجب سنة ٣٨٠ هـ وفيه خرج الناس فى لياليه على رسمهم فى ليالى الجمع وليلة النصف إلى جامع القاهرة (يعنى الجامع الازهر) عوضاً عن القرافة ، وزيد فيه فى الوقيد على حافات الجامع ، وحول صحنه التناير والقناديل والشمع على الرسم فى كل سنة ، والاطعمة والحلوى والبخور فى مجامر الذهب والفضة وطيف بها ، وحضر القاضى محمد بن النعمان ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد ، وقدمت إليه سلال الحلوى والطعام وجلس بين يديه القراء وغيرهم والمنشدون والناحية وأقام إلى نصف الليل ، وانصرف إلى داره بعد أن قدم إلى من معه أطعمة من عنده وبخرهم ، وقال فى حوادث شعبان من نفس السنة د وفى ليلة النصف من شعبان كان للناس جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء والقراء والمنشدين وحضر القاضى محمد بن النعمان فى جميع شهوده ووجوه البلد ووقد التناير والمصابيح على سطح الجامع ودور صحنه . ووضع الشمع على المقصورة وفى مجالس العلماء ، وحمل إليهم العزيز بالله الاطعمة والحلوى ، والبخور فكان جمعاً عظيماً ، (٣)

وهكذا كانت ليالى الوقود من المناسبات العامة التى يتبوأ فيها الجامع الازهر مكانه خاصة ، فيخرج الناس اليه من كل فج ، ويبدو فيها المسجد الشهير كأنه شعلة من النور وتضاء فى جوانبه وعلى حافته المشاعل والوقدات الساطعة ، ويعقد فى صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة ، ويبعث الخليفة إليهم بسلال من الاطعمة والحلوى الفاخرة ، وتضاء جميع المساجد الاخرى وتبدو العاصمة الفاطمية كلها فى حلال بديعة من الانوار الساطعة .

(١) راجع خطط المقرئى ح ٢ ص ٢٨٩ - ٢٩١ ، والنجوم الزاهرة ج ٥

ص ١٥٣ - ١٥٤ . (٢) الخطط ج ٢ ص ١٨١ و ٣٤٥ .

(٣) المقرئى عن المسبحى - الخطط ج ٢ ص ٣٤٥ .

هذا وقد وصف مؤرخو الدولة الفاطمية أيضاً الموكب الرسمي الذي كان ينظم في ليالي الوقود ، عقب الغروب ، ويتقدمه القاضي ، ومن حوله القراء والمؤذنون ويسيرون على ضوء المشاعل والشموع الساطعة إلى القصر ، ثم ينتظمون في ميدان بين القصرين تجاه باب الزمرد ، أحد أبواب القصر الغربية ، وينتظرون هنالك حتى يطل عليهم الخليفة ويحييهم من إحدى طاقات المنطرة الخلافية (١) .

كذلك كان الجامع الأزهر أيام المعز والعزیز والحاكم ، مركزاً لمجالس الحكمة الفاطمية . وكانت هذه المجالس الشهيرة التي رتبها الخلافة الفاطمية لبث دعوتها وتوطيد إمامتها تتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم آل البيت والتفقه فيها ؛ وكان يقوم بإلقاء هذه الدروس أيام المعز بنوالنعمان ، وهم أسرة مغربية ناهية قدمت في ركاب الخليفة الفاطمي ، وتولت قضاء مصر زهاء نصف قرن ؛ وكانت مجالس الحكمة تعقد أحياناً في القصر وأحياناً في الجامع الأزهر ، ويشترك في القائما بعض كبار الدولة مثل الوزير ابن كلس وزير المعز ثم ولده العزيز ، ثم عهد بعد ذلك إلى داعي الدعاة بالإشراف على تنظيم هذه الدعوة وبثها ، ووضعت لها نظم ورسوم خاصة ، وأحيطت بمجالس الحكمة يومئذ بشيء من التحفظ واستحالت إلى نوع من الدعوة السرية تلقى في الخاصة قبل كل شيء ، وتعقد مجالسها في القصر ، وكان للكافة أيضاً نصيب من تلك المجالس ، فيعقد للرجال مجالس بالقصر ، ويعقد للنساء مجالس بالجامع الأزهر . وكان الداعي يشرف على هذه المجالس جميعاً بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه ، وكانت الدعوة تنظم طبقاً لمستوى الطبقات والأذهان ، فلا يتلقى الكافة سوى مبادئها وأصولها العامة ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا (٢) .

ولا تعرف أية مناسبة أخرى غير مجالس الحكمة الفاطمية يمثل فيها النساء في الجامع الأزهر في ذلك العصر لشهود نوع من القراءة والدرس ، بيد أنه يوجد ما يدل على أن النساء كن يظهرن أحياناً في بعض العصور المتأخرة في حلقات الأزهر الدراسية ، وقد كان من هؤلاء أم زينب فاطمة بنت عباس المعروفة بالبغدادية ،

(١) راجع خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٤٦ ، وصبح الأعشى ج ٣

ص ٥٠١ و ٥٠٢ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ . وراجع

كتاب الحاكم بأمر الله لعنان ص ١٦١ - ١٦٣ .

التي توفيت سنة ٧١٤ هـ ، وكانت فقيهة وافرة العلم وانتفع بعلمها كثير من نساء مصر ودمشق (١) وذكر الجبرتي أيضا ما يفيد أنه كان ثمة سيدة فقيهة عمياء تحضر دروس الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر في أوائل القرن الثالث عشر الهجري (٢)

الأزهر وتجديد مبانيه :

وقد تعهد الخلفاء الفاطميون الجامع الأزهر بالتجديد والعمارة في فرص عدة ، ففي سنة ٣٧٨ هـ جدد فيه العزيز بالله أشياء ، ثم جدد له ولده الحاكم بأمر الله وزوده بمجموعة من التناوير الفضية « ورتب له في سنة ٤٠٠ هـ مع بعض المنشآت الفاطمية الأخرى أوقافا ينفق من ريعها على إدارته وشمونه ، فكانت أول وقفية رتبت للجامع الأزهر . وقام الخليفة المستنصر بالله أيضا بتجديد الأزهر ، وجدده من بعده الحافظ لدين الله ، وأنشأ فيه مما يلي الباب الغربي مقصورة عرفت بمقصورة فاطمة الزهراء ... وفي عهد الملك الظاهر بيبرس ، قام الأمير عز الدين أيمن الحلبي ، نائب السلطة بعمارة وتجديده وتجديدا شاملا ، وكان الخراب قد تطرق إليه ، فأنفق على عمارة وإصلاحه وتجميله أموالا عظيمة ، وسعى في إعادة خطبة الجمعة إليه كما سنذكر ، وفي سنة ٧٠٢ هـ في عهد السلطان الملك الناصر وقعت بمصر زلزلة عظيمة ، وسقطت منشآت عدة منها الجامع الأزهر ، فقام أمراء الدولة على عمارة هذه المنشآت ، وتولى عمارة الجامع الأزهر الأمير سلاو ، وأنشأ الأمير علاء الدين طبرس نقيب الجيوش مدرسته التي عرفت باسمه « الطبرسية » بجوار الجامع الأزهر من الجهة الغربية البحرية لتكون ملاحقا له ، وكمل بناءها في سنة ٧٠٩ هـ وقرر بها درسا للشافعية ، وبعد ذلك بقليل أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد ، استادار الملك الناصر مدرسته المقابلة لها في الزاوية البحرية الغربية للجامع الأزهر ، مكان دار الأمير عز الدين أيمن الحلبي وقد تم بناؤها عام ٧٤٠ هـ ، وأنشأ بهادروسا للشافعية والحنفية وملجأ للصوفية . وقد حجت المدرستان الطبرسية والأقبغاوية واجهة الجامع الأزهر الغربية وما زالتا قائمتين في مكانهما إلى اليوم . وفي سنة ٧٢٥ هـ قام بتجديد الجامع الأزهر

(١) راجع خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٩٤ ، وحسن المحاضرة للسيوطي ج ١

(٢) راجع ذلك في ترجمة الشيخ عبدالله الشرقاوي في حوادث سنة ١٢٢٨ هـ (ج

وعمارته القاضي نجم الدين محتسب القاهرة ، ثم جددت عمارته سنة إحدى وستين وسبعمائة في عهد السلطان الملك الناصر حسن على يد الأمير سعد الدين بشير الجامدار ، وكان يسكن على مقربة من الأزهر ، فاستأذن السلطان في إصلاحه وقام فيه بعمارة شاملة ، وأنشأ فيه دروسا جديدة للفقه الحنفي ، ورتب لطلابه أطعمة توزع عليهم كل يوم ، وأوقف على ذلك أوقافا جليلة . وفي سنة ٨٨١ هـ في عهد الملك الأشرف قايتباي أمر السلطان بإزالة الخلوأ التي كانت بسطح الأزهر وفقا لفتوى صدرت بذلك ، ورسم بتجديد الجامع وعمارة ماتشعث منه ، وأمر بإنشاء المنارة الواقعة في الجهة البحرية الغربية إلى يمين المدرسة الاقبعاوية والباب الذي تعلوه ، حسبما نقش على أحجار هذا الباب ، وتمتاز هذه المنارة برشاقها وزخارفها الجميلة . وفي أواخر عهد الأشرف أيضا ، قام الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومي بعمارة الجامع الأزهر وتجديده ، وأنفق عليه من أمواله جملة كبيرة ، وانتهت هذه العمارة في سنة ٩٠٠ هـ . وأنشأ السلطان الغوري بالأزهر منارته الجميلة ذات الرأسين التي مازالت قائمة إلى الآن في الجهة الغربية إلى جانب منارة الأشرف قايتباي .

وفي أثناء العهد التركي قام عدة من الولاة والأكابر بتجديد الأزهر ، فجدده في سنة ١٠٠٤ هـ الشريف محمد باشا والي مصر ورتب به أطعمة للفقراء . وعمر به الوزير حسن باشا والي مقام الحنفية في سنة ١٠١٤ هـ ، ثم جدده الأمير إسماعيل بك ابن الأمير إيواظ بك القاسمي في أوائل القرن الثاني عشر . على أن أعظم عمارة أجريت بالجامع الأزهر في ذلك العهد هي التي قام بها الأمير عبد الرحمن كتحدا القازدغلي في أواخر القرن الثاني عشر ، فقد أنشأ هذا الأمير الكبير في الناحية الشرقية القبليية من الجامع بهوا كبيرا يشتمل على خمسين عمودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة ، وأنشأ للجامع محرابا ومنبراً جديدين ، وبني في أعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن ، وأنشأ أيضا بداخله رجة متسعة وصهريجاً عظيماً ، وأنشأه داخل هذه الرجة مدفناً عليه قبة معقودة ، كما أنشأ بتلك الجهة رواقاً خاصاً بطلاب الصعيد ، وجدد المدرسة الطيرسية وجعلها هي والمدرسة الاقبعاوية داخل الجامع ، وأنشأ فيما بينهما باباً عظيماً بالهيئة التي نراها اليوم ، وأنشأ للجامع منارتين جديدتين ، وتقع إحداها في الجهة الشرقية القبليية والأخرى في الجهة الشرقية ، وعلى الجملة فقد كانت هذه العمارة أعظم ما شهد الجامع الأزهر منذ قرون ، ورتب هذا الأمير الكبير للجامع وطلابه مرتبات وأطعمة كثيرة ، وما زال الجامع الأزهر بوجه عام على حاله التي جدده بها

عبد الرحمن كتحدا ، ما عدا تغييرات وإضافات قليلة أجريت في العهد الأخير (١) .

وهكذا لبث الأزهر خلال حياته الطويلة الحافلة موضع العناية والرعاية من الخلفاء والسلاطين والأمراء ، يتعهدونه بالتجديد والإصلاح والنفقة المستمرة ، ولم يحظ جامع آخر من جوامع مصر التاريخية بمثل ما حظى به الأزهر من رعاية ، وقد يرجع أكبر الفضل في ذلك إلى ما يتمتع به الأزهر من الصفات العلمية إلى جانب صفته الدينية ، وما زال الجامع الأزهر بفضل هذه الرعاية المستمرة يحتفظ بفخامته ورونقه وجدته بالرغم من عمره الألفي .

ومما يذكر بالاعتباط أن الأمراء الذين كانوا يبذلون الغالي والرخيص في تشييد هذا الجامع وتكبيره كانوا لا يبالغون بذلك سوى وجه الله تعالى وخدمة العلم ، لاحب الظهور والرياء ، فقد ذكر المؤرخون أن الأمير طبرس مشيد المدرسة الطبرسية التي هي الآن من ملحقات الأزهر ، لما فرغ من بناء مدرسته وأحضروا إليه حساب نفقاتها ، استدعى بطست مملوء بالماء وغسل أوراق الحساب بأثرها من غير أن يقف على شيء منها ، وقال : شيء خرجنا عنه لله لا نحاسب عليه !

وما زال الجامع الأزهر يحتل الموقع الذي أقيم فيه منذ ألف عام . وما زالت فيه بقية من أبنية الفاطميين الأولى تحتل مكانها الأول داخل الصرح القائم ، وهي تكاد تبلغ نصف المسجد الحالي ، وقد وفقت إدارة الآثار العربية أخيراً إلى الكشف عن رأس المحراب الفاطمي القديم ، وقد كان مغطى بغطاء خشبي يرجع إلى عصر الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، فظهر بائتزاعه زخارف ونقوش فاطمية يرجع أنها ترجع إلى عهد إنشاء المسجد الأول ، أي في عهد جوهر والمعز .

ومقصورة الجامع الأزهر تنقسم إلى قسمين : المقصورة الأصلية الكبيرة التي هي من إنشاء القائد جوهر وبها ٧٦ عموداً من الرخام الأبيض الجيد على صفوف متسامية ، والمقصورة الجديدة التي أحدثها الأمير عبد الرحمن كتحدا سنة ١١٦٧ هـ وبها خمسون عموداً من الرخام : فجموع أعمدة المقصورتين ١٢٦ عموداً ، وإذا أضيف إلى هذا العدد ما بملحقات الجامع من الأعمدة بلغ عددها كلها ٣٧٥ عموداً ،

(١) راجع ترجمة الأمير عبد الرحمن كتحدا وتفاصيل منشأته الكثيرة بالأزهر وغيره من المساجد والمدارس في عجائب الآثار للجبرتي ج ٢ ص ٥ وما بعدها

وأرض المقصورة الجديدة مرتفعة عن أرض المقصورة القديمة بنحو نصف ذراع بحيث يصعد من القديمة إلى الحديثة بدرجتين .

وقد أنشأ جوهر القنبقائي مدرسة رواق الجوهريّة في أوائل القرن التاسع الهجرى ، ودفن بها سنة ٧٤٤ هـ .

وأنشئ في عهد عباس الثانى الرواق العباسى ، واحتفل بافتتاحه في ٢٤ شوال سنة ١٣١٥ هـ . وهو غاية في الدقة والفن .

وأعظم زيادة دخلت فيه هي كما ذكرنا بناية الأمير عبد الرحمن كـتـخدا حسن جاويش القازدغلى سنة ١١٦٧ هجرية ، فزادت في سعة هذا الجامع بمقدار النصف تقريباً . وهو عمل تاريخى جليل .

وبالأزهر الآن خمس منارات يؤذن عليها في الاوقات الخمس وفي الاشمس ، وتضاء بالكهرباء في ليالى رمضان والمواسم ، منها ثلاث منارات من داخل باب المزينين مشرفة على صحن الجامع ، إحداها منارة الاقبغاوية عن يسار الداخل إلى الأزهر أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد مع مدرسة الاقبغاوية واثنان عن يمين الداخل ، فالتى بجانب الباب مما يلي الداخل أنشأها السلطان الأشرف قايتباى ، والتى تليها من إنشاء السلطان الغورى وهى أعلى مناراته وأعظمها ، والرابعة بباب الصعايدة ، والخامسة بباب الشربة ، وهما من إنشاء الأمير عبد الرحمن كـتـخدا

ولقد كان الأزهر الشريف في أول نشأته موضع عناية الخلفاء الفاطميين في مصر ، ومن بعدهم من الملوك والأمراء والوزراء ، وذوى الجاه منها ، يتنافسون في خدمة هذا الجامع ، ويتعهدون أهله ، وبشرفون على حلقات الدروس فيه ، وينشئون الأروقة لسكنى الطلبة ، ويشيدون دور الكتب فى علوم الدين والحكمة والفلسفة ، مما كان له الأثر فى حفز همم الشيوخ والطلبة إلى التفرغ للتعلم والتعليم . وقد استمر الأزهر يتسع نطاقه حتى بلغت مساحته الآن سوى ملحقاته ١١٣٨٠ متراً مربعاً .

ويقول الأستاذ محمد عبد الله دراز من كلمة نشرها فى مجلة الأزهر عام ١٩٥٢ :
البيت المعمور الذى أرسيت قواعده فى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله على يدى قائده جوهر الصقلى فى سنة ٣٥٩ هـ - ٩٧٠ م - كان يتألف فى أول إنشائه من قسمين : « فناء » فسيح يحيط به نطاق من الأعمدة المعقودة ، و « مقصورة » أو

« مصلى ، لا تقل عنه اتساعا ، يشقها « مجاز ، تمتد من بابها إلى المحراب . ولا تزال معالم القسمين قائمة إلى يومنا هذا لم ينلها تغيير جوهري .

نعم إن بعض أجزاء المقصورة قد تناولها شيء من الترميم استجابة لضرورة حفظها وصيانتها . ولكن سائر أجزائها لا تزال كما وضعت أول يوم ، ولا سيما « المحراب ، الذى تراه الآن بنقوشه ورسومه العتيقة ، و « المجاز ، الذى نشاهد أعمدته بنقوشها ورسومها الأولى . وكذلك نرى الأعمدة المضروبة حول الفناء قائمة على حالها لم تتسنه ، وإنما أضيف إليها فى مبدأ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) نطاق آخر من الأعمدة من أمامها .

ولقد بقى الأزهر قرونا عدة مكتفياً بحدوده الأولى هذه ، حتى كانت بداية القرن الثامن الهجرى ، فهناك أخذت تضاف إليه فى عصور مختلفة زيادات كثيرة أصبحت فى مجموعها أشبه بصوان يحيط به من كل جانب ، حتى صار « فناءه ، الخارجى « صحن ، داخليا ، وحتى بلغت مساحة المسجد الآن ١١٣٨٠ مترا مربعا ، لا يدخل فيها حساب الملحقات .

أولى هذه الإضافات تستقبلنا بمجرد ما نضع أقدامنا فى المسجد عند دخولنا من الباب الكبير الشمالى الغربى المطل على الميدان . ذلك أننا نجد أنفسنا فى دهليز متوسط الاتساع ، فاصل بين جناحين من الابنية عن يمين وشمال ، ونجد أمامنا باباً كبيراً آخر داخليا يفتح على صحن المسجد . فهذا الباب الداخلى الذى يفتح على الصحن هو أول حدود المسجد التاريخى . أما كل هذه الابنية عن اليمين والشمال فيما بين البابين ، وكذلك الأرض التى أقيمت عليها هذه الابنية ، فإنها من الزيادات التى ضمت إلى الجامع فى القرن الثامن الهجرى وما بعده .

فالجناح الايمن (ماعدنا منارتيه) أنشاه الامير طبرس فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) والجناح الايسر بمنارته أقامه الاثير أقبغا فى سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) . والباب الداخلى والمنارة الرشيقة التى فوقه إلى يمين الداخل من عمل السلطان قايتباى فى سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) والمنارة العظيمة ذات البرجين التوأمين وهى التى تلى هذه على اليمين أيضا من صنع السلطان الغورى فى سنة ٩١٥ هـ (١٥١٠ م) .

ولقد كان الجناحان فى نظر مؤسسيهما مدرستين ، ولكن الثقيف العقلى فى رأيهما وكذلك هو دائما فى نظر كل سياسة رشيدة - لم يكن لينفصل عن التهذيب الروحى

ولذلك أقام كل منهما في مدرسته محراباً (١) أنيقاً دقيقاً من الرخام والذهب لا يزال يتحدى الزمان بنضارته وجدته ، كأنما صنع أمس .

والجناحان (٢) اليوم مشغول معظمهما بالمكتبة الأزهرية التي تعد من أنفس المكتبات في العالم ، بما فيها من المخطوطات النادرة ، والمجلدات التي تبلغ زهاء مائة ألف مجلد . . فلنغادر الآن هذه الزيادات ، ولنعتبر الصحن ، في خط مستقيم ، ولندخل المقصورة نجتازها إلى المحراب . . . هنالك سنشعر بشيء من الدهشة ، إذ نجد المحراب غير مستند إلى جدار القبلة كما هو شأن المحاريب ، بل نراه منعزلاً تمام العزلة في وسط المصلى ؛ ونلاحظ فوق ذلك أن الأرض التي تمتد من خاف هذا المحراب ، والتي تكاد تعادل مساحة الأرض التي أمامه ، مرتفعة عن هذه بحيث يصعد إليها بدرجتين ؛ ونرى أخيراً أن هناك محراباً ثانياً مستنداً كالعادة إلى الجدار الجنوبي الشرقي ، الذي هو جدار القبلة .

غير أن هذه الدهشة ستزایلنا متى عرفنا أن هذا الإيوان المرتفع قليلاً ، والمحراب الذي عليه ، المتصل بالجدار ، وكذلك البابان اللذان في هذا الجدار ، والمنارتان المقامتان فوقهما ، كل هذه زيادات جديدة في المقصورة أضيفت إليها أخيراً على يد الأمير (٣) عبدالرحمن كتنخدا في سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) . ومن السهل حينئذ أن نعرف إلى أي حد بلغ ورع هذا الأمير وتقواه في المحافظة على تراث سلفه الصالح ، وعدم الجرأة على تغيير شيء من معالمه بغير ضرورة مادية . . وهذا هو ما يسمى في لغة العصر الحاضر : احترام الماضي وصيانة آثار القدماء .

وقبل أن نتأهب للانصراف من هذه المقصورة يجمل بنا أن نقرب من جدارها الشمالي الشرقي . . . فسنجد فيه باباً صغيراً نفوذ منه إلى مبنى جميل أقامه الأمير جوهر قانقباي المتوفى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) . لقد بناه هذا الأمير ليكون مدرسة صغيرة ، ولكنه جمع فيها كل عناصر المسجد الكبير مع جمال التنسيق ودقة الفن . وفيها قبة تقوم على قبر بانها .

(١) بل إن مدرسة أقبغا تحتوي محرابين اثنين .

(٢) الجناح الأيسر حول إلى مكتبة منذ سنة ١١١٤ هـ (١٨٩٦ م) . والجناح الايمن شغل جانب منه ببعض خزائن الكتب في عهد قريب .

(٣) إلى هذا الأمير يرجع الفضل أيضاً في بناء الباب الكثير الذي في المدخل على الميدان ، وفي تجديد واجهته اليمنى ، وهي جدار المدرسة الطليطسية .

وقد جدد في عهد الخديوي إسماعيل في سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) بناء أحد البابين اللذين في جدار القبلة ، كما أنه في عهد توفيق جدد في سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) بناء الإيوان الذي ينتهي بهذا الجدار ، وهاتان المنشأتان المجددتان كانتا من عمل الأمير كستخدا كما يعلم مما أسلفناه .

على أن أحدث الزيادات وأغناها هي المنشآت التي أقيمت منذ عام ١٩٣٢ وتم بعضها في ذلك الحين ، ولا يزال العمل جاريا في تكميل باقيها . وهي مجموعات قائمة خارج نطاق المسجد ، ولكنها تشرف عليه من الشمال والشمال الشرقي ، ومن الشرق والجنوب الشرقي ، وقد برز إلى الوجود في سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ م أربع عمارات كبيرة ، خصصت واحدة منها لإدارة الجامعة ، والثلاثة الباقية لسكنى الطلاب . وأما في عهدنا هذا فقد تم حتى اليوم :

- ١ — مدرج غخم على أحدث طراز يتسع لآلفي مستمع .
- ٢ — كلية للشريعة الإسلامية .

٣ — كلية للغة العربية ، والكلية الباقية وهي كلية أصول الدين في دور الإنشاء ، ومن الأعمال المتوقعة البدء فيها لإنشاء :

- ١ — مكتبة فسيحة تتسع لنصف مليون مجلد .
- ٢ — معهد ابتدائي وثانوي يحضر للكلية الأزهرية .
- ٣ — مستشفى .
- ٤ — حديقة .

ولما كانت أزمة المساكن لا تزال في حداثها ، فإنه ينظر الآن في مشروع لبناء عدة بيوت أخرى لسكنى الطلاب ، ولا سيما الوافدين منهم من الاقطار الخارجية الإسلامية ، بحيث يتألف منها ومن المساكن القائمة الآن مدينة جامعية حقيقية تتصل بحرم المسجد ومنشأته .

الفصل الخامس

الأزهر في عهد الدولة الأيوبية

التاريخ السياسي للدولة :

قامت الدولة الأيوبية في مصر من عام ٥٦٧ هـ على يد مؤسسها : السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقد دعم كيانه دولته ، ومحاربه من مصر المذهب الفاطمي ، وأحل محله المذهب السني ، وعنى بنشر العلم وتشجيع العلماء ، ووقف في

وجه الصليبيين وقفات خالدة في تاريخ الشرق الاسلامي . : وكان عادلا محببا من قلوب الناس ، وكانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز (١) ، ونشر العدل في الرعية وحكم بالقسط بين البرية وبنى المدارس والخوانق وأجرى الأرزاق على العلماء والصلحاء ، مع الدين والورع والزهد والعلم ، وهو الذي ابنتى قلعة القاهرة على جبل المقطم (٢) وأصبحت عاصمة البلاد في عهده ، ويذكر السيوطي أنه رحل بولديه الأفضل والعزیز لسماع الحديث من السلفي (٣) . وتوفي عام ٥٨٩ هـ عن سبعة وخمسين عاما .

مات السلطان خلفه على عرش مصر ابنه العزيز عماد الدين عثمان فسار سيرة حسنة ومات سنة ٥٩٥ هـ ودفن في قبعة الامام الشافعي ، فأقيم ولده المتصور مكانه ، ولكن عم أبيه الملك العادل نزع عام ٥٩٦ هـ وتولى مكانه .

والملك العادل أبو بكر بن أيوب هو أخو السلطان صلاح الدين ، وكان شديد الحب للعلماء ، وأبلى بلاء حسنا في مقاومة الغزو الصليبي للبلاد ومات عام ٦١٦ هـ . وخلفه ابنه الملك الكامل محمد ، (٦١٦ هـ - ٦٣٥ هـ) وقد حكم مصر حوالي أربعين عاما ، كان في العشرين عاما الأولى نائبا عن أبيه ، وكان في العشرين عاما الأخيرة يحكم بنفسه بعد موت أبيه ، وكان الكامل معظما للسنة النبوية وأهلها راغبا في نشرها والتمسك بها ، مؤثرا الاجتماع مع العلماء ، والكلام معهم حضر أو سفرا (٤) ، وقد أنشأ دار الحديث بالقاهرة ، وعمر القبة على ضريح الشافعي وكان معظما للسنة وأهلها (٥) ، وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر من رجب عام ٦٣٥ هـ ، وأقيم بعده ابنه الملك العادل أبو بكر ، ولكن المالك الصالح أيوب نزع الملك منه وتولى حكم مصر عام ٦٣٧ هـ .

كان الملك الصالح مهيبا جدا ، دبر المملكة على أحسن وجه ، وبنى المدارس الاربعة بين القصرين ، وعمر قلعة بالروضة ، وهو الذي أكثر من شراء الترك وعقبتهم

(١) ٢٦ ج ٢ حسن المحاضرة ط ١٣٢٧ هـ .

(٢) ٢٦ ج ٢ حسن المحاضرة ط ١٣٢٧ هـ .

(٣) ٢٦ ج ٢ حسن المحاضرة .

(٤) ٢٣٠ ج ٦ النجوم الزاهرة .

(٥) ٣٣ ج ٢ حسن المحاضرة .

وتأثيرهم ، ولم يكن ذلك قبله فقام الشيخ عز الدين بن عبد السلام القومة الكبرى في بيع أولئك الأمراء وصرف ثمنهم في مصالح المسلمين (١) ، ومات في ليلة النصف من شعبان عام ٦٤٧ هـ ، وهو مستعد لقتال الصليبيين في المنصورة ، فأخفت زوجته شجرة الدر موته ، حتى حضر ابنه الملك المعظم توران شاه فتولى الملك في ذى القعدة عام ٦٤٧ هـ ، وقا تل الأفرنج وكسرهم ، وكان في عسكر المسلمين الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأسر الملك لويس السادس ملك فرنسا ، وحبس في دار ابن لقمان بالمنصورة ثم نفرت قلوب الجيش من توران شاه فقتلوه في ١٧ محرم عام ٦٤٨ هـ ، وولوا شجرة الدر مكانه وكان يخطب لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة العباسي ، ولم يل مصر امرأة في الإسلام قبلها ، ولما وليت تسلم الشيخ عز الدين بن عبد السلام في بعض تصانيفه على ما إذا ابتلى المسلمون بولاية امرأة ، وأرسل الخليفة العباسي المستعصم يعاتب أهل مصر في ذلك ، وأقامت شجرة الدر في المملكة ثلاثة أشهر ثم عزلت نفسها ، واتفق القواد على أن يملكوا الملك الأشرف موسى بن صلاح الدين يوسف بن المسعود بن الملك الكامل فملكوه في جمادى الأولى عام ٦٤٨ هـ ، وجعلوا عز الدين أيبك التركاني مملوك الملك الصالح قیما عليه ، وعظم شأن المماليك الأتراك من يومئذ ، وفي عام ٦٥٢ هـ خلع عز الدين الملك الأشرف واستقل بالملك ، وهو أول من ملك مصر من المماليك الأتراك ، وتزوج شجرة الدر ، ثم خطب عليها ابنة صاحب الموصل ، فقتلته شجرة الدر عام ٦٥٥ هـ ، وخلفه ابنه المنصور ، حتى قضى على ملك الدولة الأيوبية الأمير يوسف الدين قطز الذي لقب نفسه بالملك المظفر وذلك عام ٦٥٧ هـ .

ومن الجدير بالذكر أن ملوك الدولة الأيوبية كانوا يتلقون مراسيم ولايتهم من خلفاء بغداد العباسيين ، مع استقلالهم السياسي والإداري على خلافة بغداد .

الأزهر في عهد الدولة الأيوبية :

بزوال الدولة الفاطمية من مصر وقيام الدولة الأيوبية مقامها ، انمحت معالم الفقه الاسماعيلي الشيعي ، فقد غالى الأيوبيون في القضاء على كل أثر للشيعية ، وأفتوا بإبطال إقامة الجمعة في الأزهر (٢) ولبثت إقامة الجمعة معطلة . فيه نحو مائة عام ، وذلك

(١) ٣٤ ج ٢ حسن المحاضرة :

(٢) أصدر قاضي القضاة الشافعي صدر الدين عبد الملك بن درباس فتوى بأنه لا يجوز إقامة الجمعة في بلد واحد في مكانين فأبطل إقامتها بالأزهر وأقرأها بالجامع الحاكي

من عام ٥٦٧ — ٦٦٥ هـ .

وفي عهد الدولة الأيوبية أنشئت عدة مدارس تنافس الأزهر في رسالته العلمية ، فبنى صلاح الدين مدرسة للشافعية بجوار مسجد عمرو ، ومدرسة أخرى للمالكية وعرفت باسم « دار الغزل » ، ثم عرفت بالمدرسة القمحجية ، ثم بنى مدرسة ثالثة للفقهاء الحنفية أطلق عليها اسم « المدرسة السيوفية » ، كما بنى مدرستين أخريين لفقهاء المذهب الشافعي خاصة ، وهو المذهب الذي كان عليه أكثر أفراد البيت الأيوبي نفسه ، وكانت مدرسة منها بجوار الامام الشافعي والأخرى بجوار المشهد الحسيني . . ويحصى المقرئى المدارس التى بنيت فى القاهرة وحدها بثمانى عشرة مدرسة (١) .

وقد بنيت فى القاهرة والفسطاط معا نحو خمسة وعشرين مدرسة : منها المدرسة الكاملية وتسمى دار الحديث ، وقد أنشأها الملك الكامل عام ٦٢١ هـ وكنيت عمارتها سنة ٦٢٢ هـ ، وتولى مشيختها أبو الخطاب عمر بن دحية ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن دحية (٢) ، ومن مشايخها أيضا القسطلانى الشافعي وابن دقيق العيد .

ومن هذه المدارس المدرسة الصالحية وقد بناها الملك للصالح عام ٦٣٩ هـ وهى أربع مدارس للمذاهب الأربعة ، وكانت من أجل مدارس القاهرة (٣) .
ومنها المدرسة الفاضلية بناها القاضى الفاضل عام ٥٨٠ هـ وكان فى مكتبتها مائة ألف كتاب مجلد (٤) .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تتخصص فى دراسة بعينها ، وكان الغرض من إنشاء هذه المدارس هو منافسة الأزهر وضرب الطلاب عنه ، وقد كان لقيام هذه المدارس وكثرتها خلال القرنين السابع والثامن ، أى حتى بعد عصر الأيوبيين ، أثر كبير فى سير الدراسة فى الأزهر ، إذ نافسته هذه المدارس منافسة شديدة وجذبت إليها أعلام الأساتذة ، وقضى الأزهر فى هذه المدة عصرا من الركود للطويل .

وقد كان الأيوبيون من الغلاة فى المذهب الشافعي ، وكانوا من أتباع الأشعرى ، وكان الحنابلة بمفردهم يكونون معسكرا مستقلا يناهض معسكر الأشاعرة ، وكان من نتائج تصادم الأفكار بين أصحاب المذاهب المتعددة أن اشتدت روح التعصب والمغالاة ، فكان كل فريق يدفع صاحبه بما يملك من أسلحة الهجوم ، فكان أهل السنة يطعنون

(١) ١٩٣ — ٢١٦ ج ٤ خطط المقرئى . (٢) ١٤٢ ج ٢ حسن المحاضرة .

(٣) ١٤٢ ج ٢ حسن المحاضرة : (٤) ٢٥٥ ج ٢ خطط المقرئى .

الشيعة بأنهم كفار زنادقة وفساق ملاحدة ، وقد أصدر بلاط بغداد في سنة ٤٠٢ هـ في عهد الخليفة القادر بالله فتوى رسمية موقعا عليها من كبار الفقهاء والقضاة بهذا المعنى ، طعنا في الفاطميين خلفاء مصر .

ومن ناحية أخرى لم يتوان الا شاعرة عن استعمال سلاح التكفير والتفسيق في شتى المناسبات ، حتى بلغ الامر فصل الحنابلة كفرقة تلو في قرن مع النصاري واليهود والباطنية . ومن طريف ما يروى أن منشئ المدرسة الرواحية في دمشق نص في حجة وقيته على هذه المدرسة نصا يمنع دخول اليهود والمسيحيين والحنابلة لهذه المدرسة . ومن هنا ورث الا زهر التعصب المذهبي الشديد إلى حد الإفتاء بالكفر وعدم صحة الاقتداء بالمخالف في المذهب ، فقد أفتى ابن حجر الهيتمي بأن ابن تيمية العالم الفقيه كافر لا تصح الصلاة وراءه ، وأمر القاضي عياض بإحراق كتب الغزالي لما يوجد بها من أشياء لا ترتضيها عقائد أهل السنة . ونقل السكال بن الهمام عن أحد علماء الحنفية أنه لا تجوز المناكحة بين أهل السنة والاعتزال .

وظل هذا التعصب يشتد ويشغل أمره العلماء ، فاتهم كل مجتهد يخرج على التقاليد العلية في عصره بالزندقة والضلال . والضلال يومذاك كانت كلمة ترادف التفكير الحر الذي لا يرضى بالتقليد ، ولا يرضى أن يكون في آرائه من العيب . وكان الضلال عنوان نضوج العقل ، أو كما يقول الغزالي : وأستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، وأستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف .

ولما كثرت المدارس في عهد الأيوبيين وأرادوا جذب أساتذة الأزهر إليها ، أغدقوا لهم في العطاء ، وأجزلوا في المرتبات ، وبعد أن كان العلماء يعتمدون في العصور الأولى على أنفسهم في سد حاجات عيشهم عن طريق السعي وراء الرزق أو استجلاب الربح من صناعة أو حرفة ، فكان منهم في العصر الأول البزاز والزجاج والصائغ والصباغ والفراء ، إلى ما لهم من شهرة في العلم ، أصبحوا في هذا العهد وما تلاه من عهود المماليك يعتمدون على الدولة وما تعطيه من إعانات ، وما تدره عليهم من غلات أوقاف ، أو نظارات في حياتهم ، مما مكن للدولة من ضمان بقائهم في صفها ، ولم يدع للعلماء حرية كاملة في إبداء ما يرون من آراء على الوجه الذي يرضى الله والضمير والحق والعدل . بل كثيرا ما كان هذا النوع سببا في تحاسد العلماء وسمي بعضهم ببعض عند الأمراء ، لتوجيهه وظيفة أو إعطاء وقف .

أشهر العلماء في عصر الدولة الأيوبية

هل للأزهر أثر فيهم ؟

نبغ في العصر الأيوبي كثير من العلماء والأدباء والشعراء ، منهم : الحسن الفارسي الفقيه الجنبى العالم باللغة والأدب والطب والهيئة المتوفى عام ٥٩٨ هـ (١) . ومنهم : ابن الحاجب النحوى (٥٦٦ - ٦٤٦ هـ) المشهور (٢) ، والشاطبي (٥٣٨ - ٥٩٠ هـ) (٣) ، وابن الفارض (٥٧٦ - ٦٣٢ هـ) الصوفى الزاهد الشاعر المعروف (٤) ، وعز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ) (٥) واشتهر فيه من الصوفية سيدي أحمد البدوى (٥٩٦ - ٦٧٥ هـ) (٦) ، وعبد الرحيم القنائى المتوفى عام ٥٩٢ هـ (٧) ، وسواهم .

ومن العلماء أيضا الحافظ المنذرى شيخ الاسلام (٥٨١ - ٦٦٠ هـ) ، والسخاوى المصرى (٥٥٨ - ٦٤٣ هـ) صاحب التفسير المشهور وشرح الشاطبية ، وابن سرايا (٥٧٠ - ٦٥١ هـ) المفسر العالم بالقراءات ، وابن المنير (٦٢٠ - ٦٨٣ هـ) وكان إماما فى النحو والأدب والأصول والتفسير ..

ومنهم ابن برى المتوفى عام ٥٨٢ هـ ، وابن معطى المتوفى عام ٦٢٨ هـ ، وكانا إمامين فى العربية ، وابن مالك الأندلسى المتوفى عام ٦٧٢ هـ وقد أقام بمصر حينما كان أقام بدمشق وحلب ، وكذلك ابن الصلاح وتوفى عام ٦٤٣ هـ .

ومن الأدباء ابن شيث من أدباء القرن السادس ، وابن أبى الأصبع المتوفى عام ٦٥٤ هـ ، وابن الساعاتى المتوفى عام ٦٠٤ هـ ، وأبو الحسين الجزار الشاعر ، وأبو شامة المتوفى عام ٦٩٥ هـ ، والتلعفرى (٥٩٣ - ٦٧٥ هـ) ، وابن واصل المتوفى عام ٦٩٧ هـ ، والقاضى الفاضل المتوفى عام ٥٩٦ هـ ، والعماد الاصبهانى المتوفى عام ٥٩٧ هـ ومن الحكماء الوزير القفطى (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ) .

ومن المؤرخين ابن شداد (٥٣٩ - ٦١٥ هـ) ، وابن عبد الظاهر (٦٢٠ - ٦٩٢ هـ) .

(١) ١٢٦ ج ١ حسن المحاضرة .	(٢) ١٩٤ ج ١ حسن المحاضرة
(٣) ٢١٢ ج ١	(٤) ٢٢١ ج ١
(٥) ١٢٧ ج ١	(٦) ٢٢٣ ج ١
(٧) ٢٢٠ ج ١	

ولا شك أنه كان لكثير من هؤلاء العلماء تلمذة على أساتذة الأزهر وحلقاته العلمية في العصر الفاطمي ، فإذا كان الأزهر قد أوقف نشاطه العلمي في هذا العصر فأثره الروحي كان باقياً مستمراً .

وقد اشتهر في هذا العصر الكثير من الشعراء ، منهم : البهاء زهير (٥٨١ - ٦٥٦ هـ) ، وابن مطروح (٥٩٢ - ٦٤٩ هـ) ، وابن النبيه المتوفى عام ٦١٩ هـ ، وابن الساعاتي المتوفى عام ٦٠٤ هـ ، وابن سناء الملك المتوفى عام ٦٠٨ هـ ، وابن التعاويذي (٥١٩ - ٥٨٤ هـ) ، وسراج الدين الوراق المتوفى عام ٦٥٥ هـ . ولا شك أن نشاطهم الأدبي كانت أثراً لثقافة الأزهر اللغوية والأدبية التي ظلت متوارثة في عهد الأيوبيين .

على أن قطع صلاة الجمعة من الجامع الأزهر في تلك الحقبة لم يبطل صفته الجامعية ، فقد لبث محتفظاً بصفته كمعهد للدرس والقراءة . ومع أنه لم يكن يحظى في ذلك العصر بكثير من الرعاية الرسمية ، فإنه لبث مع ذلك محتفظاً بكثير من هيئته العلمية القديمة ، فنراه مقصد علماء بارزين مثل عبد اللطيف البغدادي الذي وفد على مصر في سنة ٥٨٩ هـ أيام الملك العزيز ولد السلطان صلاح الدين ، وتولى التدريس بالأزهر بضعة أعوام حتى وفاة الملك العزيز في سنة ٥٩٥ هـ (١) .

الفصل السادس

الأزهر في ظلال دولتي المماليك

٦٥٧ - ٩٢٣ هـ

التاريخ السياسي لهذا العصر :

ينقسم هذا العصر إلى عهدين :

- ١ - عهد دولة المماليك البحرية وينتهي عام ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م
- ٢ - وعهد دولة المماليك الشراكسة - أو المماليك البرجية (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ : ١٣٨٢ - ١٥١٧ م) .

أما دولة المماليك البحرية فتبدأ شكلاً من عام ٦٥٧ هـ وإن كان بدؤها الحقيقي هو عام ٦٤٨ هـ : ١٢٥٠ م ، حينما قتل توران شاه ودخلت مصر بعدها في نفوذ مماليك

(١) كتاب الاقادة والاعتبار لعبد اللطيف (مصر) في المقدمة .

هذه الدولة ، الذين كان الصالح أيوب يكثر من شرائهم وينزلهم في قلعة الروضة التي شيدها بجزيرة الروضة ، حتى سموها لذلك بالمماليك البحرية ، وقد بقى الملك في أيديهم إلى عام ٧٨٤ هـ ، وكان عدد ملوكهم أربعة وعشرين سلطاناً :

أولهم السلطان « عز الدين أيبك التركاني الذي ولى الحكم عام ٦٤٨ هـ ، وتزوج شجرة الدر ، وقتل عام ٦٥٥ هـ ، خلفه ابنه المنصور ، الذي تولى الوصاية عليه « سيف الدين قطز » ، ثم أعلن قطز توليه الملك وخلع المنصور عام ٦٥٧ هـ - ١٢٥٩ م وبذلك تبدأ دولة المماليك البحرية في تاريخ مصر .

كان « قطز » هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة ، تولى الملك عام ٦٥٧ هـ ، ولما سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م في أيدي التتار ، وزحفوا نحو مصر ، التقى بهم « قطز » في « عين جالوت » بفلسطين ثم في « بيسان » وهزمهم هزيمة ساحقة ، وكان الفضل في ذلك لقائده « الأمير ركن الدين بيبرس » ، وفي عودتهم إلى مصر قتل « بيبرس » السلطان « قطز (١) » ، وتولى مكانه حكم البلاد .

تقلد السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري حكم مصر (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ : ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) وكان أشهر سلاطين المماليك البحرية ، وقد نظم أمور الدولة والجيش ، وأنشأ الأساطيل ، وعنى بتحسين الشام . . . ولكي يعزز زعامته للإسلام دعا إلى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد ، وبايعه بالخلافة ولقبه بالمستنصر ، واستمد سلطة الملك منه نائباً عنه عام ٦٥٩ هـ - ١٢٦١ م (٢) ، وكان أول من بايع الخليفة العباسي شيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام (٣) ، وقد ذهب الخليفة لمحاربة التتار على رأس جيش مصري فقتل قرب دمشق عام ٦٦٠ هـ فتولى بعده لقب الخلافة العباسية في مصر الخليفة العباسي

(١) كان قطز في أول ولايته قد عزم على فرض ضرائب جديدة على المصريين لينفقها على الجيش الذي سيوجهه إلى حرب التتار ، فجمع العلماء لذلك ، فحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام وصاح : لا يجوز أن يؤخذ شيء من الرعية حتى لا يبقى في بيت المال شيء وتبيعون ماله من الخواص في الآلات ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ويتساووا في ذلك هم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجندي من الأموال والآلات الفاخرة فلا (٣٦ ج ٢ حسن المحاضرة)

(٢) راجع صفحة ٤٠ وما بعدها ج ٢ من كتاب « حسن المحاضرة » للسيوطي

(٣) ٤٤ ج ٢ حسن المحاضرة

أبو العباس أحمد ولقب الحاكم بأمر الله (١) .
وكان للسلطان « الظاهر بيبرس » أعمال حربية ، وإصلاحات داخلية ، محودة
وفي أيامه طيف بالمحمل وبكسوة السكبة المشرفة بالقاهرة عام ٦٧٥ هـ ، وهو أول
من فعل ذلك بالديار المصرية .

وبعد وفاة بيبرس خلفه ولدان له أحدهما بعد الآخر ولم تطل مدتهما ، وانتهى
الأمر بتولى السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى (٦٧٨ -
٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ، فبقى الملك فى بيته أكثر من مائة سنة ، وساد فى عهده
العدل والسكينة .

وخلفه ابنه الأشرف خليل وكان شجاعا مقداما مظفرا عادلا ، فقتل بعد ثلاث
سنوات ، وما يذكر له أنه هو الذى قضى على إمارات الصليبيين بالشام .

وخلفه أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٧٤١ هـ : ١٢٩٣ - ١٣٤١ م) ،
وقد هزم التتار قرب دمشق عام ٧٠٢ هـ - ١٣٠٣ هـ هزيمة ساحقة أثناء محاولتهم
التقدم لفتح مصر ، وعنى الناصر بشئون بلاده الداخلية ونشر العلوم والمعارف ،
وشيد المباني الفخمة ، وتوفى الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله فى عهده عام ٧٠١ هـ ،
ودفن بجوار السيدة نفيسة فى قبة بنيت له ، وهو أول خليفة مات بمصر من بنى العباس ،
وولى الخلافة بعده ابنه أبو الربيع سليمان ولقب المستكفى بالله وخطب له على المنابر
فى مصر والشام (٢) ، ولم يسكن السلطان قد أمضى عهد والده له بالخلافة حتى سأل
الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد قاضى القضاة بمصر يومئذ : هل يصلح للخلافة أولا ؟
فقال الشيخ : نعم يصلح ، فلما أشار الشيخ باستخلافه أمضى عهد والده له (٢) ومات ،
فى شعبان سنة ٧٤٠ هـ فى قوص ودفن بها ، وتولى بعده الخلافة الواثق بالله رغم
معارضة قاضى القضاة عز الدين بن جماعة ، ومات الناصر عام ٧٤١ هـ (١٣٤١ م) ،
ولم يترك خلفا يقدر على القيام بعبء الملك بعده ، ومن أبنائه السلطان حسن الذى
بنى المدرسة العظيمة التى لم يخلف السلطان أعظم منها بناء ولا أتم صناعة ، وهى المشهورة
الآن بجامع السلطان حسن بجوار قلعة القاهرة ، وانتهى الأمر بانقراض هذه الدولة
واستيلاء المماليك الشراكسة على الملك .

وقد عزل الخليفة الواثق وبويع لـ أحمد بن المستكفى ولقب المستنصر ثم لقب

(١) ٤٧ ج ٢ حسن المحاضرة

(٢) ٤٩ ج ٢ حسن المحاضرة .

بعد ذلك الحاكم بأمر الله - لقب جده - وذلك بحضور ابن جماعة وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة وذلك عام ٧٤٢ هـ ومات الخليفة عام ٧٥٣ هـ ، وبويع بعده لأخيه المعتضد بالله وظل خليفة حتى مات عام ٧٦٣ هـ ، وظل بنو العباس في مصر يتوارثون الخلافة إلى أمد بعيد .

وأما دولة المماليك الشراكسة فقد حكمت مصر من عام ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ ، ومعظمهم من الشراكسة ، بعكس المماليك البحريين فكانوا من الترك .. ولم يكن الملك في دولة المماليك الشراكسة وراثيا كما كان في بيت قلاوون ، وعدد ملوك هذه الدولة ثلاثة وعشرون ، حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة ، وحكم في التسع السنوات الأخرى أربعة عشر ، وقد كان ملوك هذه الدولة ولع بالعلوم والآداب والفنون ، وإن كانوا لم يحرصوا على العدل في حكمهم .

وأشهر ملوكهم وأولهم : « الملك الظاهر سيف الدين برقوق » ، وقدمت عام ٨٠١ هـ - ١٣٩٩ م ، وخلف مدرسته العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بجامع برقوق .

وخلفه ابنه فرج الذي حارب تيمورلنك ، وعقد معه صلحا .
ومن ملوك هذه الدولة « المؤيد شيخ » ، باني الجامع المعروف بجامع المؤيد بجوار « باب زويلة » .

ومنهم : الأشرف برسباي ٨٢٥ - ٨٤١ هـ : ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م ، وقايتباي ٨٧٣ - ٩٠٢ هـ : ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م ، والغوري ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ : ١٥٠١ - ١٥١٦ م ، وقد انتهى أمره بأن قتله السلطان سليم العثماني فاتح مصر عام ٩٢٣ هـ ، وضم مصر إلى الدولة العثمانية .

الآزهر في هذا العصر

١ - في عهد السلطان بيبرس والسلطين بعده :

في سنة ٦٦٥ جده الأمير عز الدين أيمن الحلبي بسبب أنه كان بجواراله بالسكنى ، وكانت داره مكان الأقبغاوية المجمولة مكتبة الأزهر الآن ، فراعى حرمة الجوارواتنزع له أشياء كانت مغصوبة وأحاط أموره حتى جمع له شيئا صالحا مع ما تبرع به له من المال الجزيل ، وأطلق له من السلطان جملة من المال وشرع في عمارته ، فعمر الواهي من أركانه وجدرانها وأصلح سقفه وبلطه وفرشه وكساه ، حتى عاد حرا بعد أن كان باليا ، واستجد (٥ - الأزهر)

به مقصورة حسنة وترك فيه آثارا صالحة .. وكذا عمل فيه الامير بيلبك الخازن دار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الشافعي ومحدثا يسمع الحديث النبوي، ووقف على ذلك الاوقاف الدرارة ورتب به سبعة لقراءة القرآن ومدرسا، وأقيمت فيه الجمعة يومئذ، وحضر فيه الامراء والسكباء والعلماء، وكان يوما مشهودا، وبعد الفراغ من الجمعة قام الامير عز الدين إلى داره ومعه الامراء فقدم لهم موائد الطمام، وكان قد أخذ فتاوى من العلماء بجواز الجمعة فيه.

وهذا أول افتتاح الازهر لصلاة الجمعة بعد انقطاعه منه في عصر الدولة الايوبية.

وفي شهر الحجة سنة ٧٠٢ حدثت زلزلة شديدة بديار مصر فسقط الجامع الازهر والجامع الحاكمي وجامع عمرو، وغيرها، فتقاسم أمراء الدولة عمارة الجوامع، فتولى الامير ركن الدين يبرس الجاشنكير عمارة الجامع الحاكمي، وتولى الامير سيف الدين بكشمر الجوكندار عمارة جامع الصالح، وتولى الامير سلار عمارة الجامع الازهر، فجددوا مبانيها وأعادوا ما تهدم منها .. وفي ٧٠٩ بنيت فيه مدرسة الطيرسية.

والامير سلار كان من مماليك الصالح علاء الدين بن المنصور قلاوون، واتصل بخدمة الاشرف وتوفي عام ٧١٠ هـ.

وفي سنة ٧٢٥ هـ جددت عمارة الجامع الازهر على يد القاضي نجم الدين محمد بن حسين ابن علي الاسعدي محتسب القاهرة ... ثم في سنة ٧٤٠ أنشئت الاقبغاوية التي هي محل المكتبة الازهرية الآن، وفي سنة ٧٤٤ تمت الجوهريّة.

وفي سنة ٧٦١ جددت عمارة الازهر عندما سكن الامير الطواشي سعد الدين بشير الجمدار الناصري في دار الامير نحر الدين أبان الزاهري الصالح النجمي بخط الابارين بجوار الجامع الازهر بعدما هدمها وعمر داره التي تعرف في ذلك الوقت بدار بشير الجمدار، وأحب لقربه من الجامع الازهر أن يؤثريه أثرا صالحا، فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في عمارته وكان خصيصا به، فأذن له في ذلك وكان قد استجد بالجامع عدة مقاصير ووضع في صناديق وخزائن حتى ضيقته، فأخرج الخزائن والصناديق ونزع تلك المقاصير وتبّع جدرانها وسقوفها بالاصلاح، حتى عادت كأنها جديدة، وبيض الجامع كله وبلطه، ومنع الناس من المرور فيه ورتب فيه مصحفا وجعل له قارنا، وأنشأ على باب الجامع القبلي حانوتا للسبيل الماء العذب في كل يوم وعمل فوهة مدرسة لاقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ورتب للفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم

وأُنزل إليه قدوراً من نحاس جعلها فيه ورتب فيه دروساً للفقهاء من الحنفية يجلس مدرّسهم لالقاء الفقه في المحراب الكبير ووقف على ذلك أوقافاً جليّة .

وفي سنة ٧٨٤ هـ ولي الأمير بهادر المقدم على المماليك السلطانية نظراً للجامع الأزهر، ونجز مرسوم السلطان برقوق بأن من مات من مجاوري الجامع الأزهر من غير وارث شرعي وترك شيئاً فإنه يأخذ المجاورون بالجامع ، ونقش بذلك على حجر عند الباب الكبير وهو غير موجود الآن .

وكان عدد طلبة الأزهر في أوائل القرن الثامن ٧٥٠ طالباً كما يقول المقرئ . وفي سنة ٨٠٠ هـ دُمت منارة الأزهر وكانت قصيرة وعمرت بأطول منها وبلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم ، وكمّلت في ربيع الآخر من السنة المذكورة فعلقت القناديل فيها ليلة الجمعة من هذا الشهر ووقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها إلى أسفلها ، واجتمع القراء والوعاظ به وتلوا ختمة شريفة ودعوا للسلطان ، ولم تنزل هذه المنارة إلى شوال سنة ٨١٨ هـ فهدمت لميل ظهر فيها وعمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع البحري بعد ما هدم الباب وأعيد بناءه بالحجر وركبت المنارة فوق عقده ، وأخذ الحجر لها من مدرسة الملك الأشرف خليل التي كانت تجاه قلعة الجبل ثم هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق ، وقام بعمارة ذلك الأمير تاج الدين التاج الشوبكي وإلى القاهرة وحسبها ، وتمت سنة ٨١٨ هـ فلم تقم غير قليل ومالت حتى كادت تسقط ، فهدمت سنة ٨٢٧ هـ ، وأعيدت وفي هذه السنة ابتدئ بعمل الصهرج الذي بوسط الجامع فوجد هناك آثار فسقية ماء ووجد أيضاً جثث أموات . وتم بناؤه في ربيع الأول سنة ٧٢٧ هـ وعمل بأعلاه مكان مرتفع له قبة يسيل فيه الماء وغرس بصحن الجامع أربع شجرات ولم تنفع وماتت ، ولم يكن للجامع الأزهر ميسأة عند ما بنى ، ثم عملت ميسأته

وفي سنة ٨١٨ هـ تولى نظارة الجامع الأزهر الأمير سودوب حاجب الحجاب ، فأهان طلبة الأزهر وأخرجهم منه وكان عددهم يومئذ ٧٥٠ طالباً من شتى البلاد الإسلامية وأنحاء مصر ، وكان الأزهر يومئذ عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ .

وكان الإنسان إذا دخله يحد من الانس بالله والارتياح ما لا يجده في غيره وصار يقصده أرباب الأموال للتبرك ويصلون أهله بأنواع الذهب والفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، فرأى سودوب المذكور أن يأمر بإخراجهم ومنعهم

من المبيت به فأخرجهم وما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسي المصاحف، وقد حل بفقراء المجاورين بلاء شديد بعد ما هجم عليهم مرة بعد العشاء الأخيرة، هو ومن كان معه من الغلمان والأعوان وغوغاء العامة ومن يريد النهب، فضربهم ونهبت فرشهم وعيانتهم وسلبت نقودهم فتشتت شملهم وساروا في القرى وتبدلوا بعد الصيانة وفقد من الجامع كثيرا بما كان فيه، فعاجل الله الأمير سودوب بالانتقام وقبض عليه السلطان وسجنه.

وفي سنة ٩٠٠ أجرى مصطفى بن محمود بن رستم الروى عمارة الجامع الأزهر وصرف عليه من ماله نحو خمسة عشر ألف دينار وجاء في غاية الحسن.

وأنشأ الملك الأشرف أبو النصر قايتباي ميسأة بالجامع الأزهر وفسقية معتبرة من داخلها، وقد أبدلت بحنفيات سنة ١٣١٧، وأنشأ أيضاً سبيلا ومكتباً على باب الجامع وقد أزيل المكتب أيضاً، وهو الذى أنشأ رواق الشوام ورواق المغاربة، وأنشأ المنارة العظيمة على يمين الداخل فيه.

وقد رتب الملك قانصوه الأشرف خال الناصر الخزيرة بالجامع الأزهر في شهر رمضان، والخزيرة عسيمة بلحم... ثم لما جاء الملك قنصوه الغورى ضاعف ذلك في أيامه فرتب في شهر رمضان في مطبخ الجامع الأزهر كل سنة ستمائة وسبعين ديناراً ومائة قنطار من العسل وخمسمائة أردب قمح، وبنى المنارة العظيمة ذات الرأسين به سنة ٩٠٢ هـ.

وللعلماء في سجل التاريخ الإسلامى ذكر، وللشيخ عز الدين بن عبد السلام خاصة نصيب من هذا المجد التليد.

قدم الشيخ عز الدين إلى مصر سنة ٦٣٩ هـ من دمشق، فتلقاه صاحب مصر وسلطانها الصالح نجم الدين أيوب بالأكرام والاحترام، واحاطه عليهاؤها وفقهاؤها بالتقدير والاحترام، حتى امتنع الشيخ زكى الدين المنذرى عن الافتاء تأدبا معه، وقال: كنا نفقى قبل حضوره، فنصب الفتيا متعين فيه.. وبالغ السلطان نجم الدين في إكرام الشيخ فوله قضاء مصر والوجه القبلى، وقبل الشيخ المنصب على أن يؤدى فيه حق الله كما يجب، وإن تكون كله الشرع هى الفاصلة بين الحاكمين والمحكومين، فلا دالة لصاحب سلطان، ولا تهاون مع ذى جاه، ولكن الناس سواسية امام الحق، وفي شرط الاسلام، وعلى هذا تقلد الشيخ المنصب وتحمل العمل فيه.

وكان أول موقف للشيخ تجاه اصحاب النفوذ والسلطان بين الناس، وكان موقفاً

عجبا ، ذلك ان السلطان قد اكثر من شراء الترك وتأمرهم على البلاد ليكونوا أعوانه وعبونه ، وقد استشرى امر هؤلاء الاتراك وصاروا اصحاب الجاه والنفوذ على الرعية لا يبالون في ذلك بطشا ولا ظلما يقع على الناس ، وما كان في الناس من يستطيع أن يتصدى لهم أو ينكر عليهم ، ونظر الشيخ ابن عبد السلام فرأى في ذلك فسادا لا يستقيم به حق الدين ولا واجب الحكم ، ولما بحث الشيخ الامر في حقيقة هؤلاء الامراء الاتراك رأى انهم بحكم الشرع أرقاء لسادتهم من أبناء مصر ، وذلك لأن السلطان قد اشتراهم بمال الدولة وما زال حكم الرق مستصحباً عليهم ، وكان أن جلس الشيخ وكتب فتواه بانه لم يثبت عنده ان هؤلاء الامراء الاتراك احرار وان حكم الرق مستصحب عليهم لبیت مال المسلمين وانه لا بد من بيعهم وصرف ثمنهم في وجوه الخير ومصالح الأمة . وكان من جملة هؤلاء الامراء نائب السلطنة ، وكلهم اصحاب حكم وسلطان .

وبلغت الفتوى اولئك الامراء ، فامتلاوا غضبا وغيظا ، وأدهشتهم تلك الجراءة من ذلك الشيخ الفقيه عليهم ، وارسلوا اليه ان يكف عن هذا الذي لا يليق معهم . وهم اصحاب الحكم والسلطان ، ولكن الشيخ صمم على فتواه ، وزاد على ذلك فصار لا يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا ولا أى تصرف في أمور الناس وشئون الحكم حتى تعطلت مصالحهم ، وتوقفت اعمالهم ، وهم في كل هذا يتعاضمون ويعجبون من جرأة ذلك الشيخ ، ومافى مقدور أحد أن ينكر عليهم أى شئ .

ورفع الامراء الامر إلى السلطان ، وشكوا اليه من هذه الجراءة التي هوت بمكائتهم بين الناس . وأرسل السلطان إلى الشيخ ابن عبد السلام يصرفه عن غايته ، ويبين له مافى هذه الفتوى من الاضرار بأولئك الامراء الذين لهم شأنهم في شئون الحكم ، وكان ابن عبد السلام يقدر تماما أنه وفد على مصر غريبا لأهل له ، فقيرا لآمال عنده وليس له من قوام الحياة إلا هذا المنصب الذي يجلس فيه ، وزمام المناصب كلها بيد السلطان ، ولكن حب الدنيا لم يكن أفسد نفوس رجال الدين في ذلك الزمن ، وما لرجل مثل ابن عبد السلام ترك وطنه راضيا ، واحتمل السجن وشظف العيش في سبيل الرأي والحق ، أن يثنيه عن الحق مطلب من مطلب العيش أو رغبة في منصب مهما يكن جواه ، فأرسل إلى السلطان بأنه لا بد من نفذ لفتواه لانها كلمة الشرع وحق الاسلام ، وأنه سينادى على أولئك الامراء بالبيع ويقبض ثمنهم ، وإلا فانه سيعزل نفسه من منصب القضاء ويترك فتواه قائمة في اقطار الاسلام يعول عليها المسلمون في تصريف أمورهم .

وانكش السلطان بجبروته امام الشيخ في إبانته وجراته ، وتلبس نائب السلطان بابا آخر لصرف الشيخ عن اصراره ، فأرسل اليه بالملاطفة والملاينة والرجاء أن يراجع نفسه في تلك الفتوى الجريئة وان يتصرف بما يتفق ومساكنة الأمراء بين الناس ، ولكن الشيخ الذي كان لا يرهبه في الحق شدة ، كان من الأولى ألا تجدى معه في الحق ملاطفة أو ملاينة .

وعظم الخطب على نائب السلطنة ، وثار به الغضب ثورته ، وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ الفقيه بالبيع ونحن ملوك الأرض ، والله لأضربنه بسيفي هذا ، فإنا كان حكم الناس من شأن فقيه ، ولا كانت أقدار الناس على ما يفتي به ، ثم ركب في جماعته ليشأ لنفسه ولجماعته بالسيف ، وليضع حدا لتطاوله عليهم وهم أمراء مصر وملوك الأرض !

ووقف نائب السلطنة على باب الشيخ بمطيا صهوة جواده ، والسيف في يده قائم كأنه متأهب لمسدان حرب ، وطرق الباب على الشيخ طرقات قوية عنيفة ، فخرج ولد الشيخ يستطلع الامر ، فأذهله ما رأى من هيئة نائب السلطنة وجماعته وزاد من زعبه وفرعه ان سأل نائب السلطنة عن والده ليفتك به ، وليتركه بدادا بسيفه ، وأسرع ولد الشيخ إلى داخل الدار فزعا جزعا ينيء والده بالشر المتربص بالباب ويسأله ان يمتحنى ، فلا يظهر نفسه حتى يدبر للهرب أو يؤذن الله بالفرج .

وابتسم الشيخ لما سمع ، وهدأ من روع ولده قائلا : لا عليك يا بني ، فأبوك اقل من أن يقتل في سبيل الله ، ثم نهض إلى باب الدار ، شامخا كالطود ، جريئا كالأسد ثابتا يزيد من ثباته وهيئته ايمان قوى بالله يتضاءل كل ما في هذه الدنيا بجانبه ، ووقف الشيخ الاعزل إلا من قوة الحق وصدق الايمان أمام نائب السلطنة وهو في سلاحه وعتاده وجنده ، وما زاد الشيخ على أن أرسلها نظرة حادة نافذة ، فإذا بنائب السلطنة يدعن امام هيبة الشيخ ويتضاءل في سلاحه وجنده ، وإذا به يسرع فيخمد سيفه ، ويترجل من فوق جواده ، ويهوى على يد الشيخ يقبلها ، وأطرافه يمسحها ، ويسأله ان يغفر له ما فرط منه ، وان يتجاوز عما ارتكب في حقه ، ويطلب منه الدعاء والرضاء ، قائلا : ايش ياسيدي تريد أن تعمل .

قال الشيخ : اريد أن انادى عليكم وأبيعكم . قال : وماذا تصنع بثماننا ؟ قال : اصرفه في مصالح المسلمين ، قال : ومن يقبض الثمن قال : انا اقبضه واتولى صرفه . قال : لك ما تشاء في امرنا .

وأصبح الصباح في اليوم الثاني ، وعقد مجلس كبير من رجال الدولة يحضره السلطان ، وحشد الامراء الاتراك بكامل عددهم فما تأخر نفر منهم ، وأخذ قاضي القضاة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ينادي عليهم بالبيع واحدا واحدا ، ويغالي في ثمنهم لأنهم امراء .. ولأنهم ملوك الأرض .. وغالي أكثر ماغالي في ثمن نائب السلطنة ، ودفع السلطان إلى الشيخ كل ما اشترط من مال ، فوزعه على وجوه الخير ومصالح المسلمين ، ثم اعتق الامراء الارقاء ، ومنحهم حق الحرية في التصرف والبيع والشراء (١)

اعتنى الظاهر بيبرس (٢) - كما قدمنا - بأمر الأزهر فأعاد إليه خطبة الجمعة في الثامن عشر من ربيع الاول سنة ٦٦٥ هـ وشجع العلم فيه وحذا حذوه كثير من الامراء فزاد الامير بيبك الخازندار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الشافعي . ورتب فيها محدثاً ، وسبحة لقراءة القرآن ، ووقف على ذلك الاوقاف الدارة . وفي سنة ٧٦١ هـ أحب الامير الطواشي سعد الدين بشير الجامدار الناصري عند ماسكن بجوار الأزهر أن يؤثر فيه أثراً صالحاً فأنشأ فيه مما أسداه إليه درساً لفقه الحنفية يلقى في المحراب الكبير ، ووقف على هذا الدرس أوقافاً كثيرة .

على هذا النحو سار الأزهر في عناية الممالك (٢) ، غير أننا نلاحظ أن الجامع الحاكي أخذ ينافس الأزهر بعد أن أصلح من زلزال سنة ٧٠٢ هـ ، فلقد جاء الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فأنشأ بالجامع الحاكي دروساً أربعة لاقراء الفقه على مذهب الأئمة الاربعة ، ودرساً لاقراء الحديث النبوي ، وجعل لكل درس مدرساً وعدة كثيرة من الطلبة ، فرتب في تدريس الشافعية قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي ، وفي تدريس الحنفية قاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفي ، وفي تدريس المالكية قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي ، وفي تدريس الحنابلة قاضي القضاة شرف الدين الجواني ، وفي درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارثي ، وفي درس النحو الشيخ أنير الدين أبا حيان ، وفي درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفى ، وفي التصدير لافادة العلوم علاء الدين علي بن إسماعيل القونوى ، وفي مشيخة الميعاد والمسجد عيسى بن الخشاب ، وأنشئت به مكتبة جليلة وجعل فيه عدة متصدين لتلقين القرآن الكريم ، وعدة قراء يتناولون قراءته ،

(١) المصرى ١٤ / ٩ / ١٩٥٤ م - الأستاذ محمد فهمى عبداللطيف .

(٢) الأزهر - مجلة المقتطف - الشيخ منصور رجب .

ومعلماً يقرى أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل . وأوقفت على ذلك الاوقاف الدارة
بناحية الجيزة ، والصعيد ، والاسكندرية (١) .

وأصدر برقوق قراراً د بائن من مات من مجاورى الازهر من غير وارث شرعى
وترك موجوداً فإنه يأخذه المجاورون بالجامع .

وكان هذا لتقوية الازهر بعد أن طغت عليه المدارس والجامع الحاكى . ولم
يكتف الظاهر برقوق بإصدار المرسوم بل أمر بنقشه على حجر عند الباب الكبير
البحرى ليكون بمثابة إعلان دائم .

نعرف شيئاً عن نظام الازهر والعلوم التي كانت تدرس فيه وبخاصة أيام المماليك الذين
أنقذوه من اضطهاد الايوبيين السنيين ؟ بما ذكره المقرئى . فلقد رسم صورة
لاباس بها نرى فيها شيئاً عن علومه ونظامه وعدد طلبته وما كان يجرى فيه قال :
فى سنة ٨١٨ هـ ولى نظر هذا الجامع مع الامير سودوب القاضى حاجب
الحجاب فحرت فى أيام نظره عدة حوادث لم يتفق مثلها وذلك أنه لم يزل فى هذا
الجامع منذ بنى عدة من الفقراء يلزمون الإقامة فيه وبلغت عدتهم فى هذه الايام
٧٥٠ رجلاً ما بين عجم وزيا لعة ومغاربة ومن أهل ريف مصر ولكل طائفة رواق
يعرف بهم فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه والاشتغال بأنواع
العلوم من الفقه والتفسير والحديث والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر، وصار
أرباب الاموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة إعانة للمجاورين
فيه على عبادة الله تعالى وكل قليل تحمل إليهم أنواع الاطعمة والخبز والحلويات
لاسماً فى المواسم . قائم هذا الناظر فى جمادى الاولى من هذه السنة بإخراج
المجاورين من الجامع ومنعهم من الإقامة فيه وإخراج ما كان لهم فيه من
صناديق وخزائن .

ومن هذا نرى أن الازهر كان فى ذلك الوقت فوق كونه مدرسة لطلب العلم
تدرس فيها العلوم المختلفة ومسجد للعبادة ومكاناً للوعظ ، كان يجوار ذلك داراً للتصوف ،
وتروى دائرة المعارف الإسلامية عن ابن إياس أن ابن الفارض الصوفى كان مقياً
بالازهر . ويروى رشيد بن غالب صاحب شرح ديوان ابن الفارض أن والد عمر
ابن الفارض حين امتنع أن يقبل وظيفة قاضى القضاة ونزل عن حكم القاهرة ومصر
بالنيابة عن الخليفة اعتزل الناس وانقطع إلى الله تعالى بقاعة الخطابة بالجامع الازهر

ولعل ابنه كان يقيم معه بعد أن كان يعود من سياحته في جبل المقطم . وعلى كل فقد كانت المساجد والمدارس في ذلك الوقت مفتوحة للرياضة الروحية بجوار درس العلم ، وكانت المدارس والمساجد تقبل طلاب التصوف كما كانت تقبل طلاب العلم ، وتفتح صدرها لهؤلاء كما تفتح صدرها لاولئك . فمثلا البدر العيني صاحب عمدة القارى شرح صحيح البخارى حينما حضر الى القاهرة مع شيخه العلامة السيرامى سنة ٧٨٨ هـ جعله الظاهر برقوق في عداد صوفية البروقية .

ونرى الامير الكبير سيف الدين شينخو الناصرى لما أنشأ مسجده جعل فيه عشرين صوفيا ، وأقام الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الرومى الحنفى شيخاً لهم .. ثم لما عمر الخانقاه تجاه الجامع نقل الاكمل والصوفية اليها وزاد عدتهم .

ويذكر صاحب خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادى عشر : أن الشيخ أحمد ابن عيسى بن غلاب المنعوت بشهاب الدين السكلى المسالكى ، شيخ المحيا النبوى بالأزهر ، أخذ التصوف عن الشيخ الشعرانى وجلس بالمحيا الشريف بعد والده ، ووالده جلس بعد الشيخ البلقينى وهو جلس بعد الشيخ صالح ، وهو جلس بعد الشيخ نور الدين الشوقى المدفون بزاوية الشيخ عبد الوهاب الشعرانى .

٢ — وقد أسهم الأزهر بنشاط كبير في هذا العصر ، في شتى نواحي الحياة والعلم والثقافة .

وكان ابن الدمامينى (٧٦٣ - ٨٢٧ هـ) - الذى ولد بالاسكندرية ، وفاق فى النحو والنظم والنثر ، وشارك فى الفقه وغيره من العلوم ، ومهر واشتهر ذكره - يتصدر بالجامع الأزهر لاقراء النحو (١) .

وقد نبغ فى هذا العهد من العلماء : الدمامينى ، وابن عقيل المتوفى عام ٧٦٩ هـ (٢) ، وابن هشام المتوفى عام ٧٤٩ هـ (٢) ، وابن إياس المؤرخ المتوفى عام ٩٣٠ هـ ، وأبو حيان (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ) (٣) ، وابن مكرم صاحب لسان العرب (٦٣٢ - ٧٦١ هـ) (٣) ، والرضى النحوى المشهور المتوفى عام ٦٨٤ هـ (٣) ، وابن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢ هـ) (٤)

(١) ٢٣١ ج ١ حسن المحاضرة

(٢) ٢٣٠ ج ١ حسن المحاضرة .. ويذكر باحث أن ميلاده عام ٧٠٧ هـ ووفاته

كانت عام ٧٦١ هـ (٢٢٨ الحركة الفكرية فى مصر لعبد اللطيف حمزة) .

(٣) ٢٢٩ ج ١ حسن المحاضرة

(٤) ١٢٨ ج ١

وتقى الدين السبكي (٦٨٣ - ٧٥٦ هـ) (١) ، وشيخ الاسلام البلقيني ٧٢٤ - ٨٠٥ هـ (٢) والعيني (٣) ٧٦٢ - ٨٥٥ هـ ، والشمي (٤) ٨٠١ - ٨٧٢ هـ ، وابن الهمام المتوفى عام ٨٦١ هـ (٥) ، والسيوطي (٦) ٨٤٩ - ٩١١ هـ . . وكان من الصالحين عبد العال خليفة أحمد البدوي المتوفى ٧٣٢ هـ (٧) .

ولاشك أن كثيرا من هؤلاء وسواهم قد اتصلوا بالأزهر اتصالا عليا ، فجلسوا في حلقاته متعلمين ، وتصدروها معلمين .

وكان بجوار الأزهر كذلك مدارس مشهورة منها المدرسة الظاهرية القديمة التي بناها يبرس عام ٦٦١ هـ ، ورتبها لتدريس الشافعية بها تقى الدين بن رزين ، ولتدريس الحنفية يحيى الدين بن عبد الرحمن بن الكحال بن العديم ، ولتدريس الحديث الحافظ شرف الدين الدمياطي ، ولتدريس القراءات كمال الدين القرشي .

ومنها المدرسة المنصورية التي بناها الملك المنصور قلاوون عام ٦٧٩ هـ ورتب فيها دروسا للفقهاء على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير ودروسا كذلك للطب .
ومنها المدرسة الناصرية التي بناها الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٣ هـ وعين بها المدرسين للمذاهب الأربعة .

ومدرسة السلطان حسن التي بناها السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٥٨ هـ

والمدرسة الظاهرية الجديدة التي فرغ من بنائها عام ٧٨٨ هـ وعين السلطان فيها مدرسين للفقهاء على المذاهب الأربعة وللحديث والقراءات ، وكان الشيخ سراج الدين البلقيني مدرسا فيها للتفسير .

ولكن هذه المدارس كلها كانت عالة على الأزهر ، تأخذ منه ، وتستمد علماءها من خريجيه وأساتذته ، ويوجهها الأزهر توجيها عليا .

ومن أشهر من نبغوا في هذا العهد من العلماء والأدباء والشعراء : الفيروزبادي صاحب القاموس المحيط المتوفى عام ٨١٧ هـ ، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى المتوفى

(١) ١٣٠ ج ١ حسن المحاضرة (٢) ١٣٥ ج ١ حسن المحاضرة

(٣) ٢٠١ ج ١ " " (٤) ٢٠٢ ج ١ " "

(٥) ٢٠١ ج ١ " " (٦) ١٤٠ ج ١ " "

(٧) ٢٢٥ ج ١ " "

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

عام ٨٢١ هـ ، والنويرى صاحب نهاية الأرب المتوفى عام ٧٣٢ هـ ، وابن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٤٨ هـ صاحب ممالك الأبصار ، وتقى الدين ابن حجة الحموى (٧٦٧ - ٨٣٧ هـ) صاحب خزانة الأدب ، وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى (٦٩٦ - ٨٢٤) ، وصفي الدين الحلى عبد العزيز بن على (٦٧٧ - ٧٥٠ هـ) ، والشاب الظريف (٦٢١ - ٦٨٨ هـ) وجمال الدين محمد بن نباتة المصرى (٦٨٦ - ٧٦٨ هـ) ، وابن الوردى (٦٨٩ - ٧٤٩ هـ) ، والبوصيرى (٦٠٨ - ٦٩٥ هـ) ، وابن إدقماق المتوفى عام ٨٠٩ هـ مؤرخ الديار المصرية ، والمقرئى (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ) ومحمد جمال الدين الوطواط المتوفى عام ٧١٨ هـ والدميرى صاحب حياة الحيوان المتوفى عام ٨٠٨ هـ ، وهم كلهم أوجلمهم أثر من آثار الأزهر العلمية .

وقد حضر ابن خلدون إلى مصر واشترك في الحياة العلمية فيها ، وزار حلقات الأزهر العلمية ، وتصدر للتدريس فيه .

كما هاجر إلى مصر في هذا العهد كثير من العلماء الذين جددوا شباب النهضة العلمية في العالم الإسلامى .

وقد كان من العلماء من يعرف كثيرا من العلوم العقلية والطبية وغيرها زيادة على العلوم الدينية والعربية ، وهؤلاء لا يحصون ، نذكر منهم على سبيل المثال : الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهورى المتوفى سنة ١١٩٢ هجرية ، فقد جاء في سند إجازته ماملخصه : أنه تلقى في الأزهر العلوم الآتية ، وله تأليف في كثير منها ، وهى : الحساب والميقات ، والجبر والمقابلة ، والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الأسطرلاب ، والزيج والهندسة ، والهيئة ، وعلم الأرتماطيقى ، وعلم المزاويل ، وعلم الأعمال الرصدية ، وعلم المواليذ الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه ، وعلاج البواسير ، وعلم التشريح ، وعلاج لسع العقرب ، وتاريخ العرب والعجم .

ومن تولى التدريس فيه الفخر البلبيسى الضرير أستاذ القراءات وإمام الأزهر ، وتولى ابن حجر خطابة الأزهر حينما آخر .

على أنه يوجد مع ذلك في أنباء العصر ما يدل على أن الأزهر كان خلال هذه الحقبة يحتفظ بمكانته الخاصة ، يعاونه في ذلك اتساع حلقاته وأروقته ، وتنوع دراساته ، وهيبته القديمة ، وما يلاقيه الطلاب فيه من أسباب التيسير في الدراسة وأحيانا في الإقامة . وقد غدا الأزهر منذ أواخر القرن السابع أى منذ عفت معاهد بغداد وقرطبة ، كعبة

الأساتذة والطلاب من سائر أنحاء العالم الاسلامى ، وغدا أعظم مركز للدراسات الاسلامية العامة . ومنذ القرن الثامن الهجرى أخذ يتبوأ الأزهر فى مصر وفى العالم الاسلامى نوعاً من الزعامة الفكرية والثقافية . وفى أبناء هذا القرن ما يدل على أن الأزهر كان يتمتع فى ظل دولة السلاطين برعاية خاصة ، وكان الأكابر من علمائه يتمتعون بالجاء والنفوذ ، ويشغلون وظائف القضاء العليا ، ويستأثرون بمراكز التوجيه والإرشاد . وكان هذا النفوذ يصل أحياناً إلى التأثير فى سياسة الدولة العليا ، وأحياناً فى مصائر العرش والسلطان .

وربما كانت هذه الفترة فى الواقع هى عصر الأزهر الذهبى من حيث الانتاج العلمى الممتاز ، ومن حيث تبوؤه لمركز الزعامة والنفوذ .

وفى أواخر القرن التاسع أخذت الحركة الأدبية فى مصر الاسلامية فى الانحلال وذلك تبعاً لانحلال الدولة المصرية والمجتمع المصرى . وكانت دولة السلاطين قد شاخت وأخذت تسير نحو الانهيار بخطى سريعة ، وتصعد بناء المجتمع المصرى وأخذ فى الانحلال والتفكك ، واضطربت أحوال المعاهد والمدارس المصرية وتضاءلت مواردها ، وفقدت كثير مما كانت تتمتع به من رعاية السلاطين والأمراء ، وأصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرى من الذبول والركود . ولم يمض قليل على ذلك حتى وقعت المأساة المروعة فانهارت الدولة المصرية ، وفقدت مصر استقلالها التالى وسقطت ضريبة الغزو العثمانى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) .

الفصل السابع

الأزهر فى عهد الدولة العثمانية

٩٢٣ — ١٢٢٠ هـ

تمهيد :

خضعت مصر للحكم العثمانى خضوعاً تاماً منذ عام ٩٢٣ هـ ، واستمرت ولاية عثمانية إلى أن وضع محمد على يده عليها عام ١٢٢٠ هـ ، وكان يتولى الحكم فيها الوالى التركى ومساعدوه ، ويسنده الجيش والمماليك .

الحركة العلمية فى الأزهر :

فى أواخر القرن التاسع أخذت الحركة العلمية فى مصر الاسلامية تضمحل ،

وكانت دولة السلاطين هي الأخرى في طريقها إلى الانهيار ، واضطربت أحوال المجتمع وتفككت عراه ، وأصاب المدارس الركود ، وأصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرى من الذبول ، وفقدت مصر استقلالها ، وسقطت في يد الأتراك العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) وتقلص ظل الازدهار العلمي ، وانصرف كثير عن العلوم العقلية والفلسفة والرياضة والجغرافيا ، وأخذ القول بحرماتها يقوى شيئاً فشيئاً ، حتى تركت هذه العلوم من الأزهر ، وبقيت مهجورة ينظر إليها بعين السخط ، حتى صدرت أخيراً فتوى من شيخ الأزهر الشيخ الانبأبي والشيخ محمد محمد البنا المفتي بجواز تعلمها وعدم حرمة تدريسها .

وفي الحق أن الفتح العثماني قضى على مظاهر النشاط الفكري التي كانت مزدهرة في عهد السلاطين . فقد عني الغزاة الأتراك عقب الفتح مباشرة بتجريد مصر الإسلامية من ذخائرها النفيسة في الآثار والكتب ، وحمل كل ذلك إلى القسطنطينية ، وقد قبض الغزاة على العلماء الاعلام والزعماء وقادة الفكر وبعثوا بهم جميعاً إلى تركيا ، وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية الإسلامية ، وتضاءل شأن العلوم والفنون ، وانحط معيار الثقافة ، بعد أن كانت مصر موئل الثقافة ومحط العلماء بعد سقوط بغداد على أيدي المغول ، وانقضاء البقية الباقية من سلطان المسلمين في الأندلس . بعد أن وجد العلماء من الممالك ما أملوا ، ووجد الإسلام فيهم حماة يقفون له كما وقف الأيوبيون من قبل ، وكان ردهم للمغول في موقعة عين جالوت على يد قطز حدثاً تاريخياً حفظ الحضارة الإسلامية من معاول التتر ، ورفع شأن مصر ، وجعلها مهبط الثقافة الإسلامية ، والأمين على تراث الإسلام منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

وقد كان الفضل في ذلك للأزهر . فقد اتسع صدره للوارد من العلماء والطلاب في كافة البلاد ، وممكن لهم من الدراسة الهادئة والبحث المنظم بما أفاد الحضارة الإنسانية بأجزال الفوائد ، بما أخرجوا من فرائد الكتب في الفقه والحديث والتفسير واللغة .

وإذا كان الأزهر قد انطوى على نفسه في العصر التركي وذوت آثاره العلمية ، فقد استطاع بما له من نفوذ في نفوس العامة والخاصة أن يحمل العناصر الاستعمارية على احترام مكانته وعلى اللجوء إليه في الملمات ، وكان يتوسط فيما ينشب بينهم وبين المصريين من خلاف ، واستطاع الأزهر في هذه الحقبة المظلمة من تاريخه أن يحفظ اللغة العربية ، وأن يقاوم لغة الفاتحين ، وأن يبقى بابه مفتوحاً لطلاب

العلوم الإسلامية واللغة العربية مدى ثلاثة قرون ، حتى انزاح عن صدره الكبوس التركي ، وبدأ النور يبرز من جديد في أوائل القرن التاسع عشر يحمل في طياته الأمل . . . وقد تميز العصر التركي في مصر بفتور الهمم عن التأليف والتدوين ، وانصراف المؤرخين عن تناول الشؤون العامة والأمور النافعة إلى ملق الحكام والأكابر ، وتدوين سيرهم الشخصية . وأما العلماء فقد استكانوا إلى الراحة وظنوا أنه لا مطلق لهم في الاجتهاد ، فاقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس ، فجهلوا الحياة وجاهلهم الناس ، وجاهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث ، وما جد في الحياة من علم ، وما جد فيها من مذاهب وآراء ، فأعرض الناس عنهم ، ونقموا هم على الناس ، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له .

ولما فترت هممة المتأخرين من العلماء عن التأليف . عمدوا إلى مصنفات السلف الصالح رضوان الله عليهم وشرحوها ، ثم عمدوا إلى الشرح فشرحوها ، وسموا ذلك حاشية ، ثم عمدوا إلى الحواشي فشرحوها وسموا ذلك تقريراً ، فتحصل عندهم متن هو أصل المصنف ، وشرح ، وشرح شرح ، وشرح شرح الشرح ، وكانت النتيجة أن تطرق الإبهام إلى المعاني الأصلية ، واضطربت المباحث ، واختلت التراكيب ، وتعقدت العبارات ، واختفى مراد المصنف .

وورث الأثر من هذا التعقيد العناية بالمناقشة اللفظية ، وتتبع كلمات المؤلفين في المصنفات والشروح والحواشي والتقارير ، وتغلبت هذه العناية اللفظية على الروح العلمية الموضوعية ، وصرفت الذهن عن الفكرة الأصلية إلى ما يتصل بها من ألفاظ وعبارات .

واتجه العلماء إلى الاشتغال بالفروض والاحتمالات العقلية التي لا تقع وما يتصل بها من أحكام ، وعلى الأخص في العبادات والمعاملات ، وبدأوا يصنفون الرسائل في هذه الفروض والاحتمالات ، وبذلك انصرفوا عن تنمية الفقه العملي الذي يحتاج إليه الناس في معاملاتهم .

وانصرف الأثر في هذه الحقبة المظلمة عن دراسة العلوم الرياضية والعقلية ، ووجد فيه من ينادى بتحريمها ، وهكذا بدت بوادر الانحلال في الأثر ، وانقطعت صلته بماضيه الزاهر ، ووقفت حركة التفكير العلمي ، وكادت هذه المدرسة الإسلامية

الكبرى أن تفقد مميزاتها ، من حرية الفكر والانتاج الخصب ، لولا أن قيض الله لها مصلحين أخذوا بيدها ، وجنبوها عواقب هذه الآفات والعلل حتى تجمعت فيها ، وأثرت في مجرى حياتها .

لقد نفي العثمانيون العلماء المصريين إلى القسطنطينية (١) ؛ وانتزعوا الكتب من المساجد والمدارس والمجموعات الخاصة ليودعوها مكتبات العاصمة التركية . وما زالت منها إلى اليوم بقية كبيرة في مكتبات استانبول ، ومنها مؤلفات خطية لكثير من أعلام القرن التاسع الهجري المصريين مثل المقرئزي ، والسيوطي ، والسخاوي وابن إياس ، مما يندر وجوده بمصر صاحبة هذا التراث العلمي .

وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية في مصر عقب الفتح التركي ، كما انهارت عناصر القوة والحياة في المجتمع المصري ، وتضاءل شأن العلوم والآداب ، وانحط معيار الثقافة ، واختفى جيل العلماء الأعلام الذين حفلت بهم العصور السالفة ، ولم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة التي أظلتها دولة السلاطين المصرية سوى آثار دارسة ، يبدو شعاعها الضئيل من وقت إلى آخر .

وقد أصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور ، واختفى من حلقاته كثير من العلوم التي كانت زاهرة به من قبل ، حتى إن العلوم الرياضية . لم تكن تدرس به في أواخر القرن الثاني عشر ، وقد لاحظ ذلك الوزير أحمد باشا والي مصر سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) ، في نقاشه للشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر يومئذ وأنكره في حديث أورده الجبرتي (٢) ، مما يدل على ما آلت إليه أحوال الدراسة بالأزهر خلال العصر التركي من التأخر والركود .

على أن الجامع الأزهر - كما يقول عنان - قام عندئذ بأعظم وأسمى مهمة أتيج له أن يقوم بها . فقد استطاع خلال المحنة الشاملة أن يستبقى شيئاً من مكانته ، وأن يؤثر بماضيه التالد وهيبته القديمة في نفوس الغزاة أنفسهم ، فنجد الفاتح التركي يتبرك بالصلاة فيه غير مرة (٣) ، ونجد الغزاة يبتعدون عن كل مساس به ، ويحلونه مكاناً

(١) يعقد ابن إياس مؤرخ الفتح العثماني فصلاً خاصاً يذكر فيه أسماء مئات من الأكابر والعلماء المصريين الذين نفاهم السلطان سليم إلى قسطنطينية (بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٩ وما بعدها) .

(٢) عجائب الآثار ج ١ ص ١٩٣ .

(٣) راجع ابن إياس في بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٦ و ١٣٢ .

خاصاً ، ويحاولون استغلال نفوذ علمائه كلما حدث اضطراب أو ثورة داخلية . وفي خلال ذلك صار الأزهر ملاذاً أخيراً لعلوم الدين واللغة ، وغدا بنوع خاص معقلاً حصيناً للغة العربية ، يحتفظ في أروقته بكثير من قوتها وحيويتها ، ويدرأ عنها عادية التدهور النهائي ، ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها ، وردّها عن التغلغل في المجتمع المصري (١) .

وهكذا استطاع الأزهر في تلك الأحقاب المظلمة أن يسدى إلى اللغة العربية أجل الخدمات . وإذا كانت مصر قد لبثت خلال العصر التركي ملاذاً لطلاب العلوم الإسلامية واللغة العربية من سائر أنحاء العالم العربي والعالم الإسلامي ، فأكبر الفضل في ذلك عائد إلى الأزهر . وقد استطاعت مصر لحسن الطالع بفضل أزهرها أن تحمي هذا التراث نحو ثلاثة قرون ، حتى انقضى العصر التركي بمحنه وظلماته ، وقبض لها أن تبدأ منذ أوائل القرن التاسع عشر حياة جديدة يمازجها النور والأمل . وربما كانت هذه المهمة السامية التي ألقى القدر زمامها إلى الجامع الأزهر في تلك الأوقات العصيبة من حياة الأمة المصرية ، والعالم الإسلامي بأسره ، هي أعظم ما أدى الأزهر من رسالته ، وأعظم ما وفق لاسدائه لعلوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل .

(١) كان بين الاساتذة الذين تولوا التدريس بالجامع الأزهر في أوائل العصر العثماني : نور الدين علي البحيري الشافعي المتوفى سنة ٩٤٤ هـ ، والعلامة شهاب الدين ابن عبد الحق السنباطي المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، وعبد الرحمن المناوي المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، وشمس الدين الشيشيني القاهري الشافعي ، والامام شمس الدين أبو عبد الله العلقمي المتوفى سنة ٩٦٢ هـ ، والامام شمس الدين الصفدي المقدسي الشافعي المتوفى في حدود التسعين وتسعمائة (راجع في تراجم هؤلاء العلماء ، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة - مخطوط بدار الكتب) .

وكان منهم في أواسط العصر العثماني : عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المالكي المتوفى سنة ١٠٩٩ هـ ، والعلامة شاهين بن منصور بن عامر الأرمناوي المتوفى سنة ١١٠١ هـ ، والعلامة شمس الدين محمد بن محمد الشهير بالشرنباي المتوفى سنة ١١٠٢ هـ . والامام العلامة إبراهيم بن محمد شهاب الدين البرماوي المتوفى سنة ١١٠٦ هـ والشيخ حسن بن علي بن محمد الجبرتي جد والد الجبرتي المؤرخ ، وقد توفى سنة ١١١٦ هـ ، والعلامة عبد الحى بن عبد الحق الشرنباي المتوفى سنة ١١١٧ هـ (راجع في تراجم هؤلاء العلماء عجائب الآثار للجبرتي ، الجزء الأول) .

نصيب الأزهر من التعمير في هذا العصر :

في عام ١٠٠٤ هـ أيام ولاية الشريف محمد باشا على عمر الأزهر ، وجدد ماخرب منه ، ورتب فيه غذاء للفقراء .

وفي عام ١٠١٤ عمر الوزير حسن والى مصر مقام السادة الحنفية أحسن عمارة وبلطه بالبلاط الجديد ، وقد تولى ولاية مصر من عام ١٠١٤ - ١٠١٦ هـ

وجدد اسماعيل بن إيواظ سقف الجامع الأزهر الذى كان آيلا للسقوط ، وقد مات اسماعيل عام ١١٣٦ هـ ومن آثاره إنشاء مسجد سيدى إبراهيم الدسوقي ومسجد سيدى على المليجى

وأنشأ الأمير عبد الرحمن كتحدا مقصورة في الأزهر مقدار النصف طولاً وعرضاً يشتمل على خمسين عموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت وسقف أعلاها بالخشب النقى ، وبني به محراباً جديداً ، وأنشأ به منبراً وأنشأ له باباً عظيماً جهة حارة كتامة المعروفة بالدودارى وهو المشهور اليوم بباب الصعايدة وبني بأعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن الشريف وجعله بداخله رحبة متسعة وصهريجاً عظيماً وسقاية للشرب ، وعمل لنفسه مدفنًا بتلك الرحبة وجعل عليه قبة معقودة وتركيبية من رخام بديعة الصنعة منقوش عليها أسماء العشرة المبشرين بالجنة وكتابات أخرى . . .
وقد توفى الأمير عبد الرحمن كتحدا (١) عام ١١٩٠ هـ (٢)

وبنى أمام المدفن المذكور رواقاً مخصوصاً بمجاورى الصعايدة المنقطعين لطلب العلم الشريف بالأزهر ، وبه مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب وبني بجانب ذلك الباب منارة ، وأنشأ باباً آخر جهة مطبخ الجامع وهو المشهور بباب الشوربة ، وجعل أيضاً عليه منارة ، وأنشأ الطيرسية إنشاءً جديداً ، وأنشأ الباب الكبير المعروف اليوم بباب المزينين ، وجعل أيضاً على يمينه منارة ، وجعل فوقه مكتباً وبداخله على يمين الداخل ميضأة ، وأنشأ لها ساقية ، وصار الآن محل

(١) ٥ - ٨ ج ٢ الجبرتي .

(٢) وتوفى الأمير حسن بك رضوان عام ١١٩٢ وكان شاعر مجيداً (٣٨ - ٥٠ ج ٢ الجبرتي) وكان الشيخ محمد الهلباوى الشهير بالدمهورى شاعر الأمير على بك وكاتبه وتوفى عام ١١٩٣ هـ (٥٤ - ٥٦ ج ٢ المرجع)

(٦ - الأزهر)

المبينة حجرة مكتبة إدارة الأزهر ، وقد جاء هذا الباب الكبير ومباذله من
الطبرسية والاقبغاوية من أحسن المباني في العظم والوجاهة والفخامة وأرخ بعضهم
ذلك بهذه الآيات :

تبارك الله باب الأزهر انفتحا وعاد أحسن مما كان وانصلحا
تقر عيناً إذا شاهدت بهجته باخلاص بان له للعلم والصلحا
وادخل على أدب تلقى الهداة به قد قرروا حكماً يزدانها رجحا
باباً قد بدأ الا كوان أرخه بعبد رحمن باب الأزهر انفتحا

وجدد رواقا للساويين والتكرورين وزاد في مرتبات الجامع ، ورتب لمطبخه
في خصوص أيام رمضان في كل يوم خمسة أرادب أرزا أبيض وقنطارا من السممن
ولحوما وغير ذلك من المرتبات والزيت والوقود للمطبخ ، وزاد في طعام
المجاورين .

ولما مات هذا الأمير عام ١١٩٠ هـ صلى عليه في الأزهر ، ودفن في مدفنه الذي
أعده لنفسه فيه .

وقد حدثت في الأزهر في هذا العهد عدة حوادث مختلفة .. فلما توفي ثاني شيخ للأزهر
وهو الشيخ النشقي وقعت فتنة بالأزهر عام ١١٢٠ هـ بسبب المشيخة والتدريس
بالاقبغاوية وافترق المجاورون فرقتين فرقة تريد الشيخ أحمد النفراوى والأخرى
تريد الشيخ عبد الباقي القليني ولم يكن حاضراً بمصر ، فتعصب له جماعة النشقي ،
وارسلوا يستعجلونه للحضور فقبل حضوره تصدر الشيخ النفراوى وحضر للتدريس
بالاقبغاوية فتمعه القاطنون بها وحضر القليني فانضم اليه جماعة النشقي وتعصبوا له
فحضر جماعة النفراوى إلى الجامع ليلا ومعهم بنادق وأسلحة وضربوا بالبنادق في
الجامع وأخرجوا جماعة القليني وكسروا باب الاقبغاوية وأجلسوا النفراوى مكان
النشقي ، فاجتمعت جماعة القليني في يومها بعد العصر وكبسوا الجامع واقفلوا
أبوابه وتضاربوا مع جماعة النفراوى فقتلوا منهم نحو العشرة وجرح بينهم جرحى
كثيرون وانتهت الخزائن وكسرت القناديل وحضر الوالى فأخرج القتلى وتفرق
المجاورون ولم يبق بالجامع أحد ولم يصل فيه ذلك اليوم وأمر النفراوى بلزوم بيته
واستقر القليني مكانه .

ولما قربت وفاة شيخ الاسلام الشيخ الدمنهورى الشيخ التاسع للأزهر رغب
الشيخ العريشى الحنفى في المشيخة اذ هى أعظم مناصب العلماء فحضر إلى الجامع مع

إبراهيم بك وجمع الفقهاء والمشايخ وعرفهم أن الشيخ الدهموري أقامه وكيلا وبعد أيام توفي الشيخ الدهموري فتعين هو للشيخة بتلك الطريقة وساعده الأُمراء وكبراء الأَشْيَاح وأبو الأنور السادات وكاد أمره يتم ، ومنع من ذلك اجتماع بعض الشافعية وذهابهم إلى الشيخ أحمد الجوهري حيث ساروا إلى بيت البكري وجمعوا عليهم جملة من أكابر الشافعية مثل الشيخ أحمد العروسي والشيخ أحمد السنودي والشيخ حسن الكفراوي ، وكتبوا طلبا للأُمراء مضمونه أن مشيخة الأزهر من مناصب الشافعية وليس للحنفية فيها قديم عهد وخصوصا إذا كان آفقا كالشيخ عبد الرحمن العريشي وفي العلماء للشافعية من هو أهل لذلك علما ومنا وانهم اتفقوا على أن يكون المتعين لذلك الشيخ أحمد العروسي ، وخطبوا جميعا على الطلب وأرسلوه إلى إبراهيم بك ومراد بك فتوقف الأُمراء وشددوا في عدم النقض ورد الطلب للمشايخ فقاموا على ساق ، وشدد الشيخ الجوهري في ذلك وركبوا بأجمعهم إلى جامع الإمام الشافعي وباتوا به ليلة الجمعة ، فهرعت الناس ينظرون فيما يؤول إليه هذا الأمر وكان للأُمراء اعتقاد في الشيخ الجوهري ، فسعى أكثرهم في انفاذ غرضه وخافوا العطب أو ثوران فتنة وحضر مراد بك للزيارة ، فكلمه الشيخ الجوهري وقال له لا بد من فروة تلبسها للشيخ العروسي ويكون شيخا على الشافعية وذلك شيخ على الحنيفية كما أن الشيخ الدرديري شيخ المالكية والبلد بلد الإمام الشافعي وقد جئنا إليه وهو يأمر بك بذلك فان خالفت يخشى عليك فاحضر فروة وألبسها للشيخ العروسي وذهب العروسي إلى بيته وأخذ شأنه في الظهور واحتد العريشي لذلك وذهب إلى السادات والأُمراء فآلبسوه فروة وتفاقم الأمر وصاروا حزينين ، وتعصب للعريشي طائفة الشوام والمغاربة ومنعوا الطائفة الأخرى من دخول الجامع واستمر الأمر نحو سبعة أشهر إلى وقوع حادثة بين الشوام والأتراك واحتد الأُمراء للجنسية وكدوا في طلب الفصل في الأمر وتصدى العريشي للذب عن الشوام ، فانطلقت عليه الألسن وانحرف عليه الأُمراء وطلبوه فاقتنى فمزله عن الافتاء وحضر الأغا وصحبته العروسي للقبض على الشوام ففروا فاغلقوا رواقهم وسمروه أياما ، ثم اصطالحوا وثبتت مشيخة العروسي وأمر العريشي بلزوم بيته فاقتلى بنفسه للعبادة ومرض من الحزن وتوفي سنة ١١٩٣ هـ رحمه الله الجميع ...

وفي غرة رمضان سنة ١١٩٩ ثار فقراء المجاورين والقاطنون بالأزهر وأقفلوا أبوابه ومنعوا منه الصلوات وكان ذلك يوم جمعة فلم يصل فيه ذلك اليوم وكذلك اغلقوا المسجد الحسيني وخرج العميان والمجاورون يسرون في الأسواق ويخطفون ما يجدونه

من الخبز وغيره ، وسبب ذلك قطع روايتهم واخبارهم المعتادة ، واستمروا على ذلك حتى حضر سليم أغا بعد العشاء في المدرسة الأشرفية وأرسل إلى مشايخ الأروقة وتكلم معهم والتزم لهم بإجراء روايتهم ... وفي سنة ١٢٠٠ هـ قطعت أخبارهم ومرتباتهم وفعلوا مثل ذلك وحضر اليهم سليم أغا مثل الأول والتزم ولم يوف ، فضجت المجاورون فوق المنارات فحضر ونجز لهم بعض المرتبات مدة ، ثم انقطع ثم التزم وتكرر الغلق والفتح مرارا عديدة مع منع المرتبات واجرائها

وفي أول جمعة من جمادى الأولى سنة ١٢٠٠ هـ تار جماعة من أهالي الحسينية بسبب ما حصل من حسين بك بشفت فانه تسلط على هجوم البيوت فركب بجنده إلى الحسينية وهجم على دار أحمد سالم الجزار المتولى رياسة دراويش الشيخ البيومي ونهبه حتى حلّى النساء والفرش ، فحضر أهل الحسينية إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول وانضم اليهم كثير من العامة وبأيديهم نبايت ومساوق ، وذهبوا إلى الشيخ الدردير فسأعدهم بالكلام ، وقال لهم انا معكم فخرجوا من نواحي الجامع وأقفلوا أبوابه وصعد منهم طائفة على المنارات يصيحون ويدقون بالطبول وانتشروا بالأسواق في حالة منكرة واغلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير : في غد نجمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ونركب معهم ونهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، فلما كان بعد المغرب حضر سليم أغا ومحمد كتخدا الجاني كتخدا إبراهيم بك وجلسوا في الغورية ، ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وتكلموا معه وخافوا من تضاعف الحال وقالوا اكتبوا لنا قائمة بالمنهوبات ونأتى بها من محل ما تكون وقرءوا الفاتحة على ذلك وانصرفوا ، وركب الشيخ إلى إبراهيم بك وأرسل إلى حسين بك واحضره وكله في ذلك فقال : كلنا نهابون أنت نهب ومراد بك ينهب وأنا أنهب ثم انفض المجلس وهدأت القضية .

وبعد حادثة أهل الحسينية السابقة بأيام قليلة تعصب مجاورو الصعايدة في الأزهر وأبطلوا دروس المدرسين به بسبب نهب سليمان بك الأغا سفينة لهم فيها تمر وسمن مدعيا أنه لا مال متأخرا عند أولاد وافي في الصعيد وان ذلك ما لهم ، وليس كذلك بل هو مال مجاورى الصعايدة ، فركب الشيخ الدردير والشيخ العروسي والشيخ المصيلحي وآخرون إلى إبراهيم بك وتكلموا معه بحضرة سليمان بك كلاما كثيرا مفحما ، فرد سليمان بك بعض ما أخذه .

وقد حدثت حوادث حصلت أيام مشيخة الشيخ الشوقوى ، منها ان طائفة

المجاورين بالازهر من الشرقاويين كانوا قاطنين بالطيرسية وكانت لهم خزائن برواق معمور فوق بيوتهم وبين أهل الطيرسية مشاجرة وضربوا نقيب الرواق ومنعهم شيخ الطيرسية منها وكان ذلك سببا لبناء رواق الشراقوه .

ومنها في سنة ١٢٠٩ هـ حضر أهل قرية بشرقية بلبليس ، وذكروا ان اتباع محمد بك الالفي ظلموهم وطلبوا منهم مالا لاقدرة لهم عليه ، فاغتاظ الشيخ الشرقاوي من ذلك وحضر إلى الازهر وجمع المشايخ ووقفوا أبواب الجامع وذلك بعد أن خاطب مراد بك وإبراهيم بك ولم يبدوا شيئا ، وأمر الشيخ الناس بغلق الاسواق والخوانيت ثم ركبوا ثاني يوم إلى بيت السادات وتبعهم كثير من العامة وازدحموا امام الباب والبركة ، بحيث يراهم إبراهيم بك ، فأرسل لهم أيوب بيك الدفتردار فوقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا نريد العدل وأبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعوها ، فقال لا يمكن الاجابة إلى هذا كله فانا ان فعلنا ذلك لضافت علينا المعاش ، فقالوا ليس هذا بعذر عند الله وما الباعث على الاكثار من النفقات والماليك والامير يكون أميرا بالاعطاء لا بالأخذ ، فقال حتى أبلغ وانصرف وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الازهر ، واجتمع أهل الاطراف وباتوا به ، فبعث مراد بيك يقول أجيبكم إلى جميع ما ذكرتموه إلا شيئين : ديوان بولاق وطلبكم المتأخر من الجامكية ، ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم باسمائهم فذهبوا اليه بالجيزة فلافهم واتمس منهم السعي في الصلح ، وفي اليوم الثالث اجتمع الأمراء والمشايخ في بيت إبراهيم بك وفيهم الشيخ الشرقاوي وانهقد الصلح على رفع المظالم ماعدا ديوان بولاق وان يكفوا أتباعهم عن مد أيديهم إلى أموال الناس ويسيروا في الناس سيرة حسنة ، وكتب القاضي حجة بذلك ووقع عليها الباشا والأمراء وانجلت الفتنة ، وفرح الناس نحو شهر ، ثم عاد الحال إلى أصله .

ويذكر ابن إياس أن السلطان سليم شاه العثماني دخل الجامع الازهر يوم الجمعة سنة ٩٢٣ هـ فصلى به الجمعة وتصدق هناك بمبلغ كبير .. وزار الازهر الشريف السلطان الأعظم عبد العزيز خان ، وقد حظى بكثير من خيرات ملوك آل عثمان .

← الازهر والحركة العلمية في هذا العهد :

نبغ من هذا العصر عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء ، منهم : الشهاب الخفاجي المتوفى ١٠٦٩ هـ ، والبديعي المتوفى عام ١٠٧٣ هـ ، وعبد القادر البغدادى المتوفى عام ١٠٩٣ هـ صاحب خزانة الأدب ، والسيد مرتضى الزبيدي (١١٤٥ هـ)

١٢٠٥ هـ) مؤلف تاج العروس ، والصبيان المتوفى عام ١٢٠٦ هـ ،
ومنهم المحي (١٠٦١ - ١١١١ هـ) مؤلف خلاصة الأثر في أعيان القرن
الحادى عشر ، والشعرانى المتصوف المتوفى عام ٩٧٣ هـ ، وعبد الله الشبراوى المتوفى
عام ١١٧٢ هـ ، وسواهم .

وهؤلاء كانوا من غير شك بمن أفادوا من الأزهر ، وتأثروا به
وفى هذا العهد استمر الأزهر مدى القرون الثلاثة التى حكم العثمانيون فيها مصر ،
بجاهد لحفظ البقية الباقية من اللغة العربية والعلوم القرآنية التى أصبحت فى حال ذبول
أو شبه جفاف ، وكان له الفضل على كل حال فى الإبقاء على حشاشة هذا التراث
الإسلامى ، لقد صار الأزهر أشهر الجوامع فى التدريس على الإطلاق . وقصده
طلاب العلم من كل ناحية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار . ولكل طائفة منهم
رواق باسمهم كرواق الشوام أو المغاربة أو العجم ، أو الزيالة ، أو اليمينية أو
الهندية ، فضلا عن أروقة الصعيد .

وبلغ عدد تلاميذ الأزهر فى أوائل القرن التاسع للهجرة - أى نحو عام ٨١٨ هـ -
٧٥٠ طالبا من طوائف مختلفة ، وكانوا مقيمين فى الجامع ومعهم صناديقهم وخزائهم
يتعلمون فيه فى الفقه والحديث والنحو والمنطق ، وزادوا فى عصر العثمانيين على ذلك
زيادة كبيرة .

وفى كتاب التعليم العام فى مصر ما يفيد أن العلوم التى كانت تدرس غالباً بالأزهر
حتى منتصف القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) هى الآداب
والفقه التوحيد .

وكانت تدرس أحيانا بصفة استثنائية علوم الفلك ، والعلوم الرياضية ، والعلوم
الطبيعية ، والتجريبية ، إجمالا

واشتدت المنافسة الفكرية التى كانت بين المذاهب فى الأزهر ، والتى أدت إلى ظهور
المذاهب الشافعى على سائر المذاهب ، حيث ترى منذ هذا الوقت المذاهب كلها تدرس
سويا بالأزهر ، إلا أن المشيخة كانت فى الغالب للشافعيين . والمنافسة كما يدلنا التاريخ
كانت شديدة على هذا المنصب ، وكانت فى أكثر الأوقات تدور بين المذهبين الشافعى
والحنفى ، والمذهب الحنفى كان غالباً مذهب الأمراء والولاة من الأكراد والمماليك
والأتراك . ولازلنا الآن نجد المذهب الحنفى فى صف السلطة القضائية فى هيئة الحكم ،

فعلية تسير المحاكم الشرعية في قضائها . ويرى الأستاذ « فولر » ، أن وجود حدث الإمام الشافعي الطاهر في مسجده المنيف ، وكذلك سلطانه الروحي في نفوس الاهالي ، مما ساعدا على كثرة اتباعه . وقد يكون هذا صحيحا ، والواقع أن مرجع هذه المنافسة يعود إلى خلاف في طبيعة المذهبين .

ومهما يكن من أمر فالأزهر في كل عصوره حتى حكم محمد علي كان مركز التعليم الذي تدور حوله الحركة العلمية في البلاد ، ولهذا المركز الممتاز أدت هذه الجامعة خدمتين من أجل الخدمات التي لهذا أثرها الواضح في حياة مصر الاجتماعية والسياسية عامة : الأولى عمله على نشر اللغة العربية وتوطيدها بالبلاد المصرية ، وشد أزرها ضد اللغة القومية التي غزاها الاسلام بلغته العربية العريقة . والثانية دعم أسس الديانة الاسلامية ووقوفها تسند الاسلام بكل ما نبعث فيها من المجهودات العقلية والروحية .

والخطة التي انتهجها الأزهر تتلخص في أنه بعد زوال الدولة الفاطمية وعمل صلاح الدين على إبادة آثارها ، أدخلت المذاهب الأربعة في الأزهر وصارت سواسية في التدريس فيه ، وكان لكل مذهب شيخ ، وله مطلق السلطة على الأساتذة والطلاب الذين ينضمون تحت لواء مذهبه

وكان من آثار الأزهر فوق هذا أن جعل لمصر مكانة ممتازة وسلطانا أدبيا على شعوب الشرق ، وأصبحت البلاد الشرقية تنظر إلى مصر نظرة الحائر إلى الهادي المرشد . وتعترف لها بالفضل والعلم .

وكان التعليم فيه على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى يبدأ التليذ فيها بتعلم الهجاء والقراءة والكتابة ويحفظ ما تيسر من القرآن عن ظهر قلب ليكون هذا الجزء المادة التي يستطيع أن يطبق التليذ فيها عمليا مأخذ من المعلومات النظرية في تعلمه قواعد الهجاء والكتابة ، فيطالب التليذ بكتابة هذا الجزء وقراءته ، ثم ينتقل من هذا الجزء إلى غيره كتابة وقراءة وحفظا حتى يتم القرآن وهذه أول مراحل التعليم ، ويكون التليذ فيها قد تعلم القراءة والكتابة وتستغرق هذه المرحلة من سنتين إلى ثلاث ثم ينتقل إلى المرحلة الثانية ويظل تحت إشراف أستاذه ، يعطيه دروسا في القراءة والكتابة ، وموضوعات انشائية سهلة تتدرج فيها من السهولة إلى الصعوبة ، متمشيا في ذلك مع النمو العقلي للتليذ ، ويكون التليذ في هذه السن على أبواب دور المراهقة وكل ما استفاده من هذه البرامج تحصيله للقرآن الشريف ، فالتليذ يستطيع أن

يستغل ما حفظه منه في تعمير حياته الروحية ، وتلاوته تكون سلواه وأنيسه ، ويتخير من الآيات ما يتفق ونفسه فيستعملها في دعائه وعبادته وصلاته كل يوم ، وتكون قواه العقلية بهذا التمرين قد نشطت بوجه ما ، ويكون لسانه قد تقوم واكتسب اللهجة العربية الفصحى . . وأظهر ما يبدو في هذا الأسلوب التعليمي أنه لا يبدأ بتعليم القواعد والتعاريف والسكليات في اللغة إلا بعد أن يكون التلميذ قد تذوق هذه اللغة بنفسه ، وتكونت في عقله ملكة وذوق .

وأغلب المتعلمين كانوا يقفون عند هذا الحد ، ويتخرجون في سن الثانية عشرة ، وبعضهم كان يخطو إلى المرحلة الثالثة ، يدرسون فيها علوم الدين من فقه وحديث وتوحيد الخ ، وفي الأحوال الاستثنائية كان بعض الأفراد يدرسون العلوم الطبيعية والرياضية .

والمتخرج ما كان يحصل على شهادة يعترف بها رسمياً ، وإنما كان يعتمد على مجهوده الشخصي وشهرته وكفاءته في الزام الناس بالاعتراف بوجوده ومنزلته ، وكان لا يتصدر للتدريس إلا من مارس الفنون المتداولة بالأزهر ، وتلقاها من أفواه المشايخ ، وصار متأهلاً للتصدر ، حلالاً للشكليات ومعضلات المسائل ، فلا يحتاج لاستئذان إلا على جهة الأدب والبركة ، وإنما يعلم بعض المشايخ والطلبة فيحضرون درسه ، ويتراكمون عليه ، وهو يتأق في الابتداء ويتهاك في طريق الأغراب والتوغل وقد يتعصب عليه بعض الحاضرين ويتعننت ، والبعض الآخر ينتصر له ، وإذا تلعم في إجابته لسائل ربما أقاموه ومنعوه من التصدر ، وإذا عاند ربما ضربوه .

ولم يكن للأزهر شيخ منذ أن أنشئ إلى القرن العاشر ، وإنما كان يتولاه الملوك والأمراء الذين كانوا يهتمون بشأنه ويكرمونه أهله ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى جعل للأزهر شيخاً ، وبما يحمل ذكره أن شيخ الأزهر كان بمثابة شيخ الاسلام في دار الخلافة ، فكان يقوم بشئون الأزهر ويرعى أمور أهله ويفصل في قضاياهم ويضبط مرتباتهم ، ويمثلهم لدى الحكومة ، ومنوط به إقامة شعائر الدين في أنحاء القطر قاطبة .

وأول من تولى المشيخة - كما قاله الجبرتي - هو الامام محمد بن عبد الله الخرشى المالكي ، وقد توفي سنة ١١٠١ هـ ، وتولى بعده الشيخ محمد النشردى وتوفي سنة ١١٢٠ هـ ، وجاء بعده الشيخ عبد الباقي المالكي القليني ، فلحقات تقلد بعده الشيخ محمد شبن المالكي المتوفى سنة ١١٣٣ هـ ، ثم تولى بعده الشيخ ابراهيم ابن موسى

القيومي المالكي المتوفى سنة ١١٣٧ هـ ، ثم تولى بعده الشيخ ابراهيم الشبراوى الشافعى وتوفى سنة ١١٧١ هـ ، فتولى المشيخة بعده الشيخ الحنفى المتوفى سنة ١١٨١ هـ ، ثم تولى المشيخة بعده الشيخ عبدالرؤوف السجيني وتوفى سنة ١١٨٢ هـ ، ثم تولى بعده الشيخ أحمد الدمنهورى المذاهبى وتوفى بمنزله ببولاق سنة ١١٩٢ هـ ، وبعد وفاته حصل نزاع فى تولى المشيخة بين الشيخين عبد الرحمن بن عمر العريشى الحنفى وأحمد العروسى الشافعى مدة سبعة أشهر ، ثم آلت إلى الثانى وتوفى سنة ١٢٠٨ هـ ، فانتقلت المشيخة إلى الشيخ عبد الله الشهير بالشرقاوى وهو الذى أنشأ رواق الشارقة ، وقد دخل الفرنسيون مصر فى أيامه وانتخبوه عضوا فى الديوانين : العمومى والخصوصى .

الازهر وتاريخنا القومى :

قاد الازهر ثورتين هامتين تعتبران من أسبق الثورات الدستورية العالمية ، إحداهما كانت بقيادة أكبر علماء ذلك العصر وهو الامام أحمد الدردير ، والاخرى بقيادة شيخ الازهر فى ذلك الوقت الشيخ عبد الله الشرقاوى رحمهما الله تعالى .

← فالثورة الاولى سبقت لإشارة لها وخلاصتها أنه فى يوم من أيام ربيع الاول عام ١٢٠٠ هـ (يناير عام ١٧٨٦ م) نهب حسين بك شفت وجنوده داراً لشخص يدعى أحمد سالم الجزار بالحسينية چهار أنهار اظلماً وعدواناً . فثارت ثائرة الأهالى ، وتشاوروا فيما يجب عليهم أن يفعلوه وانفقوا أخيراً على الالتجاء إلى أقوى العلماء شخصية وأوسعهم نفوذاً ، وهو الامام الدردير ، فاجتمع الأهالى فى اليوم التالى للحادث ويمموا شطر الجامع الازهر وقصدوا الشيخ وأخبروه بالواقعة ، فغضب الشيخ لاستهتار الامراء وتعسفهم ونادى فى الجماهير غير هباب ولا وجل : أنا معكم ، وغدا نجتمع أهالى الاطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم ونهيب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، وأمر الشيخ بدق الطبول على المنارات إيداناً بالاستعداد للقتال ، وترامت الاخبار بين الأهالى ، فأسرعوا نحو الازهر للاشتراك فى المعركة ، وكانت أخبار الجماهير الهائجة قد وصلت إلى ابراهيم بك ، وبلغه تصميم الامام الدردير على قيادة الشعب ضد الامراء ، وكان يعلم مقدار مال الشيخ من نفوذ ومكانة على الأهالى ، فخشى أن يستفحل الامر ويؤدى إلى ضياع سلطته فى مصر ، فأرسل نائبه ومعه أحد الامراء إلى الامام الدردير واعتذر له عما حدث ، ووعد بأن يكف أيدي الامراء عن الناس . كما قرر توبيخ حسن بك شفت على صنيعه وطلب قائمة بجميع ما نهبه ليامره

برد ذلك إلى صاحبه ، وهكذا وضع هذا الامام قاعدة دستورية هامة وهي احترام الحاكم لارادة المحكومين (١)

والثورة الثانية (٢) تتلخص كما تقدم في أنه في شهر ذي الحجة عام (١٢٠٩ هـ - ١٧٩٥ م) اشتكى فلاحو قرية من قرى بلييس إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى من ظلم محمد بك الالانى ورجاله ، فبلغ الشيخ الشرقاوى الشكوى إلى كل من مراد وإبراهيم بك ، وخطبهما في كنف أذى محمد بك الالانى عن الفلاحين فلم يفعلوا شيئا . فما كان من الشيخ الشرقاوى رحمه الله تعالى إلا أن عقد اجتماعا في الازهر حضره العلماء وتشاوروا في الامر فاستقر رأيهم على مقاومة الامراء بالقوة حتى يجيبوا مطالبهم ، وقرروا إغلاق أبواب الجامع الازهر ، وأمروا الناس بخلق الاسواق والحوانيت استعدادا للقتال .

وفي اليوم التالى : ركب الشيخ الشرقاوى ومعه العلماء وتبعهم الجماهير وسار الجميع إلى منزل الشيخ السادات يستشيرونه في بدء المعركة ، وكان قصر إبراهيم بك قريبا من قصر الشيخ السادات ، فراحه احتشاد الجماهير هناك ، وعلم باجتماع العلماء عند الشيخ السادات ، فبادر بإرسال أيوب بك الدفتدار ليسأل عن مرادهم . فقالوا له : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها .

فأجابهم قائلا : لا يمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش والنفقات . فقالوا له : هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء الممالك ، والامير يكون أميرا بالاعطاء لا بالالاخذ !

فقال لهم : حتى أبلغ وانصرف ولم يعد لهم بجواب .

صمم العلماء في هذا المجلس على أن يخوضوا المعركة مع الامراء ، فإما أن يستشهدوا أو ينالوا حقوق الشعب كاملة . وأعلنوا أهالى القاهرة بعزمهم ، فتقاطرت الجماهير صوب الازهر وباتوا هم والعلماء داخل المسجد وجوله .

هال إبراهيم بك ما بلغه من احتشاد الشعب ومرابطته مع العلماء استعدادا للقتال . فأرسل إلى العلماء يعتذر إليهم ويبرئ نفسه ملقيا التبعة على شريكه في الحكم مراد

(١) مجلة الازهر عدد شوال ١٣٧٢ الاستاذ احمد عز الدين خلف الله - والجبرتي طبعة بولاق ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٢٥٨ ، والاستاذ خلف الله في مجلة الازهر

ARABIAN UNIVERSITY IN CAIRO

بك ، بل ذهب إلى أبعد من هذا إذ يقول : أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطري ومرادى ، وأرسل مراد بك يستحثه لعمل شيء ويخيفه عاقبة الثورة التي توشك أن تنفجر :

وفي اليوم الثالث للثورة توجه والى مصر إلى منزل إبراهيم بك واجتمع مع أمراء الماليك وقرروا إيجاد حل سريع حاسم قبل أن يفلت الزمام فتشتعل الثورة ، وأرسلوا إلى العلماء ليحضروا الاجتماع ، فحضر الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير وطال الحديث بينهم ، وكان مداره حول حقوق الشعب ، ولم يستطع إبراهيم بك ولا مراد بك ولا الأمراء المكابرة فى هذه المرة ، فقد كانت القاهرة تغلى كالمزجل وكانت أشبه ببركان يوشك أن يثور ، وكان الشعب المتكئ فى الخارج يلوح مهددا متوعدا ، وانتهى هذا المجلس التاريخى بموافقة الأمراء والوالى على القرارات الآتية :

أولا : لا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الشعب .

ثانيا : أن ينزل الأحكام على مقتضى أحكام المحاكم .

ثالثا : ألا تمتد يد ذى سلطان إلى فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع .

وكان القاضى الشرعى حاضرا خروا (حجة) تضمنت هذه القرارات وقع عليها والى ، وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك ختم عليها أيضا وانحلت الأئمة . ورجع العلماء يحيط بكل منهم موكب من الأئمة والى وهم ينادون : حسب مرسوم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية ولو تأملنا فى هذا النص الذى ساقه مؤرخ مصر الجبرتي ودققنا النظر فى قوله وحسب مارسمة ساداتنا العلماء ، لوجدنا أن هذه العبارة الظاهرة تحمل مبدأ دستوريا هائلا : وهو أن الأمة مصدر السلطات .

وقد توافق رأى أكثر المؤرخين الفرنجة على أن هذه الحجة بمثابة وثيقة إعلان حقوق الإنسان ، سبقت بها مصر غيرها .

وقد طبق وكلاء الشعب ويمثلهم العلماء والأعيان هذا المبدأ - مبدأ الأمة مصدر السلطات - على والى مصر خورشيد باشا ، حين عجز عن ضبط الأمن فى البلاد ، إذ عقدوا مؤتمرا وطنيا يوم ١٣ صفر عام ١٢٢٠ هـ ، وقرروا عزل والى . ولما رفض الإذعان لهذا القرار قام العلماء والأعيان والشعب بتنفيذ قرار الأمة بالقوة

الأمة مصدر السلطات

ودارت رحا الحرب بينهم وبين الوالى ، وكانت الاوامر خلال المعركة تصدر باسم السيد عمر مكرم والعلماء بصفقتهم وكلاء الامة ، وأجبروه أخيراً على الاذعان لقرار الامة فى ٢٩ جمادى الاولى عام ١٢٢٠ هـ .

هذا وقد سجل التاريخ للعلماء السابقين مواقف مجيدة فى الدفاع عن حقوق الشعب نذكر منهم الامام شمس الدين محمد الحنفى المتوفى عام ٨٤٧ هـ ، والشيخ شمس الدين الديروطى الواعظ بالازهر الشريف والمتوفى عام ٩٢١ هـ ، وشيخ الاسلام الامام محمد بن سالم الحنفى المتوفى عام ١١٨١ هـ .

الفصل الثامن

الازهر بعد الحكم العثمانى

الازهر والغزو الفرنسى لمصر :

بعد دخول نابليون بونابرت القاهرة جمع العلماء وطلب اليهم اختيار عشرة مشايخ لتأليف ديوان منهم ، فوقع اختيارهم على هؤلاء المشايخ العشرة : عبد الله الشرقاوى ، خليل البكرى ، مصطفى الصاوى ، سليمان الفيومى ، محمد المهدي الكبير ، موسى السرسى ، مصطفى الدمنهورى ، أحمد العريشى ، يوسف الشبراخيتى ، محمد الدواخلى ، ثم اختار هؤلاء رئيساً لهم الشيخ الشرقاوى ، واحتفل بونابرت بافتتاح الديوان وأكرم أعضائه ، وأمر المصورين بأخذ صورة كل منهم على حدة . وهذه الصور ما تزال محفوظة فى معرض فرساي ، وهو أول ديوان وطنى ، ويعتبر فاتحة السلطة النيابية الانتخابية .

وفى ثورة القاهرة على الفرنسيين ضرب الازهر بالمدافع ، وتتابع الرمى من القلعة وتلال البرقية حتى تزعزت الأركان وهدمت حيطان الدور ، فركب المشايخ إلى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ويكف عسكره عن الرمى ، فعاتبهم فى التقصير فاعتذروا اليه ، فقبل عذرهم ورفع عنهم الرمى وقاموا من عنده ينادون بالأمان فى المسالك والطرق .

وبعد الحادثة السابقة ثارت فتنة بين أهل الحسينية والعطوف وبين الأفرنج وتراموا ، ولم يزل الرمى بين الطائفتين حتى فرغ من الطائفة الأولى البارود ، فأخذهم الفرنج بالرمى المتتابع ، وبعد هجعة من الليل دخل الفرنج المدينة ومروا

في الأزقة والشوارع وهدموا ما وجدوا من المتاريس وانتشروا في الطرقات وتراسلوا رجالا وركبانا . ثم دخلوا الجامع الأزهر راكبين على خيولهم وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبيلته وعاثوا بالأروقة وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا أمعتهم ودثوا الكتب والمصاحف وطرحوها على الأرض وداسوها بأرجلهم ونعالهم ، وبالوا عليها وتفوطوا فيه ، وجردوا كل من وجدوه به وأخرجوهم وأصبحوا مصطفين بباب الجامع ، وكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعا ، ونهبوا بعض الدور التي بالقرب من الجامع ، وخرج سكان تلك الجهة يهرعون للنجاة بأنفسهم ، وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع ، وبقي الأمر كذلك يومين قتل فيهما خلائق لا تحصى ، ونهبت أموال لا تستقصى ، فركب المشايخ بأجمعهم وذهبوا إلى بيت سر عسكر الفرنسيات وطلبوا منه الأمان ، فوعدهم مع التسوية ، وطلب منهم بيان بمن تسبب في إثارة الفتنة من المغممين فغالطوه ، فقال لهم على لسان الترجمان نحن نفرهم بالواحد ، فرجوه في إخراج العسكر من الجامع الأزهر ، فاجابهم لذلك وأمر بخروجهم وأسكن منهم نحو السبعين في الخطة ، ثم حصوا عن المتهمين ، فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان ، والشيخ أحمد الشراوى ، والشيخ عبدالوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحي ، والشيخ اسماعيل البراوى ، وحبسوهم ببيت البكرى ، ثم ركب الشيخ السادات والمشايخ إلى بيت سر عسكر وتشفعوا في المسجونين ، فقبل لهم : لا تستعجلوا ، وبعد أيام حضر جماعة من عسكر الفرنسيين إلى بيت البكرى نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين عند سر عسكر ليتحدث معهم ، فذهبوا بهم إلى بيت قائمقام بدرب الجامين وهناك جردوهم من ثيابهم وطلعوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح ، ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم خلف القلعة .

ولما توجه بونابرت إلى الشام بعد استيلائه على مصر ، استولى على مدينة العريش وغزة وخان يونس وورد الخبر إلى مصر ، فعمل الفرنسيون حصارا وضربوا عدة مدافع من القلعة والأزبكية وحضر عدة منهم راكبين الخيول وبعضهم مشاة وعلى بعضهم عمامة بيض ومعهم نفير ينفخون فيه ، ويدهم يبارق كانت عند المسلمين بقلعة العريش إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر واصطفوا ببابه رجالا وركبانا وطلبوا الشيخ الشراوى شيخ الجامع الأزهر ، وأمره برفع

فلك البيارق على منارات الجامع الازهر ، فنصبوا بيرقين ملونين على المنارة الكبير
ذات الهلالين وعلى منارة أخرى بيرقا وضربوا عدة مدافع بهجة وسرورا ، وكان ذلك
ليلة عيد الفطر وعند الغروب ضربوا مدافع إعلاما بالعيد

وفي افتتاح محرم سنة ١٢١٥ هـ وقعت حادثة عجيبة وهي ان سر عسكر الفرنساوية
كليبير كان واقفا في بستان داره بالازبكية وفي صحبته أحد خواصه فدخل شخص يوم
ان له حاجة وضربه بخنجر فشق بطنه وفرها ربا ، ففتشوا عليه حتى أخرجوه من بئر
فوجدوه شاميا ، فسألوه فخلط في كلامه فعاقبوه وحرقوا يديه بالنار فقال لهم لا تظلموا
أهل مصر فأتنا من جملة جماعة بعنا أنفسنا للوث وانفقنا على قتل رؤسائكم فقبل
له أين كنت تأوى فقال عند فلان وفلان برواق الشوام بالازهر ولا يدرون حال
فأحضروا الشيخ الشرقاوى والعريشى والزموهما بإحضار الذين كان يأوى اليهم
وهم أربعة ثم ركبوا إلى الازهر وصحبهم أغوات الانكشارية وقبضوا على ثلاثة ولم
يحددوا الرابع ثم أخذوا المقتول والبسوه برنيطة ، ووضعوا معه الخنجر الذى قتل
به وحملوه على عربة إلى تل العقارب حيث القلعة التى بنوها هناك وضربوا له المدافع
وأحضروا القاتل وضربوا رقاب الشوام الثلاثة المظلومين وحرقوا جثثهم ورفعوا
رؤوسهم على خوازيق ثم وضعوا قتيلهم فى تخشيبية وضعوا عندها عسكرا يتناوبون ليلا
ونهارا واظهر أنه أسلم وتسمى بعبدا لله ، وحضر قائمقام والأغا إلى الازهر وشقوا
فيه وفى اروقته وأرادوا نبش أما كن للتفتيش على السلاح وأخذ المجاورون فى نقل
أمتعتهم واخلاء الاروقة ونقلوا كتب الوقف ، ثم إنهم كتبوا اسماء المجاورين فى
قائمة وأمروهم ان لا يأتوا آفاليا مطلقا وأخرجوا منه الا تراك بالكلية ، وفى اليوم نفسه
توجه الشيخ الشرقاوى والمهدى والصاوى إلى سر عسكر منو ، واستأذنه فى قفل
الجامع وتسميره فتكلم بعض القبط وقال هذا لا يصح فحق عليه الشيخ الشرقاوى وقال
اتركونا يا قبط واكفونا شر دسائسكم وقصد الشيخ منع الريبة فانه ربما دسوا من
يبىب به واحتجوا بذلك على انجاز أغراضهم ولا يمكن الاحتراس من ذلك لكثرة
أبواب الجامع واتساع زواياه ، فأذنوا لهم بذلك وسمروا أبوابه وكذا سمروا مدرسة
محمد بك المقابلة له وأخرجوا منها الا تراك واستمرت الشدة والإزعاج إلى أن أخذ
الفرنساويون فى الجلاء من الديار المصرية .. وفى غاية محرم سنة ١٢١٦ هـ فتح الجامع
الازهر وكذلك المدرسة وفرح الناس فرحا شديدا وهنا بعضهم بعضا

وفى صفر سنة ١٢١٩ هـ وزعت على أرباب الحرف والصنائع خمسمائة كيس فضجوا
مع ما هم فيه من وقف الحال وأصبحوا لم يفتحوا الدكاكين وحضر منهم طائفة إلى

الجامع الأزهر ومرا لاغا والوالى ينادون بالامان وفتح الدكاكين، وفي ثاني يوم تجمع الكثير من غوغاء العامة والاطفال ومعهم طبول وصعدوا إلى منارات الجامع الأزهر يصرخون ويطلبون وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويتضرعون ووصل الخبر إلى الباشا فأرسل إلى السيد عمر مكرم النقيب يقول إنا رفعنا عن الفقراء فقال السيد عمر إن هؤلاء الناس وأرباب الحرف كلهم فقراء وكفاهم ما هم فيه من القحط ووقف الحال فكيف تطلب منهم مغارم الجوامك، فرجع الرسول بذلك ثم عاد بفرمان يتضمن رفع الغرامة عن المذكورين ونادى المنادى بذلك فاطمان الناس وتفرقوا إلى بيوتهم وخرج الاطفال يفرحون .

وفي صفر سنة ١٢٢٠ هـ أكلت العسكر الدلانية الزرع وخطفوا ما صادفهم من الفلاحين والمارين وأخذوا النساء والأولاد للآفساد فحضر سكان مصر القديمة نساء ورجالا إلى الجامع الأزهر يستغيثون ويخبرون أن الدلانية أخرجوهم من ديارهم وأخذوا أمتعتهم ونساءهم، فغاطب المشايخ الباشا في أمرهم فكتب للدلانية بترك الدور لأهلها فلم يمتثلوا فاجتمع المشايخ بالأزهر وتركوا قراءة الدروس وخرجت الأولاد الصغار يصرخون في الأسواق فأرسل الباشا كتخداه إلى الأزهر فلم يجد به أحداً وكان المشايخ انتقلوا إلى بيوتهم، فذهب إلى بيت الشراوى وحضر هناك السيد عمر مكرم وخلافه فكلموه وأوهموه، ثم قام وانصرف فرجه الأولاد بالحجارة وبقي الأمر على السكون أياما .

لقد قاد الأزهر الحركة الوطنية ضد الفرنسيين والطغاة، وكانت له زعامة الشعب، وقيادة الحركة العقلية والعلمية في البلاد .

جهاد الأزهر الوطنى فى الحملة الفرنسية وما بعدها :

مرت مصر (١) خلال هذه الفترة بأحداث مثيرة استدعت بذل ضروب عالية من التضحية، وقد تخاض الأزهر غمار هذه الحوادث، واستجاب زعماءه لداعى الوطن، بأذلين مافى وسعهم من تضحيات فى سبيله .

فلم تسكد تستقر الحملة الفرنسية فى القطر المصرى فى صفر ١٢١٣ هـ (يوليه ١٧٩٨) حتى نفر الشعب وزعماءه دفاعا عن كرامة الوطن وحرية، فقامت الثورات فى جميع أنحاء القطر، لطرد المستعمرين من البلاد . وكانت القاهرة مركزا لثورتين مهمتين :

(١) راجع مجلة الأزهر عدد ربيع الأول ١٣٧٣ - الأستاذ أحمد عز الدين

خلف الله .

الأولى في جمادى الأولى ١٢١٣ هـ (أكتوبر ١٧٩٨) وعلى رأسها الشيخ السادات ، وكان رئيساً لمجلس الثورة . والثانية في ٢٣ شوال ١٢١٤ هـ (٢٠ مارس ١٨٠٠) وعلى رأسها زعيم العلماء في ذلك الوقت السيد عمر مسكرم نقيب الأشراف . وقد استعمل الفرنسيون جميع أنواع القسوة لكبت الشعور القومى والقضاء على المقاومة الأهلية ، ولكنهم لم ينجحوا في خطتهم ، وانتهى الأمر بفوز المقاومة الأهلية ، وجلاء الغاصبين عن أرض الوطن .

فبعد ثورة القاهرة الأولى في ٩ جمادى الأولى ١٢١٣ (٢٠ أكتوبر ١٧٩٨) وجه نابليون نظره إلى الأزهر ، إذ كان يعلم أنه المعسكر العام للثورة ، فقبض على زعماء الحركة ، وأصدر أمره إلى الجنرال بون قومندان القاهرة بأن يأخذهم ليلاً إلى شاطئ النيل - ما بين مصر القديمة وبولاق - حيث يعذبهم ، ثم يلقى بجثثهم في النهر . وبهذه الطريقة خفي علينا تاريخ كثير من المجاهدين الذين استشهدوا في هذه الثورة .

أما الذين حوكموا رسمياً من العلماء باعتبارهم من زعماء الثورة فهم :

الشيخ اسمعيل البراوى والشيخ أحمد الشرقاوى وكانا يقومان بالتدريس في الأزهر ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى وكان يقوم بقراءة كتب الحديث كالبخارى ومسلم في المشهد الحسينى ، والشيخ يوسف المصيايحى وكان يقوم بالتدريس في جامع السكردى ، والشيخ سليمان الجوسقى وكان من العلماء المشهورين بشدة السطو والبأس ، وكانت محاكمتهم سرية وقد حكم عليهم بالإعدام في يوم ٢٧ جمادى الأولى ١٢١٣ (٣ نوفمبر ١٧٩٨) .

وفي الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٨ جمادى الأولى (٤ نوفمبر) أخرجوا من سجنهم إلى القلعة حيث تلى عليهم الحكم ، ثم أعدوا رمياً بالرصاص ، ولم يعلم لهم قبر بعد مقتلهم ، ويرى الجبرتي أن الفرنسيين ألغوا من السور خلف القلعة بعد تنفيذ الحكم .

وقد نشرت صحيفة (كورييه دليجيت) بالعدد الصادر في ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨ م (غرة جمادى الآخرة ١٢١٣ هـ) نبأ إعدامهم ، وأضافت إلى الأسماء التى ذكرها الجبرتي اسم (السيد عبد الكريم) الذى لم يوقف له على ذكر .

وكان الشهداء من العلماء خلال هذه الثورة أكثر من هذا العدد ، إذ قرر الشيخ عبد الله الشرقاوى في تاريخه " تحفة الناظرين " أن الفرنسيين قتلوا ثلاثة عشر عالماً

ويؤيد ذلك ما رواه المعلم نقولا الترك في كتابه ، ذكر تملك الفرنساوية للديار المصرية ،
إذ قرر أن نابليون أمر بإعدام اثنين من العلماء كانوا من أعضاء المجلس العالي .

وعلى الرغم من أن نابليون كان يعلم تمام العلم أن الشيخ السادات كان رئيسا لمجلس
الثورة إلا أنه لم يمسسه بسوء نظرا لمساكنته في نفوس المصريين المستمدة من نسبه
الشريف ، وقد طلب الجنرال كليبر من نابليون أن يقبض عليه فاجابه بأن إعدام مثل
هذا الشيخ الجليل لا يفيد الفرنسيين بل يؤدي إلى عواقب وخيمة .

أما ثورة القاهرة الثانية التي حدثت في ٢٣ شوال سنة ١٢١٤ هـ إلى ٢٥ ذى القعدة سنة
١٢١٤ هـ (٢٠ مارس - ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠ م) ، فتتلخص أحداثها في أن نابليون
غادر القطر المصري تاركا قيادة الحملة الفرنسية للجنرال كليبر الذي لم يلبث أن واجه
أعنف ثورة قامت بها القاهرة ، ويرجع عنف هذه الثورة إلى أن رأسها المفكر كان
زعيم علماء ذلك الوقت السيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، ولولا خيانة المماليك
لكان لهذه الثورة الوطنية الجارفة شأن آخر . أما العلماء الذين تعرضوا لانتقام
الفرنسيين بعد إخمادها فهم :

الشيخ مصطفى الصاوي وقد فرضت عليه غرامة ٢٦٠ ألف فرنك .

الشيخ محمد الجوهري وأخوه فتوح وقد فرضت عليهما غرامة قدرها ٢٦٠ -
ألف فرنك .

وكان الشيخ السادات معروفا لدى الجنرال كليبر بوطنيته منذ تزعم الثورة الأولى ،
ولكنه لم يتمكن من النيل منه لمعارضة نابليون ، فانتهاز فرصة اشتراكه في هذه الثورة
لينفك به تنكيلا ، إذ فرض عليه غرامة قدرها ثمانمائة ألف فرنك ، وسجن في غرفة
قدرة بالقلعة حيث كان ينام على التراب ويتوسد بحجر ، مع ضربه ضربا مبرحا . ثم
سمح له بالنزول مخفورا إلى داره لبعس في سداد الغرامة المفروضة عليه ، فجمع ما في
منزله من المال ، وقوم الفرنسيون ما وجدوه من مصاغ وملايس ومتاع فبلغت قيمة
ذلك كله ١١٢ ألف فرنك ، ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل جاسوا خلال الدار
وحفروا الأرض بحثا عن الخبايا ، حتى أعياهم البحث ولم يجدوا شيئا ، ثم نقلوه إلى
السجن وصاروا يضربونه خمس عشرة عصا في الصباح ومثلها في الليل ، وجدوا في
البحث وراء زوجته وابنه حتى قبضوا أخيرا على تابعة محمد السندوبي الذي عذبوه

(٧ - الأزهر)

حتى أقر على مكانهما ، فقبضوا عليهما ، وسجنوا زوجته معه ، وصاروا يضربونه أمامها زيادة في التعذيب ، فشفع فيها كبار العلماء لنقلها من السجن ، فأصدر الجنرال كبير أمرا بتاريخ ٢٢ مايو بنقلها إلى منزل الشيخ هاجان الفيومي . وصودرت أملاك الشيخ السادات ومرتباته وأوقاف أسلافه ، وبقي معتقلا حتى أفرج عنه في عهد قيادة الجنرال مينو في ٢٥ صفر سنة ١٢١٥ (١٩ يولية سنة ١٨٠٠) وشرطوا عليه ألا يجتمع بالناس ، وألا يركب دون إذن من القيادة الفرنسية . وقد بقي رهن المراقبة في داره حتى اعتقل للمرة الرابعة في أواسط شوال ١٢١٥ (أوائل مارس سنة ١٨٠١) بعد وصول الحملة الانجليزية العثمانية إلى مصر ، وقد اتخذ الفرنسيون هذا الاجراء خوفا من أن يثير عليهم الشيخ السادات الاهالي ، وقد توفي ابنه أثناء اعتقاله فأذن له بتشيعه مخفورا ، ولما انتهى ذلك أعيد إلى سجنه بالقلعة .

ويقول نابليون في مذكراته تعليقا على اضطهاد الشيخ السادات : إن تعذيبه كان من أهم الأسباب التي أدت إلى مصرع الجنرال كبير في ٢ صفر سنة ١٢١٦ (١٤ - يونيه سنة ١٨٠٠) .

وكان السيد عمر مكرم الرأس المفكر لثورة القاهرة الثانية ، وإليه يرجع الفضل في تعبئة القوات الوطنية تعبئة قلما تتوفر في ثورة من الثورات ، ولم يستطع الفرنسيون القبض عليه عقب إخماد الثورة ، إذ تمكن من الفرار من القاهرة تاركا أملاكه عرضة للتهب والمصادرة ، ولم يدخل القاهرة بعد ذلك حتى جلاء الفرنسيين عن عاصمة البلاد في ربيع الأول سنة ١٢١٦ (يولية ١٨٠١) .

وقد اختارت الزعامة الشعبية ممثلة في السيد عمر مكرم والشيخ عبدالله الشرقاوي محمد علي والياً على مصر بشرط أن يحكم بمشورة وكلاء الشعب . ولكن محمد علي كان يميل إلى الحكم المطلق ، وسرعان ما ضاق ذرعا برقابة وكلاء الشعب خصوصاً السيد عمر مكرم زعيم العلماء ، الذي أخذ يحاسب محمد علي باشا على جمع الضرائب التي فرضها ، وبلغ من حماسه في الدفاع عن حقوق الشعب أن عقد مجلساً عاماً من العلماء في (أواسط جمادى الأولى سنة ١٢٢٤ - أول يولية سنة ١٨٠٩) ، وقد أقسم المجتمعون على ألا يلبثوا حتى يجيب الوالي مطالبهم التي تتخلص في عدم فرض ضرائب جديدة وإلغاء الضرائب المستحدثة ، وقد ازدادت العلاقات توتراً حينما رفض السيد عمر مكرم أن يوقع الميزانية السنوية . كما يريد محمد علي ، وكان من المعتاد أن يوقع

على الميزانية وجوه المصريين قبل إرسالها إلى السلطان العثماني .

تشكر محمد علي للسيد عمر مكرم ، وأخذ يسعى في التخلص منه ، حتى سُحِث له الفرصة في رجب ١٢٢٤ (أغسطس ١٨٠٩) ، فقرر خلع من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط ، وقد تلقى السيد عمر مكرم هذا النبأ بقوله : « أما منصب النقابة فإني راغب عنه وزاهد فيه وليس فيه إلا التعب ، وأما التقى فهو غاية مطلوبى لأرتاح من هذه الورطة ، ولكنى أريد أن أكون في بلدة لا تدين لحكم محمد علي » .

مكث السيد عمر مكرم أربع سنوات في دمياط نقل بعدها إلى طنطا التي استمر بها حتى عام ١٢٣٣ (١٨١٨) ، ثم أذن له بالعودة إلى القاهرة ، ولكن استقبال الشعب الرائع لزعيمه أثار شكوك محمد علي مرة أخرى ، فأمر بنفيه إلى طنطا عام ١٢٣٧ (١٨٢٢) حيث توفي في نفس العام .

وقام الأزهر بتأييد القوات الوطنية في جهادها ضد الانجليز عام ١٨٠٧ هـ ، وألقى زعماءه في المؤتمر الوطني المنعقد في الأزهر بوجوب الجهاد الوطني ، وقام العلماء ببذل مجهود كبير في سبيل الدفاع عن الوطن سواء بالتطوع أو إمداد الجيش بالمؤن والذخائر أو الدعوة إلى الجهاد .

عمر مكرم الأزهرى الزعيم المصرى الخالد :

وكان عمر مكرم من أرفع أسماء المصريين ذكرا في القرن الثامن عشر ، قضى حياته في خدمة الشعب وتحقيق أمانيه ورفع الحيف عنه والسعى إلى تحريرهم وإعلاء كرامته ، وقد حفزته عاطفته الوطنية المشبوبة إلى مناهضة الفرنسيين توطئة لآخر أجهم من مصر .

كانت بيوت البكرى والسادات ومكرم هي البيوتات المعروفة في غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فاذا لم ظلم بافراد الشعب من الحكام العثمانيين أو المماليك أو رجال الحملة الفرنسية لجأوا إلى هذه البيوت يستظلون بحماها ، ويستعدون أربابها ويطلبون المشورة ودفع الحيف عنهم .

وكان أول ظهور عمر مكرم في ميدان السياسة في عام ١٧٩٥ حين اضطربت الأمور في القاهرة وفزع الناس من طغيان إبراهيم ومراد من أمراء المماليك ، فقد أبى الشعب وعلى رأسه العلماء ونقيب الأشراف أن يترك الطاغية يحكم على هواه ، والزموه بشروط يعدها المؤرخون وثيقة حقوق الإنسان الأولى التي سبقت في تاريخها

إعلان حقوق الإنسان في فرنسا في أعقاب ثورة سنة ١٧٩٨ ، وفي هذه الوثيقة الاجتماعية الكبرى أعلن الأمراء المماليك أنهم يتعهدون بالعدل ، ويتوبون عن المظالم ، ويعدون بالقيام بالواجبات التي يفرضها عليهم القانون والعرف : من صرف الأموال على مستحقها ، ورفع الضرائب الإضافية ، ويتكفلون بكف أتباعهم عن امتداد أيديهم بالاذى ، وبأن يشيروا في الحكم سيرة حسنة .

ومضت عدة أعوام حتى إذا كان يوم ٣ يوليه عام ١٧٩٨ هبطت قوات الحملة الفرنسية مدينة الاسكندرية تغزو البلاد ، وكان شعب القاهرة في حالة فزع واضطراب ، فهل في وسع المماليك أن يدافعوا ويكافحوا ويردوا الغزاة الفاتحين ؟ وتمثلت هذه المحنة في خاطر عمر مكرم بأنها امتداد للحروب الصليبية ، ولذلك اذاع نداء على الشعب يحثه على الجهاد الديني ، فخرج الرجال والشبان ولم يبق سوى الضعفاء والأطفال والنساء ، وجاد كل منهم بما يملك من دراهم ، وابتاعوا السلاح والذخيرة والخيام . وهبط مكرم من القلعة إلى ساحل بولاق يحمل علما يسميه العامة « البيرق النبوي » ، والناس حوله ألوف مؤلفة ، وفي أيديهم السلاح الساذج من سيوف ومدى وهرارات ، ومعهم الطبول والزمر ، ووقفوا على غير نظام يشدون أزر جيش المماليك الذي كان يقاتل على الضفة الأخرى للنيل .

كان مكرم يحسب أن الأمراء المماليك من طراز بيبرس وقلاوون والناصر الذين صدوا جحافل التتار والصليبيين ، ولكن موقعة النيل بددت أحلامه ، فقد هزموا في ساعات معدودات ، مما جعله يؤمن بأن ممالك أيامه لا يحاكون في شيء الممالك الأولى ، فهم جبناء ، عتاة ، ظالمون .

وعلى الرغم من أن مكرم لا دراية له بفنون الحرب ولا أساليب القتال ، إلا أنه شهد بعينه فرار قوات المماليك ، وزحف القوات المغيرة على القاهرة ، واحتلال أطرافها ، وأبت عليه كرامته أن يقبل هذا الهوان ، فخرج إلى الشام وأقام في جنوبها يرقب الأحداث التي تجري في وطنه عن كשב ، فلما كان نابليون بونابرت في يافا حرص على إكرام من وجدهم من المصريين هناك . . . وأكبر في عمر مكرم عاطفته المشبوبة ورأسه المرفوع ، وكرامته التي يذود عنها ، فيسر له سبيل العودة إلى وطنه .

وكانت القاهرة في غضون الفترة التي عاد فيها مكرم تغل كالرجل ، والثورة على الأبواب . كانت في حاله ثورة نفسية كامنة ، وكان تحرير الوطن من نير الاجنبي قبلة الجميع ، فلما شرع الزعيم يدعو أفراد الشعب إلى الخروج والجهاد ولقاء الغاصب

المحتل ، أقبل الناس على تلبية دعوته ، فأقاموا المتاريس وحفروا الخنادق وتحصنوا في الجوامع ، وانشأوا معملا للبارود ، وجاءوا بالصناع والعمال ، واحتالوا في صنع آلات القتال من بنادق وذخائر ، وأشرف مكرم على جميع التبرعات لتمويل الحركة ، وأخيرا بدأ النضال عنيفا سافرا بين المحاصرين والمدافعين ، وشهد الفرنسيون ببسالة المصريين واقتحامهم المخاطر والأهوال ، ولكن المقاومة انتهت بتغلب المحتلين لتفوقهم في معدات القتال ، وفرضوا على السكان غرامة مقدارها عشرة ملايين من الفرنكات ، ولجأوا إلى أحط وسائل العنف والقسوة في تحصيلها ، ونقموا على زعيم الحركة ، فأمروا بنفيه إلى مدينة دمياط .

جاءت الحملة الفرنسية وعادت مصر إلى حكم العثمانيين ، وفي خلال السنوات الخمس المتعاقبة تولى الحكم خمسة من الولاة ، قتل منهم اثنان وطرده الباقون بعد أن سجنوا في القلعة . . كان آخر هؤلاء الولاة أحمد خورشيد ، وكان رجلا ضيق الأفق ، من بقايا الارستقراطية العثمانية ، يدعى السيادة على كل شيء ، ولكن دولته كانت تخذله فلا تمده بالمال والرجال . . كان في موقف حرج ، فخرائنه خاوية من المال لدفع مرتبات الجند ، والمماليك يغيرون على القرى وتولون تحصيل الضرائب والاستيلاء عليها ، وطبقات الشعب متدمرة من السكف الفادحة المفروضة عليهم . فاحتشدت في الأزهر جموع من التجار والصناع وطلبة العلم وجاهروا بالتمرد والعصيان ، ثم أغلقوا المتاجر والمصانع والمنازل ، حتى بدت القاهرة كمدينة مهجورة .

وانتهز محمد علي أحد قواد الفرقة الألبانية غير النظامية فرصة تدمير طبقات الشعب ، فصار يتوعد إلى مكرم بوصفه زعيم الشعب ، ويصوره سيرا في الليل ، ويستميله بشق الوعود ، ويقسم له الأيمان الكاذبة بأنهم إن مكثوا من الحكم ، فانه يسير حسب نصوص الشرع ، والإقلاع عن المظالم ، ولا يبرم أمرا إلا بمشورة العلماء ، وانه إذا خالف هذه الشروط عزلوه ، وأخرجوه من الحكم .

وصدق عمر مكرم هذه الوعود ، وأخذ على عاتقه إقناع العلماء بمشاركته فكرته ، وأذاع نداء على الشعب بالاجتماع امام المحكمة الشرعية . فلما كان اليوم التالي خرج الأفراد والجماعات من دورهم ومصانعهم ومتاجرهم ، وأقبل المزارعون من الضواحي حتى احتشدت بهم الطرق والمسالك المؤدية إلى المحكمة ، وكانوا جميعا يهتفون بقولهم : « يارب يامتجلي أهلك العثماني » ، وهم يقصدون طبعها الوالي

العثماني ، ثم أقبل السيد عمر مكرم ، فاقترح المناداة بعزل خورشيد وإسناد الولاية إلى محمد علي .

وكان الشعب قد ضاق ذرعا بالاعتداءات المتكررة وبالضرائب الفادحة التي يطلب إياها دفعها صاغرا . كان في حاجة إلى مصالحة أي يذمتداليه ، لعل فيها خلاصه مما يعانيه من الكروب والمحن ، ولذلك وافق على الاقتراح الذي تقدم به السيد مكرم ، لا جبا في القائد الألباني ، وإنما كرها في الوالي العثماني .

وطلب العلماء وعلى رأسهم مكرم إلى الوالي النزول عن الحكم طوعا لإرادة الشعب ، فأبى مستكبرا وأجابهم بأنني معين بأمر السلطان فلا أنزل بإرادة الفلاحين . واستشاط العلماء غضبا من هذه الإهانة الموجهة إلى الشعب ، وانفقت كلتهم على محاصرة الوالي في القلعة لإرغامه على التنازل عن الحكم ، وبدأ النضال سافرا ، وشرع أفراد الشعب في تكوين فرق شبه عسكرية تتولى إقامة المتاريس وحفر الخنادق وحراسة مداخل المدينة ومد المساعدة إلى الجنود وتسليح الشعب بالأسلحة البيضاء والمراوى ، ومنعوا الماء والغذاء والمدد عن الوالي في القلعة .

وكان مكرم في غضون فترة الحصار حركة لا تهدأ ، كان يتنقل بين الصفوف ، ويستثير الحمم والنخوة القومية ويشجع المحاصرين ، وبرزت إلى جانبه أسماء زعماء من الشعب : كـابن شمة وحجاج الحضري الذي تمكن من أسر قافلة من الإبل محملة بالذخائر والمؤن كانت في طريقها إلى القلعة لتموين الوالي ، وقدم هذه القافلة غنيمة باردة إلى القائد المرشح للولاية .

وانتهى النزاع طوعا لإرادة الشعب ، فنزل الوالي المعزول عن الحكم ، وأسندت الولاية إلى الحاكم الجديد ، وبذلك انتصرت إرادة الشعب .

ثم وفدت بعد عامين حملة عسكرية بريطانية لاحتلال مصر وتمكنت من أن تسيطر على مدينة الاسكندرية دون مقاومة تذكر ، بتأثير خيالة الضباط العثمانيين في المدينة ، ثم سارت الحملة إلى رشيد ، فقاومها أهل رشيد في بسالة وبطولة وتمكنوا من قهرها وحملت رؤوس القتلى على أسنة الرماح إلى القاهرة وعلمت بابوابها ، وسبق الأسرى من الضباط والجنود الانجليز وطيف بهم في شوارع العاصمة .

وشرع مكرم في حفر همم سكان القاهرة لمقاومة المعتدين إذا ما حاولوا اقتحام العاصمة ، لجمع الجوع وحصن المداخل وأقام المتاريس في الشوارع ، وكون فرقاً نظامية ساجها بالأسلحة الخفيفة ، وكان محمد علي في غضون ذلك في أرباض أسبوط يقاتل

الممالك ، فلما وفد على القاهرة وأفضى اليه مكرم بما اعتزمه الشعب من الكفاح والنضال لرد غارة المعتدين ، صدمه محمد علي في عواطفه بأن قال له : عليكم بالمال وبمعدات الحرب وعلى أنا وحدي مقاتلة المغيرين .

كان الوالى الجديد لا يفتأ يلجأ إلى مكرم لانه يدرك قوة زعامته الشعبية فى نفوس العلماء وقادة الرأى وجميع الطبقات ، ولكن لما استولى على مقاليد الأمور أخذ يقلب له ظهر المجن ، ويقصيه عن الاشتراك فى المسائل العليا للدولة وفى مهمة الدفاع عن الوطن .

وكان الوالى كليا أعوزته الحاجة إلى المال ، مال إلى أموال الأوقاف ، فاغتصب منها ما هو فى حاجة اليه ، فضج العلماء بالشكوى لأن هذه الأموال مرضودة على تعمير بيوت الله وإنفاقها فى وجوه البر ، وكان أن اجتمع عمر مكرم بالمشايخ ورجال الدين ، واحتجوا على مسلك الوالى احتجاجا مرا فكان جوابه :

— أنا وحدي الذى ينتفع بالضريبة ، وأما أتم فتتظنون كاهل الامة بأنقل الأعباء ، إنكم تعقدون الاجتماعات فى المساجد ، وتتكلمون عن بلهجة تكاد تكون لهجة الأمر ، وهذه نزعة باطلة لا يمكن قبولها بغير الازدراء والاستخفاف ، وإننى على استعداد لأن أرمى عنق كل من يستظل بلواء المعارضة فى وجه سياستى .

وبادر مكرم بأن جمع العلماء وقال لهم :

— إن هذا الحاكم محتال وإذا تمكن فسيصعب إزالته فلنعزله من الآن .

ونمى ذلك إلى محمد على فأسرع إلى نفي مكرم تحت الحراسة ، وكان أن أهاب على هذا الأمر بشجاعة : إن النفي غاية ما أتمناه . غير أننى أريد العيش فى بلد لا يدين بحكم محمد على . ورأى مكرم بعين الحسرة أن الآمال التى كان يعلقها على قيام دولة جديدة يشترك فيها المصريون قد تبخرت وذهبت فى الهواء .

وفى يوم ١٣ أغسطس عام ١٨٠٩ احتشدت على ساحل بولاق طوائف مختلفة من الشعب ، يودعون زعيمهم الراحل ، وهو يبحر فى مركبه إلى دمياط وانهمرت الدموع من مآقيهم وهم يودعون الرجل الذى وقف حياته فى سبيل الدفاع عن حقوقهم ورد المظالم عنهم .

وبنى مكرم اختفت الزعامة الشعبية من الميدان ، وخلا جو المعارضة أمام الوالى الذى رفعه الشعب إلى منصة الحكم بعد أن أخذ عليه العهد والمواثيق ليحكم بالعدل والمحبة فتخلى عن هذه العهد والمواثيق .

فحول العلماء في قرنين

وهؤلاء أعلام من فحول علماء الأزهر في القرنين : الثاني عشر والثالث عشر الهجري ... نذكر أسماءهم في إيجاز :

الشيخ محمد البناني : طلب العلم في الأزهر . وحضر دروس الشيخ الصعدي والدودير وغيرهم ، حق مهر وأنجب ودرس ومات سنة ١١٨٦ هـ عن ثلاثين سنة (١) .
الشيخ حسن الشيبيني ، رحل من بلدته فوه إلى الجامع الأزهر ، فطلب العلم وأخذ من الشيخ الديري فجعله ممليا عليه في الدرس (٢) وتوفي عام ١١٨٣ هـ

الفقيه الشيخ الحماقي الحفني من كبار علماء الشافعية . وتصدر للأقراء والتدريس بالأزهر عدة سنين . ثم تولى مشيخة إفتاء الحنفية بعد موت الشيخ حسن المقدسي (٣) وقد توفي عام ١١٨٧ هـ

المحدث المقرئ شمس الدين محمد بن قاسم البقري شيخ القراء والحديث بصحن الجامع الأزهر (٤) .

والشيخ المحدث منصور بن عبدالرزاق الطوخي الشافعي إمام الجامع الأزهر (٤) شيخ الإسلام البراوي الشافعي الأزهرى . ورد الجامع الأزهر وهو صغير ، فقرأ العلم على مشايخ عصره ، وتفقه على الشيخ مصطفى العزيزي ، وحضر دروس الملوي والجوهري والهرابي ، وشهد له بالفضل أهل عصره وأحدث به الطلبة ، واتسعت حلقة وقد صلى عليه في الأزهر في مشهد حافل (٥) ودفن عام ١١٨٢ هـ

الفقيه الصالح الشيخ أحمد بن أحمد السنبلاوي الشافعي الأزهرى ، كان عالما مواظبا على تدريس الفقه والمعقول بالجامع الأزهر ، ولازم على قراءة ابن قاسم بالأزهر كل يوم بعد الظهر ، وكان يحترف بيع الكتب — توفي سنة ١١٨٠ هـ (٦) الشاعر الكاتب محمد بن رضوان السيوطي الشهير بابن الصلاحى

(١١٤٠ - ١١٨٠ هـ) (٧)

(٢) ٣٣٨ ج ١ الجبرتي

(٤) ٨٨ ج ١ الجبرتي

(٦) ٢٨٥ ج ١ الجبرتي

(١) ٣٧٥ ج ١ الجبرتي

(٣) ٤٠٨ ج ١ الجبرتي

(٥) ٣١٢ ج ١ الجبرتي

(٧) ٢٦٥ - ٢٨٤ ج ١ الجبرتي

الفقيه المحدث شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن الحسن الخالدي الشافعي الأزهري الشهير بالجوهري (١٠٩٦هـ - ١١٨٢هـ). وقد اشتغل بالعلم ، وجد في تحصيله حتى فاق أهل عصره ، ودرس بالأزهر وأفتى نحو ستين سنة ، ومات فصلي عليه بالأزهر (١) عام ١١٨٢هـ

الشيخ عبد الرؤوف بن محمد البشبيشي ولد ببشبيش من أعمال المحلة الكبرى ، وقد تصدر لتقرير العلوم الدقيقة والنحو والمعاني والفقه ، وانتفع به غالب مدرسي الأزهر . وتوفي سنة ١١٤٣ (٢)

الشيخ أبو الحسن البكري خطيب الأزهر (٣)

شيخ مشايخ الإسلام عالم العلماء الاعلام الشيخ علي العدوي المالكي (١١١٢ - ١١٨٩هـ). وهو من بني عدي ، ومن مشهوري العلماء ، صلى عليه في الأزهر بمشهد عظيم ، ودفن بالبستان بالقراة الكبرى (٤) عام ١١٨٩هـ المفتي الفقيه الشيخ إبراهيم الشرقاوي . وكان لا يفارق محل درسه بالأزهر طول النهار (٥) ، وتوفي عام ١١٨٥هـ

الشيخ علي الشاوري المالكي مفتي فرشوط قرأ بالأزهر العلوم . وقدم إلى مصر ومات بها وصلى عليه في الأزهر (٦) عام ١١٨٥هـ

الشيخ علي العدوي المالكي الأزهري (١١٠٠ - ١١٨٥هـ) تلقى العلم في الأزهر ثم درس بالأزهر ونفع الطلبة (٧)

الشيخ مصطفى الصاوي ، وقد تعلم في الأزهر ، ولازم الشيخ البراوي وتخرج به وأقرأ الدروس ، وكان شاعرا لطيفا وكاتباً مجيداً . وتوفي عام ١٢١٦هـ (٨)

الشيخ محمد الخالدي الشافعي (١١٥١ - ١٢١٥هـ) ، وقد كان من مشهوري

(١) ٣٠٩ ج ١ الجبرتي — ص ٣١٢

(٢) ١٥٧ ج ١ الجبرتي

(٣) ١٦١ ج ١ الجبرتي

(٤) ٣٦٩ ج ١ الجبرتي

(٥) ٣٦٧ ج ١ الجبرتي

(٦) ٤١٥ و ٤١٦ ج ١ الجبرتي

(٧) ٢١٣ - ٢١٧ ج ٣ الجبرتي

(٨) ٢١٣ - ٢١٧ ج ٣ الجبرتي

علماء الأزهر في عهده . . وله كتب كثيرة ، وصلى عليه بالأزهر في مشهد حافل ، رحمه الله (١) .

السيد مصطفى الدمنهوري الشافعي من العلماء المشهورين المذكورين ، تفقه على أشياخ العصر ولازم الشيخ الشرقاوي الذي صار شيخ الأزهر ، وكان يكتب على الفتاوى على لسان الشيخ الشرقاوي ويتحرى الصواب . . . ومات في عهد الفرنسيين مقتولا (٢)

الشيخ عبد الرحمن الأجهوري المالكي ، من علماء الأزهر الشريف ، درس ودرس بالأزهر مدة في أنواع الفنون في الدين واللغة ، وتوفي سنة ١١٩٨ هـ (٣)
الشيخ محمد بن علي الصبان الشافعي الأزهرى ، صاحب المؤلفات الذائعة المشهورة التي خلدت ذكره ، وتوفي سنة ١٢٠٦ هـ (٤)

الشيخ أحمد العروسي الشافعي الأزهرى (١١٣٣ - ١٢٠٨ هـ) حضر في الأزهر على شيوخه وعلمائه (٥)

الشيخ شهاب الدين السمنودي المحلى الشافعي ، العالم الأزهرى ، وقد قرأ بالجامع الأزهر ، وتوفي عام ١٢٠٩ هـ (٦)

الشيخ أحمد المهاجى الشافعي المدرس بالمقام الاحمدى بطنطا . . توفي عام ١٢٠٩ هـ (٧)

الشيخ عبد الرحمن للنحراوى الأجهورى ، درس بالأزهر وأفاد الطلبة وتوفي عام ١٢١٠ هـ (٨)

وفي هذه السنة أيضا توفي الشيخ حسن الهوارى المالكي شيخ رواق الصاعدة (٩)

الشيخ عثمان بن محمد الحنفى المصرى الشهير بالشامى ، وتوفي عام ١٢١٠ هـ (١٠)
وكذلك الشيخ شمس الدين الفرغلى الشافعي (١٠) وله شعر عذب .

(٢) ٦٧ ج ٣ الجبرتي

(٤) ٢٢٧ - ٢٣٣ ج ٢ الجبرتي

(٦) ٢٥٩ ج ٢ الجبرتي

(٨) ٢٦٢ ج ٢ الجبرتي

(١٠) ٢٦٣ ج ٢ الجبرتي

(١) ١٦٥ ج ٣ الجبرتي

(٣) ٨٥ وما بعدها ج ٢ الجبرتي

(٥) ٢٥٢ - ٢٥٤ ج ٢ الجبرتي

(٧) ٢٦٠ ج ٢ الجبرتي

(٩) ٢٦٣ ج ٢ الجبرتي

الشيخ أحمد بن محمد السجاعي الأزهرى قدم الأزهر صغيراً فتمهر ودرس وأقنى وألف ، وترك آثاراً علمية مشهورة توفى عام ١١٩٠ هـ (١)

الشيخ عطية الأجهورى الشافعى ، العالم الأزهرى ؛ وقد توفى عام ١١٩٠ هـ (٢)
الشيخ إبراهيم بن خليل الصبحانى الغزى الحنفى العالم الأزهرى ، وقد ولد بغزة وورد إلى الأزهر فتعلم فيه ، ثم عاد إلى غزة وتولى فيها الافتاء ، وارتحل إلى دمشق وتولى أمانة الفتوى . توفى عام ١١٩٠ هـ (٣)

الشيخ محمد العوفى المالكى كان شاعراً ماجناً ، ومع ذلك كانت حلقة درسه فى الأزهر تزيد على الثلاثمائة . مات سنة ١١٩١ هـ (٤)

الامام الشيخ أحمد بن عيسى الزبيرى الشافعى البراوى من علماء الأزهر ، ولد بمصر وبها نشأ وحضر دروس مشايخ الوقت ، ولما توفى والده أجلس مكانه فى الأزهر وقد توفى بطنطا عام ١١٩٢ هـ ، وصلى عليه بالأزهر ، ودفن بتربة المجاورين (٥)

الشيخ محمد العدوى من علماء الأزهر ، درس فى الأزهر ودرس فيه وتوفى عام ١١٩٣ هـ (٦)

الشيخ شهاب الدين أحمد السجاعي الشافعى الأزهرى ، من علماء الأزهر ، ولد بمصر ونشأ بها وتصدر للتدريس فى حياة أبيه وبعد موته فى مواضعه ، وصار من أعيان العلماء . وتوفى عام ١١٩٧ هـ (٧)

الشيخ عبد الله بن أحمد المعروف باللبان الشافعى الأزهرى . توفى عام ١١٩٨ هـ (٨)

ومن مشهورى العلماء الشيخ محمد بن حسن الشافعى الأحمدي الأزهرى المتوفى عام ١١٩٩ هـ (٩)

الشيخ محمد الحشنى الشافعى وكان من خيار شيوخ الأزهر (١٠) وتوفى

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| (١) ٢ ج ٣ الجبرتى | (٢) ٢ ج ٤ الجبرتى |
| (٢) ٢ ج ٤ الجبرتى | (٤) ١٥ و ١٦ ج ٢ الجبرتى |
| (٥) ٢ ج ٣٥ الجبرتى | (٦) ٥٨ ج ٢ الجبرتى |
| (٧) ٢ ج ٧٥ الجبرتى | (٨) ٨٤ ج ٢ الجبرتى |
| (٩) ٩٤ — ٩٥ ج ٢ الجبرتى | (١٠) ٢٤ ج ٤ الجبرتى |

سنة ١٢٢١ هـ .

والشيخ سليمان البجيرى الشافعى من علماء الأزهر المشهورين (١)
الشيخ أحمد البرماوى الشافعى (١١٣٨ - ١٢٢٢ هـ) . . . وكان من الشيوخ
الأجلاء (٢)

الشيخ ابراهيم الحريرى مفتى مذهب السادات الحنفية كوالده ، وقد توفى عام
١٢٢٤ هـ (٣) . وتوفى فى هذا العام الشيخ عبد المنعم العماوى المالكى وهو من
كبار الشيوخ (٣)

الشيخ محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكى الأزهرى من علماء البلاغة ،
تصدر للأقراء والتدريس بالأزهر وإفادة الطلبة ، وكان فريدا فى تسهيل المعانى
وتوفى عام ١٢٣٠ هـ ودفن بتربة المجاورين (٤)
الشيخ محمد الأمير المالكى الأزهرى (١١٥٤ - ١٢٣٢ هـ) من كبار الشيوخ
الأجلاء فى الأزهر (٥)

الشيخ محمد الأشمونى الشافعى (١٢١٨ - ١٣٢١ هـ) تعلم فى الأزهر وصار
مدرسا فيه (٥٠ - ٥٢ تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر
لأحمد تيمور ط ١٩٤٠)

الشيخ أحمد الرقاى المالكى ، تعلم ودرس فى الأزهر وحضر عليه محمد عبده
والشيخ بخيت والشيخ أبو الفضل وسواهم ، وقد رشح للمشيخة بعد استقالة الشيخ
سليم عام ١٣٢٠ هـ ، ولكن لم يقدر الله له ذلك ، وقد توفى عام ١٣٢٥ هـ (٦٤ -
٦٦ المرجع)

الشيخ حسين الطويل المالكى (١٢٥٠ - ١٣١٧ هـ) من مشهورى العلماء ،
حضر ودرس فى الأزهر ، وأول درس قرأه بالأزهر عام ١٢٨٣ هـ ، وتلمذ عليه
الكثيرون ، وعين مفتشا ثانيا للغة العربية بوزارة المعارف ، ثم مدرسا
بدار العلوم (٦)

(١) ٢٤ ج ٤ الجبرتى (٢) ٧٦ ج ٤ الجبرتى (٣) ١٠٤ ج ٤ الجبرتى

(٤) ٢٣١ ج ٤ الجبرتى (٥) ٢٨٤ ج ٤ الجبرتى

(٦) ١٢٠ - ١٢٩ أعيان القرن الثالث عشر لأحمد تيمور ، وله ترجمة فى مجلة

الضياء ج ١ ص ٦٩٠

ARABIAN UNIVERSITY IN CAIRO

الشيخ أحمد أبو خطوة الحنفى (١٢٦٨ - ١٣٢٤ هـ) ، من جملة العلماء ،
وحضر ودرس فى الأزهر ، وكان أكثر اشتغاله فى المعقول على الشيخ حسن
الطويل ، وكان ابتدأه للتدريس فى الأزهر سنة ١٢٩٦ هـ ، وقد عين مفتيا للأوقاف ،
ثم نقل عضوا فى المحكمة الشرعية العليا (١)

هذا هو الشيخ أحمد أبو خطوة الحنفى ، من جملة العلماء ،
وحضر ودرس فى الأزهر ، وكان أكثر اشتغاله فى المعقول على الشيخ حسن
الطويل ، وكان ابتدأه للتدريس فى الأزهر سنة ١٢٩٦ هـ ، وقد عين مفتيا للأوقاف ،
ثم نقل عضوا فى المحكمة الشرعية العليا (١)

(١) له ترجمة فى مجلة المقتبس ج ١ ص ٥٥١ ، وراجع ص ١٣٠ - ١٣٢ تراجم
أعيان القرن ١٣ لآحمد تيمور

الباب الثاني

من تاريخ الأزهر الحديث

القوة الشعبية بعد الحملة الفرنسية ممثلة في الأزهر :

بعد خروج الفرنسيين من مصر تنازعت الوطن أيا د قوية ، كل يد تعمل على الاستئثار بحكم مصر ، وكان من هؤلاء الطامعين في العرش طامح من رعايا خلافة تركيا هو محمد علي القولي رئيس إحدى الفرق العسكرية التي أرسلتها تركيا إلى مصر لطرد الفرنسيين منها .

وتوحد محمد علي إلى شعب مصر وإلى علماء الأزهر الشريف ، ودس أعوانه في وسط الشعب لينادي به حاكما على مصر ، واستجاب علماء الأزهر لرغبة الشعب ، ورأوا في تولية مثل محمد علي حكم مصر دفعا لخطر الحكم الأتراك المتغربين ، فتوجهوا وعلى رأسهم شيخ الإسلام الشيخ عبد الله الشراوي شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمد المهدي المقي ، والشيخ محمد الأمير من كبار العلماء ، والشيخ سليمان الفيومي ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والسيد محمد السادات شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، والشيخ العريشي القاضي ، وغيرهم من الشيوخ والعلماء ، إلى قصر محمد علي وأفضوا إليه برغبتهم في المنادة به واليا على مصر لاجتماع الشعب على ذلك ، وخرج العلماء من عنده إلى الجامع الأزهر لرسم الخطة ومتابعة الحوادث . غير أن الانتظار لم يطل ، فما كاد يعلن نبأ تولية محمد علي ، ولاية دجده ، واستعداده للرحيل ، حتى خرج أهل القاهرة عن حد الاحتمال فالتفوا حول شيوخ الأزهر ، وطالبوا بوضع حد لسوء الحال ، وانتهوا إلى المطالبة بعزل الوالي ، والمنادة بمحمد علي واليا على مصر : وكان عدد الحشدين من الشعب في الأزهر يربو على الأربعين ألفا . ولم يجد العلماء إزاء هذا الموقف بدا من تحقيق رغبة الشعب ، فاتجهوا إلى دار المحكمة في بيت القاضي ، وحولهم هذا البحر الزاخر من الشعب الهاجس يهتف بسقوط الوالي ، وفي المحكمة حضر الجميع وانفقوا على كتابة عريضة بمطالب الشعب عددوا فيها المظالم التي وقعت بالناس من مصادرة الحريات وفرض الضرائب ، وطالبوا برفع هذه المظالم ، وكان ذلك في يوم

الأحد ١٢ من صفر سنة ١٢٢٠ هـ (١٢ مايو سنة ١٨٠٥ م). ولما وصلت هذه القرارات إلى الوالي استدعى العلماء لمقابلته ، ولكنهم رفضوا ، لأنهم علموا أنه دبر مؤامرة لاغتيالهم في الطريق والقضاء على هذه الحركة الشعبية ، فلما امتنعوا عن الذهاب رفض الوالي لإجابة مطالبهم ، فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء في يوم الاثنين ١٣ من صفر سنة ١٢٢٠ هـ (١٣ مايو سنة ١٨٠٥ م) بدار المحكمة وقرروا عزل خورشيد باشا وتنصيب محمد علي والياً على مصر .

وعقب اصدار القرار في المحكمة توجهت الجموع إلى محمد علي ، وفي طلبهم علماء الأزهر وعلى رأسهم : الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر ، ونقيب الاشراف السيد عمر مكرم ، وذهبوا إلى محمد علي وقالوا له : إننا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ولا بد من عزله من الولاية . فقال : ومن نريدونه أن يكون والياً ؟ قالوا : لانرضى الابك ، وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير . فامتنع أولاً ، ثم رضى . وأحضر واه كركا وعليه قفطان . وقام اليه شيخ الاسلام الشيخ الشرقاوي والسيد عمر فألبساه إياه ، وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة .

وفي ١١ من ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ هـ (٩ من يولييه سنة ١٨٠٥ م) وصل مرسوم الدولة ، ومضمونه الخطاب لمحمد علي وإلى جدة سابقا وإلى مصر حالا ، من ابتداء ٢٠ من ربيع الاول ، حيث رضى بذلك العلماء والرعية .

هذه هي رواية الجبرقي ونحن لانسكاد نسلم بها ، فإن محمد علي عندما علم نبأ وصول الوحدات البحرية التركية بقيادة قبودان باشا يحمل أمر السلطان بعزل محمد علي وتولية موسى باشا ، سارع إلى الالتجاء إلى القلعة مستعداً للمقاومة وجمع فيها ما استطاع أن يجمعه من معدات الحرب والعمال والاجناد ، وفي هذه الاثناء علم أن محمد بك الألفي المنحصر في البحيرة قد اتصل بالأتراك واتفق معهم . فرأى أن المقاومة لن تجدى مادام الشعب لا يظاھرہ ، وأن أعوانه في المقاومة هم قواد الجيش الذين اجتمع بهم وشاورهم فأيدوه في المقاومة ، لأنه مامن أحد منهم إلا وصار له عدة زوجات وعدة بيوت والتزام بلاد (جمع ضرائبها) وسيادة لم يكن يتخيلها ولم تخطر بذهنه أن ينسلخ عنها والخروج منها ولو خرجت روحه ،

ووصلت الأنباء أن الألفي بعث إلى قبودان هدية فيها ٣٠ جواداً و ٤٠٠٠ رأس من الغنم والبقر والجاموس ومائة حمل بالذخيرة ونقود وثياب وأقمشة .

وهنا التجأ محمد علي إلى زعيم مصر الكبير السيد عمر مكرم نقيب الاشراف وبعض الاعيان ، وعرض عليهم الموقف وما فعله الامراء والمماليك واتفاقهم مع السلطان ، وطلب منهم دراسة الموقف فتركوه وانصرفوا .

حدث هذا في يوم الجمعة ولو أن الشعب المصري كان متعلقا بمحمد علي لا يرضى عنه بدليلا ، كما صورته المؤرخون ، لما استدعى بحث الموقف طويلا ، بل كان الرد أن الشعب سيقف بجانب محمد علي في موقفه ومقاومته ولا يحتاج إلى تفكير . ولكن الذي حدث فعلا أن البحث والدرس وتقليب الموقف استمر بين الزعماء المصريين أياما . فعفى السبت والاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء دون أن يتلقى محمد علي ردا ، وهنا قرر محمد علي اتخاذ إجراء حاسم .

بعث باثنين من رجاله هم مدير مكتبه ورئيس التراجمة ، وقد فاجئا السيد عمر مكرم في داره صباح الخميس ، وقدا اليه صورة التماس كتبه ديوان محمد علي ، على لسان المشايخ إلى الباب العالي لتثبيت محمد علي لولاية مصر .

ولو أن المصريين كانوا متمسكين بمحمد علي لوقع الزعماء - الذين دعاهم السيد عمر النقيب إلى داره لبحث هذا التطور الجديد في الموقف - الالتماس دون مناقشة ، ولكن الذي حدث هذه المرة أيضا أن الاجتماع استمر اليوم كله .

وفي اليوم التالي ، السبت ، حمل هذا الالتماس إلى الشيخ عبد الله الشرقاوي ومعه أمر بتنظيم « العرضحال » وترصيعه « وتوقيعه » بتوقيعات المشايخ وبصمه بأختامهم ليرسله الباشا إلى الدولة ، فلم تسعهم المخالفة ، . . . وقد تم هذا فعلا .

وهذا الالتماس رغم طوله لم يخرج عن كونه مدحا للسلطان ، ثم تحقير أعمال الامراء المماليك ، ثم رفع شأن محمد علي وتبرير لبعض تصرفاته التي أنكرها عليه السلطان وينتهي بطلب ابقائه والياً .

وسارع محمد علي ، بطبيعة الحال ، بإرسال العريضة إلى تركيا ، ولكن حدث مساء الاثنين أن وصل إلى القاهرة رسول من قبودان باشا ليبلغ المسؤولين عن الشعب وهم الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والائمة قرار السلطان بعزل محمد علي . ولما كان الأمر قد خرج من أيدي هؤلاء الزعماء بعد توقيع الالتماس ، فقد ذهبوا إلى محمد علي يعرضون الأمر فأمرهم بالعودة إلى منازلهم على أن يرسل اليهم في اليوم الثاني صورة التماس جديد ينسخونه ويوقعونه .

وفي هذا العرضحال يبدي الزعماء خضوعهم وامثال لقرار السلطان ولكنهم

يبدون تخوفهم من الجند ألا يمتثلوا للأوامر بسبب روايتهم . وكان محمد على قد احتاط بتدبير هذه المؤامرة بالاتفاق مع قواد الجند الذين يهمهم البقاء في مصر .

وانتهز محمد على الفرصة وماطل في تنفيذ أمر السلطان ، وهنا وجد قبودان باشا مركزه حرجا ، وأن الاعتماد على الامراء المماليك لاخير فيه وسيؤدي إلى ضياع هيئته ، فقرر رأيه أن يتصل بمحمد على الذي انتهز الفرصة فعرض العروض الباذخة وتعهد أن يؤدي ضعف ماتعهد الامراء بتأديته لقبودان : بعضه معجل والآخر مؤجل .

واتفق قبودان مع محمد على أن يعود إلى استكتاب الزعماء كتابا آخر يرسله اليه مع ولده شخصيا . على أن يتضمن أن محمد على حامى الاقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله وقامع المعتدين وأن السكينة من الخاصة والعامة راضية بولايته وأحكامه وعدله ، وأن الشريعة مقامه في أيامه ولا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم . . الخ الفضائل والصفات التي اتفق قبودان باشا مع محمد على ، على نسبتها إلى مبعوث العناية الالهية لانقاذ مصر !! .

وقد انتهت هذه المساعي كلها بالغاء أمر النقل وتثبيت محمد على على ولاية مصر . وهذه هي حقيقة مطالبة المصريين بولاية محمد على عندما عزله السلطان ، في المرة الثانية . . وهذا هو موقف الزعماء المصريين ، الذين لم يطالبوا بتثبيت محمد على إلا بالحد السيف الذي سلطه عليهم

ولكن ماذا فعل محمد على وأولاده بهذه الثقة الغالية ؟ لقد قرر محمد على منذ اللحظة الاولى أن يستبد بالامر ، ويبعد الشعب وزعيمه عن الميدان . .

وأخذته الغيرة من زعيم المصريين عمر مكرم ، وأنكر منه أن يتحدث اليه عن آلام الشعب بما فرضه عليهم من الضرائب بسبب الاستعداد للحملة الوهابية . . ثم أراد أن يأخذ إمضاء السيد عمر على حساب غير مضبوط أعده ليرسله إلى الدولة . . فأبى السيد عمر مكرم ذلك قائلا :

ان الضرائب المعتادة كانت تكفى لكل مقام به الباشا من الاعمال العامة . . . وإني لا أستطيع أن أشهد بغير ما أعتقد أنه حق . . .

فقرر محمد على التخلص من عمر مكرم . . وأراد أن يحتال عليه ، وطلب اليه أن يذهب لمقابلته في الديوان ، فأجاب السيد عمر مكرم قائلا :

إن الباشا إذا أراد مقابلتي ، فليزل من القلعة لمقابلتي في بيت السادات ، لتكون
المقابلة على سواء .

وكان محمد علي يجمع من الضرائب أكثر مما ينفق .. ويحتجز الاموال لنفسه ،
فاحتج عمر مكرم ، وقال كلاما كثيرا جاء فيه :

أما ماضيه الباشا في سد التبعة فان الذي جمعه وجباه من البلاد يزيد على ماضيه
اضعافا كثيرة ، وأما غير ذلك ، فكله كذب لأصل له ، وإن وجد من يحاسبه على
ما أخذه من القطر المصري من الغرض والمظالم لما وسعته المظالم ..

فقرر محمد علي نفيه من القاهرة ، فابتسم الشيخ علي مكرم وقال :

أما منصب النقابة فاني راغب عنه وزاهد فيه ، وليس فيه إلا التعب : وأما
النفي فهو غاية مطلوب ، وأرتاح من هذه الورطة ، ولكن أريد أن أكون في بلد
لم تكن تحت حكمه ، فإذا لم يأذن لي في الذهاب إلى أسيوط ، فليأذن لي في الذهاب إلى
الطور أو إلى درنة .

فأخبروا الباشا بذلك ، فلم يرض إلا بذهابه إلى دمياط .

وخرج عمر مكرم زعيم الشعب إلى منفاه في ١٣ أغسطس ١٨٠٩ .
وهكذا أخرج محمد علي الشعب المصري من الميدان ، وقرر أن يستبد بأمر
مصر وحده .

وهكذا أنكر فضل هذا الشعب عليه ، وأخذ طريق المستبدين ، وخلفه أبناءه فساروا
في طريقه ، ووضعوا أيديهم في يد أعداء البلاد .. وزاد أمرهم سوءا ، وأحاطت
بهم الازمات ..

وتقدم شعب مصر ليعينهم ، فكروا به ، وسخروا منه ، إلى أن حدث ما لم يكن لهم في حسابان

الأزهر يسير في حياته العلمية :

وقد سار الأزهر في حياته العلمية يائسا من الحكم والولاة ، واهتم علماءه باصلاحه
وصدر أول قانون لذلك في سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧٢) وقد نظم هذا القانون طريقة
نيل الشهادة العالمية وبين مواد امتحانها وقسم الناجحين فيها إلى ثلاث درجات :
(أولى ، ثانية ، ثالثة) على أن تصدر بذلك براءة ملكية بتوقيع ولي الامر :
وعنى الغيورون بالأزهر ، وحرصوا على أن ينهض . وقد كان لهذا التنظيم
الذي بدى في عهد إسماعيل أثره في حفز المهتم على الاصلاح ، فتوالت القوانين
المنظمة للأزهر ، وكان أهمها القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ ، إذ قسم الدراسة بالأزهر

unknown
Source

إلى مراحل ، وجعل لكل مرحلة نظاما ومواد للدراسة ، وحدد اختصاص شيخ الجامع الأزهر ، وأنشأ هيئة تشرف على الأزهر تسمى المجلس الأعلى للأزهر ، وأوجد هيئة كبار العلماء وجعل لها نظاما خاصا ، وجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة التي تدرس في الأزهر شيخا ، ونظم مجالس إدارات المعاهد ، ووضع نظاما للمدرسين والموظفين في التعيين والترقية ، ووضع للطلاب شروطا للقبول ، ونظم الامتحانات والشهادات .

وحدث في هذا العهد عدة أحداث : منها أن بعض الشوام والصعايدة تراحموا في الجلوس في الدرس وتضاربوا فجاء جملة من الشوام بالعصى وساقوا الصعايدة سوقا عنيفا إلى رواق الصعايدة ، فحضرت طائفة من الصعايدة بعصيمهم ووقعوا بالشوام ضربا وهموا وراءهم بقوة شديدة حتى ادخلهم رواق الشوام وحاصروهم به ، ولم يسمع الشوام إلا قفل باب الرواق ، بل تسور لهم بعض الصعايدة من فوق السطح ، واستمروا كذلك ، حتى ذهب الشيخ محمد الراقعي إلى بعض الأعيان من تجار الشوام وأخبرهم ، وذهبوا جميعا إلى خير الدين باشا ضابط مصر ، فأرسل جملة من عساكر الأرناؤود وخلافهم فدخلوا الأزهر بصورة شنيعة وتناولوا على كل صعيدى بلا تحقيق فأخذ الصعايدة في الذب عن انفسهم حتى أخرجوا العساكر من الأزهر ولم يلبثوا أن جاءت عساكر جهادية وأتراك بكثرة من طرف الضابط لما بلغه من التهويل فدخلوا الأزهر بأسلحتهم ونفيرهم وطبلهم لابسين أحذيتهم فقبضوا من الصعايدة على نحو ثلاثين وسجنوهم بالمحافضة ، ثم أخذوا ثلاثة من مشايخهم وعوقبهم هناك قليلا وبعد مدة أطلقوهم ، وبقي المجاورون في السجن وكان إذ ذاك سعيد باشا في الأرض الحجازية فسعى بعض المشايخ عند وكلائه في الإفراج عنهم فأفرج عنهم بعد نحو عشرين يوما وحصل الكلام في طريقة يسير عليها الأزهر حيث أن شيخه أقعده الكبر ، واجتمع الرأي على توكيل أربعة من العلماء ، وصدر الأمر بذلك ، وكان في مشيخة الشيخ الباجوري .

حادثة الشوام :

وقد حدثت هذه الحادثة المفجعة في ١٩ من ذى الحجة سنة ١٣١٣ بالآزهر الشريف في مشيخة شيخ الأزهر حسونة النواوى بسبب وباء ذلك العام وتفصيلها أنه مرض برواق الشوام مجاور بالطاعون ، وحضرت الحكومة لنقله بالعربة السوداء للمستشفى وكان من أخذ بها لا يرجي له أن يثم هواء الدنيا ، فأبت رفقة من طلبة الأزهر

تعليمه حيث كان قد أخذ آخر ولم يوقف له على أثر ، فاشتد الجدل بين الفريقين وأبلغ الأطباء الحكومة أنهم أهيئوا ، فحضر إلى الجامع الأزهر المحافظ ومعه وكيل الحكمدارية وشرذمة من العساكر فحبل البجاورين الشوام أنهم مأخوذون للاحالة ، فتناولوا على المحافظ ورجوه ومن معه ببعض الحجارة ، فصاب وكيل الحكمدارية رمية فخرج وكانت الشوام أغلقت باب الشوام ، فطلب قوة عسكرية أخرى فحضرت وعملوا حصارا على الجامع الأزهر وأمر الحكمدار العساكر بكسر الباب وإطلاق الرصاص على الطلبة داخل الجامع فانقضوا عليه حتى خلعوا عقب إحدى أبوابه ، ثم بدأ الحكمدار بطلق بندقيته واتبعته العساكر بإطلاق الرصاص ، فتفرق الطلبة في جميع نواحي الجامع ثم دخل الضباط والعساكر واشتغلوا بضبط من بالأزهر مع الاهانة من غير تمييز بين طالب وعالم ، فقبضوا على ٨٢ من الشوام و ٢٣ من المصريين وفيهم بعض المدرسين وأصيب بالرصاص خمسة مات بعضهم في الحال وبعضهم بعد ذلك ثم أفرج عن المقبوضين وانحصرت التهمة في ١٤ تقريرا من الشوام ونفى البعض وسجن البعض ، وأقفل رواق الشوام سنة كاملة ، واستاء لذلك الخديوي وشيخ الأزهر وانصدعت لذلك قلوب الشعوب الاسلامية .

جهاد الأزهر في الثورة العراقية :

قام الأزهر بنصيب (١) كبير في إذكاء الحماسة ونشر التعليم وإعداد النفوس لتلبية نداء الحرية ، فقد قام رجاله وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوي منذ أوائل القرن التاسع عشر بإعلان حقوق الشعب والزام الوالي باحترام هذه الحقوق ، ثم ظهر بعد ذلك رجال أفذاذ سجلوا للأزهر صفحات خالدة في تاريخنا مثل رفاعة رافع والسيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده .

فالأول كان زعما نهضة العلم والأدب في عصره ، ومن أهم أعماله تأسيس مدرسة اللسان التي خرجت نخبة من العلماء والأدباء والشعراء ، كما قام بترجمة الدستور الفرنسي ، وعلق على الترجمة تعليقات تدل على فهم صحيح لأحكامه ومبادئه ، وميل فطري إلى (٢) النظم الحرة ، وترجم القانون المدني الفرنسي ، ونشر رحلته في فرنسا وسمها "تخليص الإبريز" ، ولم يقتصر نشاطه على التأليف

(١) مجلة الأزهر ١٣٧٢ - الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله .

(٢) تاريخ الحركة القومية الراقية ج ٣ ص ٤٧٩ .

والترجمة والتدريس ، بل خدم الأدب ، وله قصائد شعرية تدل على وطنية صادقة وتفان في محبة الوطن ، وبلغ من حماسه أنه عرب نشيد المارسلين الفرنسي الذي يعتبر من أجمل الأناشيد الحماسية القومية ، حتى لا يحرم أبناء وطنه من تذوق هذا النشيد . وأما السيد عبد الله التديم ، فقد حاول أن ينفث في الأمة الحماسة كي يستيقظ الشعب من غفوته ، ونادى بضرورة تعليم أبناء الوطن تعليماً نافعاً ، وفي سبيل تحقيق أغراضه أسس « الجمعية الخيرية الإسلامية » ونحناحوا جديداً لنشر أفكاره ، فألف مسرحيتين إحداهما (الوطن وطالع التوفيق) والأخرى (العرب) ، مثلهما هو وتلاميذه على مسرح زينبيا بالاسكندرية . وقد بين في مسرحيته الأولى جميع الأمراض والعلل التي تهدد الأمة في وجودها .

وبينما كان صوت التديم يجلجل بالاصلاح ويمهد للثورة في نفوس المثقفين كان الشيخ محمد عبده يبث تعاليم السيد جمال الدين الأفغاني في دروسه ، ويعالج الشؤون العامة للبلاد في صحيفتي الأهرام والوقائع الرسمية ورأس الثورة المفكر أحمد عرابي (باشا) تلقى علومه في الأزهر مدة أربع سنوات ، وكان لهذه المدة على ضآلها أثر كبير في تكوين شخصية عرابي كزعيم ثوري ، إذ جعلت منه خطيباً مفوهاً يستولى على عقول سامعيه ويهزم مشاعرهم ... ووسط هذا النضوج الذهني اندلع لبيب الثورة .

وفي ٢٥ مايو عام ١٨٨٢ قدمت كل من إنجلترا وفرنسا مذكرة يطالبان فيها بإبعاد عرابي (باشا) وإرسال كل من : علي (باشا) فهمي وعبد العال (باشا) حلى إلى أية جهة داخل القطر المصري ، واستقالة وزارة البارودي ، فرفض مجلس الوزراء مطالب الدولتين ، واجتمع أحمد عرابي ومحمود سامي البارودي وكبار الضباط في قشلاق عابدين وانفقوا فيما بينهم على أن يكونوا بدا واحدة في الدفاع عن البلاد ، وارسلوا إلى الشيخ محمد عبده ليضع له صيغة يمين الثورة فوضعها لهم ، وتلاها عليهم ، فرددوها في صوت واحد .

واستقالت وزارة البارودي يوم ٢٦ مايو عام ١٨٨٢ ، وأراد الخديوي توفيق أن يبث التفرقة في صفوف الزعماء ، فعقد اجتماعاً يوم ٢٧ مايو حضره من العلماء الشيخ محمد الانباني شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوي والشيخ أبو العلا الخلفاوي وحضره شريف باشا وكبار النواب والضباط وعرض الخديوي على المجتمعين تشكيل وزارة برياسته ، وقبول المذكرة الانجليزية الفرنسية .

فأجاب طلبة باشا عصمت على كلام الخديو قائلا : إننا مطيعون لجناب السلطان الشاهاني وللجناب الخديوى . ولكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولاحق للدولتين فى طلب تنفيذها ، فهى تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها ويستحيل علينا قبول أحد رئيسا للجهادية خلاف رئيسنا أحمد عرابى ، ، ووافق على قوله الشيخ عليش والعلماء جميعا . ثم غادر طلبة باشا مجلس الخديو بدون استئذان وتبعة الضباط والعلماء وبعد ضرب الأسكندرية فى ١١ يولية عام ١٨٨٢ هب عرابى باشا للدفاع عن البلاد ، فأصدر الخديو أمر بعزله فى ٢٠ يولية ، وبناء على ذلك اجتمع المؤتمر الوطنى للمرة الثانية فى ٢٢ يولية سنة ١٨٨٢ ليقرر موقف الأمة من الخديو الذى أعلن بتصرفاته انضمامه إلى الانجليز . وتلا الشيخ محمد عبده على أعضاء المؤتمر أوامره الخديو التى تثبت إدانته ومنشورات عرابى باشا التى تدعو إلى الدفاع عن الوطن . ثم ألقى على باشا الروبى خطبة ندد فيها بموقف الخديو المزرى لإزاء قضية البلاد ، ثم تليت فتوى شرعية أصدرها العلماء بمروق الخديو عن الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده ، فأصدر المؤتمر الوطنى قراره التاريخى بعزل الخديو ووقف أوامره وتكليف عرابى بالدفاع عن البلاد ، وتكليف المجلس العرفى بتبليغ هذه القرارات للسلطان ، ووقع الحاضرون على ماقرره المؤتمر الوطنى وكان من بين العلماء الموقعين على ذلك : الشيخ محمد الأنباى شيخ الجامع الأزهر ، الشيخ حسن العدوى ، الشيخ عبد الله الدرسناوى مفتى الحنفية ، الشيخ محمد عليش مفتى المالكية ، الشيخ يوسف الحنبلى مفتى الحنابلة ، مفتى الأوقاف ، الشيخ عبد الهادى الاييارى ، الشيخ محمد الأشمونى الشيخ خليل العزاوى ، الشيخ مسعود النابلسى ، الشيخ محمد القلباوى ، الشيخ زين المرصنى ، الشيخ حسين المرصنى ، للشيخ سليم عمر القلعاوى ، الشيخ عثمان مدوخ ، الشيخ عبد الرحمن السويسى ، ومن رجال القضاء الشرعى : الشيخ أبو العلا الخلفاوى الشيخ عبد القادر الرافعى ، الشيخ عبد القادر الدليشانى . الشيخ أحمد الخشاب .

الأزهر يغذى ثورة هرابى :

ولقد كان البارودى ومحمد عبده وسعد زغلول ومحمد نديم قادة التفكير والقلم فى هذه الثورة ، واستأنفت الحركة الفكرية سيرها الذى قطعتة الحوادث ، وبدأت طلائع نهضة جديدة فى الآداب العربية ، وظهر فى الإنتاج الأدبى يومئذ عنصر قوى من الأدب المبتكر ، وأخذت فى نفس الوقت عناصر الثقافة الجديدة تحدث أثرها فى إنتاج الجيل الجديد . ويعود الفضل فى ذلك كله إلى الأزهر ، وظهرت

طائفة من المؤلفات والكتابات القومية التي تحررت من أغلال القديم سواء في اللفظ أو المعنى ، وحملت هذه الروح الجديدة في طريقها كل شيء ، وغدت أقوى دعامة في صرح النهضة

قويت الحاجة إلى الصحافة وظهر عبد الله نديم بجريدته « التنكيت والتبكيك » ، إلا أن النديم أبدل الاسم في آخر لحظة باسم الطائف تيمنا باسم مدينة الطائف في الحجاز ، وبالنسبة إلى أنها تطوف بأرجاء الدنيا ، كما كانت « الجوائب » التي يصدرها أحمد فارس الشدياق باستامبول تجوب أرجاء العالم . واتخذ رجال الثورة « الطائف » لسان حالهم ، فكانت تذيع المنشورات والأوامر وتحض على الجهاد ، وكانت تطبع من داخل معسكر كفر الدوار

وإلى جانب الطائف صدرت عدة صحف للثورة منها : المفيد للسيد أمين الشمسي والزمان ، والاعتدال وغيرها

وقام الشعراء في القاهرة وفي الإسكندرية يلقون الأشعار الحماسية والقصائد الوطنية ، فمن ذلك ما نظمه أحد علماء الأزهر من قصيدة مطولة له يقول فيها :

لعمرك ليس ذا وقت التصابي	ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوى	ولا وقت التغافل والتغابي
ولا وقت التشبيب في سليبي	ولا وقت التشاغل بالرباب
ولكن ذا زمان الجد وافي	وذا وقت الفتوة والشباب
ووقت فيه الاستعداد فرض	إقامة بالقلع وبالمطوابي
ووقت فيه الاستعداد فرض	لتنفيذ الأوامر من عرابي
وقولوا يا عرابي دم رئيسا	لحزب النصر محفوظ الجناب

ومن قصيدة أخرى لشاعر آخر جاء فيها :

نوال المعالي من طعان الكتائب	ونيل الأمان من ثمار المتاعب
وظهر الأعادي بالتدبر أولا	وبعد بإشهار السيوف القواضب
ومن كعرابي في البرايا وحزبه	أولى العزم أصحاب القنا والقواضب

وقام الخطباء يحضون الشعب على مقاومة أعداء الدستور ، والأخذ بناصر زعماء الثورة ، وكان عبد الله نديم خطيب الثورة لا يفتأ يخطب في كل ناد ومجتمع ومسجد ، فمن ذلك خطبته التي خاطب بها جنود الجيش :

حماة البلاد وفرسانها . من قرأ التاريخ ، وعلم ما توالى على مصر من الحوادث

والنوازل، عرف مقدار ما وصلتكم إليه من الشرف، وما كتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات، فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم إليها سابق، ولا يلحقكم في إدراكها لاحق ألا وهي حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنهما، فلكم الذكر الجميل والمجد المخلد يباهى بكم الحاضر من أهلنا، ويفاخر بأثركم الآتي من أبنائنا فقد حبا الله الوطن بحياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقي، فإن الأمة جسده والجند روح، ولا حياة للجسم بلا روح، وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم وكانت خطبة الجمعة في المساجد تحض على الجهاد، فمن ذلك خطاب الشيخ على المليجي في مسجد أسيوط حيث كان يحض المصلين على الغزو والجهاد والتطوع في سبيل نصرة الجيش، إذ قال:

إن الانجليز قد طاشت عقولهم، وعميت بصائرهم، فلم يحسنوا الضروريات، فساموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها، وساقوا إلينا من زيف المعارضات خسيسها. وقابلوا عيشنا بخداع، وقتشوا أكتافنا لغدر أضمره ليوم النزاع، ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الايمان. وفيما لهم بعقد الذمة والامان. فعاملناهم بالحسنى، وجبرنا ما كان منهم ضعفا ووهنا، فلما صحت أبدانهم، وعمرت أوطانهم، لم يقنعوا، فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب، فخرّبوا بيوتهم بأيديهم من غير زعزعة منا ولا اضطراب. وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء.

وقد بذل العلماء جهودا كبيرة، في سبيل الدفاع القومي، فدعوا إلى التطوع في صفوف الجيش المصرى وإمداده بالمؤن والتبرعات. وكان من أبرزهم الشيخ محمد عبده، والشيخ حسن العدوى، والسيد عبد الله النديم الذى كان لسان الثورة الناطق والذى كان يستدعى للخطابة بالبرق، حتى لقب بخطيب الثورة، بل (خطيب الشرق) وبعد انتهاء الثورة العراقية قبض على زعمائها وعلى المشتركين فيها وقدموا للحاكم وهذا بيان بالعلماء الذين قبض عليهم والأحكام التى صدرت ضدهم، وأمام كل منهم اسم البلد التى اختارها لمنفاه (١):

الشيخ عبد الرحمن عlish، وقد نفي خمس سنوات خارج القطر المصرى بالآستانة
الشيخ عبد القادر قاضى مديرية القليوبية، وقد نفي أربع سنوات خارج القطر
المصرى ببيروت

الشيخ محمد الهجرسى، وقد نفي أربع سنوات خارج القطر المصرى بمكة المكرمة

(١) الثورة العراقية الرافعى صفحة (٩٤٠) وما بعدها.

الشيخ أحمد عبد الجواد القاياتي ، وقد نفي أربع سنوات خارج القطر
المصري بيروت

الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي ، وقد نفي أربع سنوات خارج القطر
المصري بيروت

الشيخ يوسف شرابة ، وقد نفي أربع سنوات خارج القطر المصري بغزة
الشيخ محمد عبده ، وقد نفي أربع سنوات خارج القطر المصري بيروت
هذا مع تجريدهم من الرتب والامتيازات والمناصب وعلامات الشرف .
وحكم على العلماء الآتية أسماؤهم بتجريدهم من جميع رتبهم وعلامات شرفهم
وامتيازاتهم :

الشيخ حسن العدوي وابنه الشيخ أحمد العدوي - الشيخ أحمد المنصوري -
الشيخ محمد السملوطي - الشيخ أحمد البصري - الشيخ محمد أبو العلا الخلفاوي
العضو الأول بالمحكمة الشرعية - الشيخ عبد الوهاب عبد المنعم قاضي إسنا سابقا -
الشيخ محمد أبو عائشة قاضي بور سعيد سابقا - الشيخ علي الجمال نقيب الأشراف
بدمياط - الشيخ أحمد عبد الغني - الشيخ محمد عسكر - الشيخ أحمد مروان -
الشيخ محمد جبر قاضي المنصورة سابقا - الشيخ عبد البر الرملي قاضي العريش
سابقا - الشيخ أحمد صلي نائب محكمة المنصورة سابقا - الشيخ محمد غزالي قاضي
مركز البحيرة .

وقد استدعى الشيخ حسن العدوي من السجن لمحاكمته يوم الثلاثاء
(١٤ محرم سنة ١٣٠٠ - ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢) ، فنطق بالحق غير هياب
ولا وجل ، ولا مكترث بالحكم الذي سيصدر عليه ، ونقتبس هنا طرفا من محاكمته :
سئل رحمه الله تعالى : هل ختم على عزل الخديو وإسناد أمر الدفاع عن البلاد إلى
عرابي باشا برغبته ورضاه ، أم لسبب آخر ؟ . فأجاب : ختمت تابعا للعلماء الذين
ختموا قبلي مثل شيخ الاسلام ومفتي الجامع الأزهر وشيخ الجامع وغيرهم ،
وكان ختمى برغبتي ورضائي للدفاع الواجبة شرعا وسياسة ، وما كان ينبغي لأحد
أن يمتنع عن الختم . ولما سئل : هل علم المجلس أنك اقتصت بعزل الجناب الخديو
فهل هذا حقيقة أم لا ؟ أجاب : بأنه : لم تصدر مني فتوى في ذلك ، ولم أسأل
في هذه المادة . ومع ذلك فإن جئتموني الآن بمنشور فيه هذه الفتوى فإنني أوقعه ،
وما في وسعكم وأتم منلهون أن تشكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل لأنه خرج
عن الدين والوطن .

وقد وقفنا على قصيدة لحضرة الفاضل الشيخ محمد النجار جمعت ما جمعت من وصف
الحال في الثورة العراقية ، والدعاء لاستنهاض الهمم واستثارة الحمية ، وجاء فيها :

بالنصر قد جاء الكتاب مشيراً	وبه أتى هادي الأنام بشيراً
يا أحمد المرجو لمصر ومن غدا	فيما أمينا للجيش أميراً
بشارك بالنصر المبين فتق به	وكفى بربك هاديا ونصيراً
فازحف بحيشك يا مظفر ضارباً	في الانجليز وقاتلن سيمورا
واقطع بسيفك أمة قد أمروا	اثق عليهم اذ عدمن ذكورا
قوم تربوا في التلوج فطبعهم	يهوى البرود ولا يطيق حرورا
يا يوم قد خرجوا وجر وبورهم	رما وجرحاهم تمج بحورا
رجعوا ويوم السبت مبعوض لهم	لألم يروا في يوم سبت نورا
قد احرقوا قتلاهم من ظلمهم	حتى لقد ظللوا بذاك سعيراً
ضربوا مدافع حزنهم أسفاً على	من مات منهم خاسئاً وحسيراً
ندبوا رؤوسهم وقد هلكوا وما	بالبحر إلا من رأيت صغيراً
كتبوا لسيدة لهم أن جهزي	غنا لعيد المسلمين كثيراً
وتغيبوا عنا زماناً وانثوا	مثل الفراش قد مروا تدميراً
يا انجليز ومن ينادي ميتاً	يخطي وكيف أخاطب المقبوراً
بالفرجتم بغتة وضربتمو	من غير وعد أولاً وأخيراً
واسكندرية قد ضربتم دورها	ما الحرب ضربكم البنا والدورا
ما عندنا الا رجال ذكرهم	يسمو على مر الزمان دهورا
ما عندنا إلا أسود عساكر	وقفت لتتحر بالسيوف نحورا
أنسيتمو أرضاً حببكم ثروة	وسكنتموها جنة وقصوراً؟
ورأيتم فيها رجالاً أمرهم	في حفظهم لكم غدا مشهوراً
أنسيتم أرضاً دخلتم روضها	وجنيت ثمرها به وزهوراً؟
ذوقوا رصاصاً من بنادق هيئة	لكم لتشرح في الصدور صدورا
وخذوا مدافعاً بالقنابل أرسلت	لكم لتأخذ جسمكم وتطيرا
هذا جزاؤكم على كفرانكم	نعم ، ولا يرضى الإله كفورا

نحن الآلى كنا نياما حيث لا
نمنا كاهل الكهف دهرنا ليتنا
نحن الآلى كنا ضعافا حيث لا
حتى فقدنا قوة العرب الآلى
واليوم نهنا الزمان وجاءنا
يا طالما كذبت جرائدكم على
وبعثتم أولادكم ونساءكم
كنا ضعافا حيث لا حرية
واليوم قام لأحمد الجيش الذى
وأنته من أهل البلاد إعانة
عرب التقي أهل التقي من خيلهم
وعساكر هجموا أسودا فى الوغى
ورجال دين حيث قد خافوا على
خافوا على أعراضهم من أمة
خافوا على أوطانهم وبلادهم
خافوا على جعل المساجد مربطا
خافوا على الكتب التى قد دونت
خافوا على آل الرسول وبيته
خافوا على الدين القويم وأهله
خافوا على مفتاح بيت الله
خافوا على ترك الفروض وقطعنا
يامسلمون استبشروا فعدوكم
ولسوف يغلو قدركم ومقامكم
يا أيها الشجعان هذا وقتكم
أن الحياة مع المذلة موة
كونوا كما أنتم عليه وجاهدوا
بيضتم صحف التواريخ التى
عدل وكان أميرنا مأمورا
قد كان حافظ أمرنا قطميرا
شرح وكان كتابنا مهجورا
فتحوا البلاد وأحسنوا التدبير
حامى حى القطر السعيد بحيرا
أولاد مصر واقترقتم زورا
وسقيتم أهل الفساد خمورا
فينا ولم نعرف لذاك غيورا
وافى وأصبح جيشه منصورا
وعساكر ضربوا لذاك فقيرا
سبقت لتنزل فى العدو صفورا
ولدى اصطفا ف الصف صاروا سورا
ذرية من بعدهم تكفيرا
خانت وكم فضحت وفضت حورا
خافوا على جعل الغنى فقيرا
للخيل أوجعل الرجال حميرا
ولكم حوت علما يزيدك نورا
والله فضلهم عليك كثيرا
من أشبهوا فى الاهتداء بدورا
والبقع التى قد طهرت تطهيرا
جهر الأذان وهجرنا التكبيرا
ولما، وأصبح جيشه مكسورا
يعلو وأمركم يكون شهيرا
فأروا العدا عزما لكم مشهورا
وبها نرى عذب المذاق مريرا
حق الجهاد وحاذروا التأخيرا
فاحت بذكركم الزكى عبيرا

لا كان أخذ الانكليز بلادنا
 والله لو رحننا جميعا مانرى
 أرض سقيناها دموع عيوننا
 أرض عليها استشهدت أجدادنا
 إن عاش منا واحد يأسعده
 وطن بأيدينا زرعنا أرضه
 يا آل مصر ألافقوا عزمكم
 يا آل مصر ألا أعينوا جيشكم
 إذ قام يحفظ أرضكم وبلادكم
 يا آل مصر ألا اتركوا من عضدوا
 هم خائنو الوطن الذى شبوا به
 هم خائنو الرتب التى قد نقصت
 آل النفاق علام تبغون العدا
 أم أنهم لا كنتم أحبابكم
 فى بورسعيد وغيره قد خنتم
 بور لكم ، وسعيد طالع وقتنا
 من لم يكن فيه لمسقط رأسه
 سارى بسعد الفال شعري ناطقا
 عما قريب سوف يظفر جيشنا
 ونرى الآلى حملوا لواء النصر فى
 ويسرنا تقبيل مسك وجوههم
 ونرى بهذا القطر أعظم زينة
 ونرى لمصر سعادة أبدية
 وتكون للسلطان أعظم قوة
 وهى صورة للشعر الوطنى فى الثورة القومية الوطنية التى قام
 بها عرابى وإخوانه .

قوانين الأزهر

ومنذ عام ١٨٧٢ م (١٢٨٨ هـ) وضعت للأزهر عدة قوانين لتنظيمه وإصلاحه من أهمها :

- ١ - قانون بتنفيذ قانون التدريس - ٣ من فبراير ١٨٧٣ .
- ٢ - قانون امتحان من يريد التدريس بالجامع الأزهر - ٢٤ من مارس ١٨٨٥
- ٣ - قرار بضبط عدد أهل الجامع الأزهر - ١٥ أكتوبر ١٨٨٥
- ٤ - قانون بامتحان التدريس - ١٩ يناير ١٨٨٨ .
- ٥ - قانون بتشكيل مجلس إدارة الأزهر - ٣ يناير ١٨٩٥ .
- ٦ - قانون بامتحان من يريد التدريس في الأزهر - ١٧ يناير ١٨٩٥ .
- ٧ - قانون صرف المرتبات بالأزهر - ٢٩ يونيو ١٨٩٥
- ٨ - قانون كساوى التشريفة العلمية - أول فبراير ١٨٩٦
- ٩ - قانون الجامع الأزهر - ٨ محرم ١٣١٤ - أول يوليو ١٨٩٦

بعد الثورة العرابية

واصل الأزهر سيره العلمي بعد الثورة ، وعنى الامام محمد عبده والمصلحون من من علماء الأزهر بالدعوة إلى تجديد الدراسة في أروقة الأزهر ومعاينه وقد صدر عام ١٣٢٩ هـ ، ١٩١١ م قانون باصلاح الأزهر الشريف ، كان له أثره الكبير في حياته العلمية ، وجاء في المادة الاولى منه أن الجامع الأزهر هو المعهد الدينى العلمى الاسلامى الأكبر : والمعاهد الاخرى هى : معهد مدينة الاسكندرية : معهد مدينة طنطا : معهد مدينة دسوق : معهد مدينة دمياط . . وكل معهد يؤسس فى القطر المصرى بارادة سنية ، وكذا كل معهد أهلى يتقرر إلحاقه بالجامع الأزهر أو بأحد المعاهد الأخرى بالشروط والاضاع التى تبين فى لائحة يضمها المجلس الأعلى ويصدق عليها بارادة سنية .

وجاء فى المادة الثانية أن الغرض من الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى هو القيام على حفظ الشريعة الغراء وفهم علومها ونشرها على وجه يفيد الأمة وتخرج علماء يوكل اليهم أمر التعاليم الدينية ويلون الوظائف الشرعية فى مصالح الأمة ويرشدونها إلى طرق السعادة .

وفى المادة الثالثة تكون مدرسة للقضاء الشرعى قسماً ملحقة بالجامع الأزهر وتبقى حافظة لنظامها المقرر لها فى قانون ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٧ ، ويحل مجلس الأزهر الأعلى

محل ناظر المعارف العمومية في جميع الاختصاصات التي له الآن بمقتضى القانون المشار اليه وتفصل ميزانية المدرسة عن نظارة المعارف ويخصص لها باب مستقل في ميزانية الحكومة العمومية ، وتجري عليها الاحكام المتعلقة بها ويبقى موظفو المدرسة من مستخدمى الحكومة .

وفي المادة الرابعة أن شيخ الجامع الأزهر هو الامام الاكبر لجميع رجال الدين والرئيس العام للتعليم فيه وفي المعاهد الاخرى والمشرف الاعلى على السيرة الشخصية الملازمة لشرف ، العلم والدين بالنسبة الى من ينتمى لجميع المعاهد من أهل العلم وحمله القرآن الشريف وكذا من كان من أهل العلم وحمله القرآن الشريف من غير المصريين وفي المادة الخامسة أن شيخ الجامع الأزهر بصفته رئيس المجلس الاعلى هو المنفذ الفعلى العام لجميع القوانين واللوائح والقرارات المختصة بالجامع الأزهر والمعاهد الاخرى . وأرباب الوظائف في جميع المعاهد تابعون لهذه الصفة وخاضعون لأوامره ، طبقاً لما هو مقرر في هذا القانون .

وفي المادة السادسة يكون لكل مذهب من المذاهب الاربعة بالجامع الأزهر شيخ ، وكذا يكون لكل معهد من المعاهد الاخرى . ويجوز عند الاقتضاء تعيين وكلاء للجامع الأزهر ولباقى المعاهد ، ويكون لهم جميع الاختصاصات التي للمشايخ في حال غيابهم الرسمى .

وفي المادة الثامنة والتاسعة يكون بالجامع الأزهر مجلس يسمى مجلس الأزهر الاعلى . وتنشأ مجالس إدارة للأزهر وللمعهد الاسكندرية وطنطا . ويؤلف مجلس الأزهر الاعلى من شيخ الجامع الأزهر بصفة رئيس ومن ثمانية أعضاء هم : شيخ السادة الحنفية ، شيخ السادة المالكية ، شيخ الشافعية ، شيخ السادة الحنابلة - مدير عموم الأوقاف المصرية - ثلاثة ممن يكون في وجودهم بالمجلس فائده لترقية التعليم وحسن انتظام ادارته بشرط أن يكونوا من الحائزين للصفات الملازمة لحالة الجامع الأزهر والمعاهد الاخرى ، ويكون تعيينهم بأرادة سنية بناء على قرار من مجلس النظار - وفي غياب شيخ الجامع الأزهر ينوب عنه في الرئاسة شيخ السادة الحنفية .

وفي المادة العاشرة يختص مجلس الأزهر الاعلى بما يأتى :

أولاً - وضع الميزانية العمومية للجامع الأزهر والمعاهد الاخرى .

ثانياً - النظر في إنشاء المعاهد الدينية العلمية الاسلامية وإلحاق بعض المعاهد الصغرى بالتى هي أكبر منها أو تغيير تبعيتها .

ثالثا - النظر في فصل المعاهد من تبعية غيرها وجعلها تابعة للجامع الازهر مباشرة
رابعا - النظر في إنشاء مجالس إدارة للمعاهد التي ليس لها مجلس ادارة
خامسا - وضع النظم العامة للتدريس والامتحانات
سادسا - التصديق على تقرير الكتب التي تدرس بالجامع الازهر والمعاهد الاخرى
سابعا - النظر في ترشيح مشايخ المعاهد الاخرى والوكلاء وترقيتهم ونقلهم وفصلهم
ثامنا - النظر في ترشيح مجالس الادارة .
تاسعا - التصديق على ما تقرره مجالس الادارة من تعيين المدرسين والموظفين وترقيتهم
ونقلهم وفصلهم .
عاشرا - النظر في منح كسوى التشرية العلمية لمستحقين بناء على قرارات
مجالس الادارة .

وقد نصت مواد القانون على أن مجلس الازهر ينعقد بالجامع الازهر مرة في
كل شهر على الاقل بدعوة من الرئيس ، ولشيخ الجامع عقده أكثر من ذلك من
ذلك ان دعا الحال .

وأن قرارات مجلس الازهر الاعلى تكون بأغلبية الآراء ، وان استوى الفريقان
فالارجمية للفريق الذى فيه الرئيس ، ولا تصح مداولته إلا إذا حضر الجلسة ستة
من الاعضاء سوى الرئيس .

وفى المادة الثانية بعد المائة وما بعدها : يكون بالجامع الازهر ثلاثون عالما اختصاصيا ،
لكل واحد منهم بالازهر كرسي خاص فى المحل الذى يخصص للتدريس العام بمعرفة
شيخ الجامع الازهر ويجوز أن يوجد البعض منهم فى المعاهد الاخرى بصفة شيخ
المعهد أو وكيله .

ويطلق على العلماء الثلاثين المذكورين فى المادة السابقة اسم هيئة كبار العلماء .

ويشترط فيمن ينتخب ضمن هيئة كبار العلماء :

أولاً - أن لا يكون سنه أقل من خمس وأربعين سنة .

ثانيا - أن يكون قد مضى عليه وهو مدرس فى الجامع الازهر والمعاهد الاخرى عشر
سنين على الاقل منها أربع على الاقل فى القسم العالى .

ثالثا - أن يكون قد ألف كتابا فى أحد العلوم الاسلامية ، وان يكون قد منح
الجائزة العلمية المنصوص عليها فى المادة الثانية والعشرين بعد المائة فى هذا القانون

رابعا - أن يكون معروفا بالورع والتقوى وليس فى ماضيه ما يشين سمته .

الأزهر والحركة الوطنية عام ١٩١٩

فجأة وعلى غير تدبير سابق نهضت مصر نهضتها الكبرى عام ١٩١٩. كما تضىء في الحفلة الرحبة الجوانب مئات الثريات الكهربية بحركة لينة من أصبعك. ومرد هذه اليقظة الشاملة شعور مصر في كل حين أن حقها سليب وحريتها منتهبة، واستقلالها مفقود، وإنما تحتاج التهضات الأخرى إلى تدبير سابق يسلم من العمر سنوات في غير النهوض للحرية والاستقلال. أما المصريون أحياء يحسون ويشعرون، والإنجليز أمامهم في مظهر السيادة والتملك، فلم يحتاج الأمر إلى تدبير مبيت في الخفاء، إلا أن يهتف هاتف: أيها المصريون هذا يوم الخلاص، ليدوى الصوت في أفق مصر ويستجيب له صائد الأسماك في بحيرة رشيد، كما يستجيب له القابض على يد المحراث في وادي حلفا.

خرجت مصر كلها... كلها حقا، تطالب الحرية وتنشد الاستقلال، وتدفقت قوة الشباب في جسوم الشيوخ، وجرت البطولة في أبدان الشباب، وتفتحت البطولة في روح الأطفال والغلمان، واحتوت الشجاعة والحماسة قلوب السيدات قرويات وحضریات، وأصبحت مصر أغرودة الجميع وحرية مصر لحنها يردده كل فم، واستقلال مصر آية مقدسة يرتلها العابدون الخاشعون

ولقد تجلت كبرياء هذا العهد على الأزهر إذ كان مكانا صالحا للنهوض، وحمل أبنائه علم الجهاد الشريف الوادع.

تبعظ الأزهر دفعة واحدة وتحركت بواعث النخوة والوطنية فيه، كما تحرك كل ما في مصر، وانتظم الجيش المسلح بإيمانه المعتقد بحقه، ورفعت الراية، وأصبح معهد الدين والعلم مستقر النهضة الكبرى ومستودع آياتها، وعلى أبوابه سقط أول شهيد مصري وهو من أبناء الأزهر، احتمل المدفع الرشاش بين يديه. وكان لا يدري ما ذا يصنع به، وبينما هو يهيم أن يقصيه في مكان ما. إذا بثلاثين رصاصة تخترق جسمه فيخز صريعا!

ولست أستطيع أن أقول شيئا عن الاجتماعات التي عقدت في الأزهر، فلم يكن منبره يخلو لحظة من خطيب. ولا عن أولئك الرجال الأبطال الذين كانوا يتوسدون أيديهم، وينامون على أرض ذلك المسجد الفسيح... ومن المجاهدين من علمائه

الزنكلوني ، وعبد الباقي سرور ، والشيخ أبو العيون وسواهم ، من اشتدت الحركة الوطنية بفضل ما أفادوه في بعث روح الإقدام والجرأة في نفوس المصريين .

وكان الفقيد الكريم القاياتي يؤوب من المظاهرة في منتصف الليل ، فيطوى رداءه تحت رأسه على « حصيرة » في الأزهر وينام حتى الصباح لينخطب في المجتمعين . أما المظاهرات فحدث عن إقدام الأزهريين ولا حرج ، فقد كانت طرقات مصر كلها تغص بهم ، وتمتلئ رحابها بإقدامهم ، وهم يتراكضون في أنفة وعزة وشموخ إلى غاية المجد ، إلى حيث الحرية والاستقلال

كان كل شيء في هذه النهضة جميلا ساميا ، كأننا في جنة من جنات الخلد ، وكان الشعور السائد القوي ، شعورا سماويا ، حتى نسينا البغض والحقد والتمرد على الواجب ، وأصبح كل فرد يحتضن أخاه المصري كأنهما ولدا في منزل واحد ، ويناجيه كأنه وليه الحميم .

في هذا العهد الذي كان يتهم فيه الأزهر بالتعصب وصرامة الرأي ، كان هو الذي فتح أبوابه لأبناء الطائفة القبطية محتفلا مرحبا ، وكانت هذه الظاهرة العجيبة من أقوى أسباب التضامن الوثيق بين العنصرين .

كذلك اغتبط الأزهريون وفرحوا أن تشترك المصريات في هذه النهضة ثائرات ومحجبات ، ورأينا القس يعانق الشيخ الأزهرى فوق منبر الأزهر ، كذلك رأينا السيدة المصرية تخطب في هذا المكان المقدس ونذكر أن السلطة قررت منع الجمهور من دخول الأزهر ، وأرصدت على أبوابه طائفة من الجنود المصريين وطائفة من الإنجليز

وكان من يحضرون إلى الأزهر ، يلقون أمر المنع ، غير أن الوطنية المصرية أبكت على الجنود المصريين أن يشتركوا في صد جماهير الأمة عن كعبتها المقدسة ، فكانوا يقولون لكل من يفد :

زاوية العميان !

وكانوا يقصدون بهذا القول أن يرشدوا الناس إلى طريق غير معروف لدخول الأزهر ، فلقن الجنود الإنجليز هذا التعبير العربي ، وجعلوا يقولون لكل من يفد :

زاوية العميان !

وبذلك اشتركوا مرغمين في أن تعقد الاجتماعات في الأزهر بدعوة منهم وهم لا يعلمون .

كذلك أتقن الطلاب فن التشكر والتخفي ، فقد حرم دخول « الافندية » إلى الأزهر ، غير أن هذا جعل الشبان يتشكرون في أزياء الشيوخ المعتمدين من شتى الأقطار ، فهذا مراكشي وذاك تركي وثالث حجازي ورابع هندي وخامس جاوي . وهكذا ولكنهم أخيرا كانوا يخرجون في زيهم الحقيقي زي « الافندية » ، فكان الجنود الانجليز ينغيظون ويشتمون .

الأزهر بعد الثورة المصرية

في سنة ١٩٢٣ م أنشئ قسم للتخصص في العلوم الأزهرية بعد الحصول على الشهادة العالمية ليستزيد العالم تمسكنا من مادته ، واقتدارا على أداء مهمته ، فأنشئ هذا القسم من بضة شعب . وكانت شعبة الفقه والأصول إحدى هذه الشعب ، وهي تعدخريجها لتولى وظائف القضاء الشرعي في الدولة ، وقد مهدت لإلغاء مدرسة القضاء الشرعي فيما بعد ، واستعيدت حقوق الأزهريين في شغل هذه الوظائف بعد أن سلبت منهم حقبة طويلة . . . وعنى بالتوسع في دراسة العلوم الحديثة في المرحلتين الابتدائية والثانوية بالمعاهد الدينية على غرار ما يدرس منها في المدارس الأخرى .

وأنشئ لهذه العلوم تفتيش مستقل بإدارة المعاهد ، وزودت المعاهد بالمعامل اللازمة لدراستها ، وعين كثير من العلماء ممن تميز في هذه المواد لتدريسها ، وقد عدلت هذه البرامج فيما بعد بما يتفق ومكانها من العلوم الدينية ، وتم إنشاء القسم الثانوي لمعهد أسيوط وكان ابتدائيا ، ثم إنشاء معهد الزقازيق .

وظل الأزهر يخطو نحو غايته مسرعا إذ وضع الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر مذكرته في إصلاح الأزهر ، تلك المذكرة التي تعتبر دستور الأزهر الحديث ، وكل ما يلهم به دعاة الإصلاح بعدها فهو مقتبس منها أو مستمد من مبادئها وروحها ، فقانونا سنتي ١٩٣٠ ، ١٩٣٦ هما في الحقيقة قانون واحد صيغا من مبادئها وفصلا إجمالها ، وبهذين القانونين على الأصح انتقل الأزهر من حال الاضطراب الثقافي إلى حال الاستقرار النهائي ، ومن حال العزلة التي نكرها على نفسه وأنكرها الناس منه إلى حال المشاركة في شئون الأمة العامة ، فقد جعلت العالم الأزهرى عضوا حيا في أمته يفيد منها وتفيد منه ، ورسمت له غايته والوسائل التي تعينه على أدائها ، وشمل القانون الذي استمد منها نواحي

إصلاحية كثيرة ، والذي يعيننا منها هنا الناحيتان العلمية والمالية .
أما الناحية العلمية فأهمها تقسيم الدراسة العالية لأول مرة في تاريخ الأزهر إلى
ثلاثة أقسام ، يعد كل قسم منها خريجه لمهمة خاصة بعد إعداده لهذه المهمة إعداداً فنياً
في أقسام أخرى تلي هذه الأقسام تسمى « أقسام التخصص في المهنة » .

وأنشئ لمجموع هذه الأقسام كليات ثلاث - وهي كلية الشريعة ، وكلية اللغة العربية ،
وكلية أصول الدين - على أن يلى خريجو هذه الكليات المهن التي تليق بمؤهلاتهم
بعد تخصصهم فيها ، فلي خريجو كلية أصول الدين وظائف الوعظ والارشاد ،
وخريجو كلية الشريعة وظائف القضاء الشرعى ، وخريجو كلية اللغة العربية وظائف
التدريس في المدارس الأميرية والحرية .

وقد ألحق بهذه الكليات أقساماً للتخصص في المادة ، وهي أقسام علمية ممتازة قصد
منها إعداد بعض العلماء إعداداً ممتازاً ، بعد دراسة عميقة ليتمكن القيام بوظائف التدريس
في الكليات .

ولاعداد خريجي هذه الكليات إعداداً صحيحاً أدخل في مناهج الدراسة فيها
لأول مرة في تاريخ الأزهر أيضاً مجموعة من العلوم التي تتصل بمهمتهم ، فأدخل
في مناهجها فقه اللغة وعلم النفس وعلوم التربية والفلسفة وتاريخ الأديان ودراسة
الفرق الإسلامية ، وأصول القوانين والاقتصاد السياسى ، والنظام الدستورى ،
كما أدخل فيها دراسة بعض اللغات الغربية والشرقية .

وما تضمنه القانون لإنشاء معاهد للاستماع خاصة في بعض المدن لا تنقيد بقيود
المعاهد النظامية ، والغرض منها سد حاجة من يريد معرفة أحكام الدين واللغة العربية
من جمهرة الأمة ، على أن يتبع فيها طريقة التدريس التقليدية في الأزهر ، ويكون
مقرها في المساجد .

وأما الناحية المالية وأعني بها الحقوق التي ظفر بها خريجو الأزهر بمقتضى هذا
القانون ، فاهمها أنه ألغى مدرسة القضاء الشرعى ، فأصبحت وظائفه خالصة لخريجي
كلية الشريعة دون غيرهم ، وجعل من حق خريجي كلية اللغة العربية التدريس في مدارس
الحكومة والمدارس الحرية وكانت محجورة عليهم قبل ذلك ، وجعل من حق
خريجي كلية أصول الدين شغل وظائف الوعظ والارشاد التي أنشئت قبيل صدور
القانون ، والتي لم تزل تنمو حتى أصبحت لها إدارة خاصة ، وبلغ عدد الوعاظ الذين
تشرف عليهم هذه الإدارة نحو ٢٥٠ واعظاً يؤدون للأمة أجل الخدمات في إصلاح الأمن

وتهذيب النفوس . ويقضيها الانصاف أن نشير هنا إلى فضل المغفور له محمد محمود في إنشاء قسم الوعظ ، فقد أشار عليه الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر سنة ١٩٢٨ م بتعيين عدد من العلماء في وظائف الوعظ بوزارة الداخلية لاصلاح حال الأمن من طريق نشر تعاليم الدين ، فاستجاب لهذه الإشارة بعد استحسانها من لدن الرأي العام في الأمة ، وعين خمسين واعظا في الوجه البحرى . وبعد تعيينهم ببضعة أشهر نقلوا بميزانيتهم إلى الأزهر ، فكانوا نواة هذا القسم الكبير . وقد كفل القانون لخريجي الكليات حقوقا أخرى في وظائف الدولة ، ليس هذا موضع تفصيلها . وبهاتين الناحيتين من الإصلاح العلمى والمادى اللتين شملهما القانون المستمد من المذكرة المشار إليها فيما شمل تقاربت مسافة الخلف بين خريجي الأزهر وخريجي المعاهد الأخرى وطوائف الأمة عامة ، وتجدد نشاط الأزهر في أداء رسالته ، وأحسست الأمة بأن له مكانا في خدمتها ، وأنه يأخذ منها ويعطيها . ولما كانت الكليات الأزهرية والتي تضمنها القانون في حاجة إلى أماكن للدراسة ، لذلك بدىء بإنشاء هذه الأماكن في مدينة الأزهرية خاصة واسعة الأرجاء حول الجامع الأزهر ، لا تقصر عليها بل تتسع لها ولا أماكن لمعهد القاهرة ولمساكن الطلاب وللادارة العامة للأزهر ولمستشفى أزهرى خاص ، وتوسع عدا هذه الأبنية بناء المكتبة الأزهرية وما يالحق بها من المطابع وقاعة للاحتفالات العامة تسع ألفين من النظارة ، ووضع تصميم هذه المباني وفتح لها في الميزانية العامة سنة ١٩٢٩ م اعتماد مالى بمبلغ يقرب من ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات ، وبدىء في تنفيذها إذ ذاك بالفعل ، وفسكر المراغى سنة ١٩٢٨ م في إرسال بعثات أزهرية دراسية إلى بعض الجامعات الأوربية ليكون أعضاؤها دعاة إلى الاسلام كما كان أسلافهم ، وليفيدوا من ثقافة هذه الجامعات المتجددة ما يتصل بمهمتهم ويسدوا حاجة الأزهر إلى تدريس المواد التي اقترح إدخالها ضمن برامج الدراسة في المذكرة المشار إليها . وفي سنة ١٩٣٦ م سافرت هذه البعثات إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا في جو من الغبطة والحدس ، وكان في ذلك إحياء لمجد الأزهر ، وقام شيخ الجامع الأزهر بتوديع هذه البعثات بنفسه في حفل من العلماء والطلاب ، وألقى فيهم خطابا رسم فيه الغاية من إرسالهم ، وصور الجو الذى أحاط بهذه الفكرة فقال : دأرسلكم الأزهر وقلبه يخفق ، وأنا واثق من أنكم ستكونون بهديكم وبقولكم وعملكم ومحبتكم أحسن الأمثلة لخريجي الأزهر الشريف . وقال : أتم في البلاد التي ستقيمون فيها مرشدون أولا وتلاميذ ثانيا ولا يعفيكم واجبك الثاني

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

من واجبهكم الأول الذي هو في الحق المقصد الأسمى من هجركم، .. ولتمكين الأزهر من أداء رسالته بكل ما يمكن من الوسائل ففكر الشيخ الظواهري في إنشاء مجلة خاصة بالأزهر تكون صوته الرسمي يدوي في مصر والقطار الإسلامية، وتكون مجالا للنشاط العلمي لعلماؤه وطلابه، وتعمل على نشر آداب الإسلام، وإظهار حقائقه خالصة من كل لبس وتكشف عما ألصق بالدين من بدع ومحدثات وتنبيه إلى مآدس في السنة من أحاديث موضوعة، وتدفع الشبهة التي يحوم بها مرضى القلوب،، وأبتدأ صدورها سنة ١٩٣٠ م وأنشأ لها ولطبوعات الأزهر والمعاهد مطبعة خاصة كاملة الأدوات تسد الآن حاجة المجلة والكتليات والمعاهد من جميع المطبوعات.

وفي يوم الثلاثاء ٢ من ذي الحجة سنة ١٣٥١ هـ — ٢٨ مارس سنة ١٩٣٣ احتفل رسميا بافتتاح كلية أصول الدين. وفي يوم الأربعاء التالي له احتفل كذلك رسميا بافتتاح كليتي الشريعة واللغة، وجاء في كلمة شيخ الأزهر إبان ذاك، الشيخ محمد الاحمدى الظواهري التي ألقاها في هذه المناسبة بحضور رجالات الدولة:

«صدر القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ وأفيا بهذه الأغراض السامية، مع المحافظة على صبغة الأزهر الدينية والعربية. وكان من أكبر مزاياه إنشاء كليات: أصول الدين، والشريعة، واللغة العربية، وجعل أبوابها مفتحة لجميع الطلاب المسلمين على اختلاف جنسياتهم. واستدراك ما كان في القوانين السابقة من نقص في مواد التعليم على اختلاف مراحله، فقد جعل من مواد الدراسة في الكليات: تاريخ التشريع الإسلامي، ومقارنة المذاهب، وفن الحديث دراية، وآداب اللغة العربية وتاريخها، وفقه اللغة، وتاريخ الأمم الإسلامية، وعلم النفس، والفلسفة، مع الرد على ما يكون منافيا للدين منها، وغير ذلك من المواد التي لم تكن تدرس في القسم العالي من الأزهر الشريف.

ولما كان التخصص في العلوم هو الطريقة المنتجة التي جرى عليها علماء الإسلام في أوائل العصور، وإليها يرجع الفضل في تقدم العلوم وارتقائها قديما وحديثا، نص هذا القانون على إنشاء أقسام للتخصص في المواد التي تعنى بها الكليات، للتبحر فيها، وعلى منح المتخرجين منها شهادة العالمية مع لقب أستاذ، وعلى جعلهم أهلا لشغل كراسي الاستاذية في الكليات، كما نص على إنشاء أقسام للتخصص في التدريس والقضاء الشرعي والوعظ والإرشاد، يكون متخرجوها أهلا للتدريس في مدارس الحكومة والمعاهد وتولي الوظائف الشرعية والدينية في الدولة.

وإذا كانت كليات الأزهر ستكون في دور خاصة في حيه وبجواره ، فإن نفس الجامع الأزهر سيكون معمورا بالدروس على اختلاف أنواعها ، مفتوح الأبواب لقاصديه ، من المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، غير مقصور على إقامة الصلاة .
ولقد كان لصدور هذا القانون وانتشار أنباته وقع حسن عظيم في نفوس المسلمين في عامة الاقطار ، وقد ابتدأت البعثات تتوارد وتتابع : من الصين وبولونيا وألبانيا ، والهند ، وغيرها ، للاعتراف من هذا المنهل العذب . وأخذت الجامعات الكبرى تتصل بالأزهر الشريف ، وكان منها جامعة غرناطة ، التي لبى الأزهر الشريف دعوتها إلى الاحتفال بمرور القرن الرابع على تأسيسها .

الثورة المصرية الثالثة والأزهر

وقد قامت الثورة المصرية الوطنية القومية العسكرية الأخيرة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكان للأزهر فضل كبير في قيامها ، وتوالت أحداث الثورة ، فألف محمد نجيب وزارته الأولى في ٧ سبتمبر ١٩٥٢ ، ثم وقعت اتفاقية السودان بين مصر وإنجلترا في ١٢ فبراير ١٩٥٣ ، وأعلنت الجمهورية في ١٨ يونيو ١٩٥٣ ، وألقت وزارة الرئيس جمال عبدالناصر بعد ذلك . وكان الأزهر يقوى من دعائم الثورة ، ويدعم العهد الجديد ، الذي ثار على الفساد فخطمه ، وعلى الظلم فهدمه ، ولا يزال الأزهر يبارك مبادئ الثورة ، ويدعو للإيمان بها

ومنذ بدء الثورة تولى منصب مشيخة الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين ، ثم الشيخ عبد الرحمن تاج .

ويرجى للأزهر أن يصطبغ بالصبغة العلمية ، وأن يسير قدما في سبيل أداء رسالته الجليلة .

النوابغ الذين تخرجوا في الأزهر

وقد تخرج في الأزهر في العصر الحديث فريق كبير من عظماء الرجال . فمن الزعماء زعيم مصر المغفور له سعد زغلول ، ومن الأدباء المرحوم علي باشا مبارك وعبدالله فكرى باشا ، والسيد رفاعه الطمطاوى ، وحفنى ناصف بك ، والشيخ حمزة فتح الله ، ومن المصلحين الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده .

وتخرج فيه كثيرون من أمراء الشرق ومجاهديه ، فمنهم السيد الادريسي الذي

درس في الأزهر ثم عاد إلى اليمن يعلم البدو أمور دينهم ويحارب الأتراك في سبيل استقلال بلاده حتى تقلص الحكم التركي عن بلاد العرب في ختام الحرب العظمى ، وما زال سلطاناً مستقلاً واسع النفوذ حتى لقي حتفه في سنة ١٣٤٠ هـ .

ومنهم السيد صديق حسن خان أمير يوبال السابق وقد تخرج في الأزهر ، وكان منتسباً لرواق البخارية ثم عاد إلى أمارته فاصلح شؤونها وأقام فيها مجالس العلم حتى توفي في سنة ١٣٢٩ بعد أن رفع شأن بلاده .

ومنهم الشيخ محمد بن عبد الله منلا الصومالي الذي درس في الأزهر ثم رحل إلى الصومال فأخذ يعلم قومه أمور دينهم ويدعوهم إلى طرح نير الاستعباد حتى استطاع أن يؤلف بين قلوب القبائل الصومالية ويحارب الإنجليز والإيطاليين والبلجيك والبرتغاليين ويستعمل الحيلة والدهاء في حروبه ، فطعم جهود الاستعماريين وطرد جيوشهم وما زال في كفاح معهم حتى لقي ربه في سنة ١٣٢٣ هجرية ، فهد موته الطريق أمام جيوش الاستعمار ، وسقطت الصومال بعده في أيدي الإنجليز والإيطاليين .

أشهر رجال الأزهر

في أوائل القرن الرابع عشر الهجري

وقد اشتهر في العصر الأخير جلة من العلماء الراحلين كانوا في طليعة الشيوخ البارزين ، على طريقة الأزهر القديمة ، وقد أدرك البعض زمانهم ، وتلقى بعض العلماء عنهم ، نذكر منهم :

الشيخ أحمد رفاعي الفيومي . الشيخ أحمد الجيزاوي . الشيخ محمد النجدي . السيد أحمد حنبلي البسيوني . الشيخ عبد القادر الرفاعي ، الشيخ محمد عبده ، الشيخ عبد الكريم سليمان . الشيخ سليمان العبد . الشيخ أحمد أبو خطوة . الأخوين : الشيخ محمد ، والشيخ أحمد عبد الجواد القاياتي (١) . الشيخ حسن الطويل . الشيخ محمد حسنين البولاق (٢) . الشيخ حسين زين المرصفي . الشيخ هرون عبد الرازق (٣) . الشيخ محمد البيجرمي . الشيخ إبراهيم الظواهري . الشيخ محمد نجيت المطيعي . الشيخ

(١) كانا من رجال الثورة العراقية .

(٢) هو والد أحمد حسنين رئيس الديوان الملكي سابقا

(٣) كان مدرسا لمادة الدين بمدرسة الهندسة الملكية قديما .

عبد الرحمن البحر اوى . الشيخ محمد راضى الكبير . الشيخ محمد رضى البحر اوى . الشيخ محمد حسنين العدوى . الشيخ على البولاتى . الشيخ عبد الغنى محمود . الشيخ محمد السمالوطى . الشيخ محمد الحلبي . الشيخ أحمد نصر . الشيخ محمد شاكر . الشيخ دسوقي العربى . الشيخ عبد الرحمن قراعة . الشيخ يوسف الدجوى . الشيخ عبد الحكم عطا . الشيخ سيد على المرصفى .

وثمة شخصيات بارزة لها فى تاريخ البلاد مكان ملحوظ . وهؤلاء لم يتموا دراستهم فى الجامع الأزهر ، وأقبلوا على أعمال أخرى فى المحاماة ، والقضاء ، وفى العلم والأدب والصحافة ، نذكر من بينهم : سعد زغلول زعيم مصر السياسى ، وإبراهيم الهلباوى المحامى ، ومحمد أبوشادى ، ومحمد الحسينى المحامى ، وحسن جلال ، ومحمد صالح المستشارين بالمحكمة الوطنية ، وعبد الله نديم خطيب الثورة العرابية والسيد على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، ومحمد النجار صاحب جريدة الأراغول والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، وعبد اللطيف الصوفانى ، وغيرهم وغيرهم

ومن علماء الأزهر المشهورين العالم العلامة الشيخ نافع الجوهرى بن سليمان بن حسن بن مصطفى بن أحمد الخفاجى من بنى خفاجة (١٢٥٠ هـ - ١٨٣٤ م - ١٣٣٠ هـ - ١٩١٢ م) ، وهو جده المؤلف لآمه ، ولد فى قرية تلبانة من أعمال الدقهلية ، وحفظ القرآن الكريم ، ونال العالمية من الأزهر عام ١٢٨٣ هـ ، حيث تتلمذ فيه على جملة العلماء والزاهدين ، وأقام ببلدته واعطا زاهدا ، ومفتيا مرشدا ، ومؤلفا واسع الشهرة بين أقرانه . حتى بلغت مؤلفاته إلى قبل وفاته نحو من مائة مؤلف ، أغلبها فى الشريعة والدين والفقه والمواعظ والتصوف وعلوم العربية ، وكان شاعرا مجيدا بليغا مفوها ، وأديبا لا يشق له غبار (١) .

نظرة إلى المستقبل

إن ما كسبه الأزهر من هذا الانقلاب الحاسم فى مصيره لا يزال رهن الزمن والمستقبل . ومن سبق القول - كما يقول عنان - أن نتحدث عن مزايانا نظام جامعى لم يتمخض بعد عن آثاره ، ولكننا نستطيع بالعكس أن نقول إن الأزهر الحديث على الرغم من جميع الجهود التى بذلت لإصلاحه منذ نصف قرن ، وبالرغم من تحويله الظاهر إلى جامعة أزهريّة ، فقد كثيراً من المزايا العلمية والجامعية الحقيقية التى اقترنت بتاريخه القديم .

(١) راجع ترجمته فى كتابي « بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى ج ٣ و ٤ » .

فقد اختفى جيل العلماء الأعلام المبرزين في علوم الدين واللغة ممن حفلت بهم حلقاته في أواخر القرن الماضي ، وكانوا بقية أخيرة لذلك الجيل القديم ، من علماء الأزهر الذين وهبوا حياتهم للدرس ، وقد كان الأزهر حتى أواخر القرن الماضي يأخذ بنصيب بارز في تكوين الزعامة الفكرية والقومية ، وكان ظهور رجال مثل محمد عبده وسعد زغلول من بين صفوف طلبته ، أسطع دليل على أن هذا المعهد التالدم يفقد خلال عصور الانحلال والتأخر كل حيويته الفكرية ، ولكن هذه الظاهرة تكاد تختفي اليوم .

وقد فقد الأزهر كثيراً من خاصته الروحية التي كانت تحمل شيوخه وطلابه على التفاني في التحصيل والدرس ، والتعلق بشرف العلم والإعراض عن مغريات الدنيا ، وإيثار التقشف والزهد ، على الحياة الناعمة . . وتحول شيوخ الأزهر في ظل النظم الجديدة شيئاً فشيئاً إلى نوع من أرستقراطية رجال الدين ، التي تمتاز ببسطة في الرزق والجاه ، وتحول طلابه إلى ميدان الصراع المادي في سبيل العيش ، والسعي وراء الوظائف ومنازعة أضرابهم من المعاهد الأخرى في الفوز بها . وقد أحدثت هذه الأرستقراطية الاجتماعية ، وهذه النزعة في الإقبال على الدنيا ، أثراً لا يحمد في جو الأزهر العلمي ، وذهبت بكثير من خواصه الروحية القديمة .

ومن جهة أخرى فإن الأزهر الحديث على الرغم من اتسامه بسمة الجامعات العصرية ، لا يزال بعيداً عن أن يجارى روح العصر فعلاً في تنظيم مناهجه وأساليبه العلمية . فهو لا يزال يعيش على تراث الأزهر القديم ، ولا يزال مرجع الدراسة بالكتليات الأزهرية الحديثة في علوم الدين واللغة طائفة من الكتب القديمة التي يعرفها الأزهر منذ العصور الوسطى ، فالشاطبية ، والهداية ، والسنوسية ، والصبيان ، وألفية بن مالك ، وشرحها لابن عقيل ، ومختصر السعد وحواشيه ، وكتب ابن حجر ، والبلقيني ، والسيوطي ، والبرماوي ، والزماوي ، والزيلعي ، وغيرها ، تدرس في الكتليات للطلبة النظاميين ، وبعض هذه الكتب يرجع إلى القرن السادس الهجري كالشاطبية ، أو السابع مثل مختصر ابن الحاجب ، والألفية ابن مالك . أو الثامن كشرح ابن عقيل ومختصر السعد ، ومع أن هذه المصنفات القديمة لا تزال تحتفظ بقيمتها العلمية ، فهي لا تصلح سواء بمادتها أو طرائقها العتيقة لعقلية الطالب الحديث . ولم يزود طلبة الجامعة الأزهرية حتى اليوم من الكتب والمذكرات الدراسية الحديثة إلا بقدر ضئيل جداً في بعض المواد المستحدثة :

مثل التاريخ الاسلامي ، والسيرة النبوية ، وتاريخ التشريع ، وتفسير بعض آيات الأحكام ، وكذا بعض كتب البلاغة والأدب والنحو والصرف ، وسيمضى وقت طويل قبل أن يستطيع المشرفون على الدراسة بالجامعة الأزهرية أن يضعوا من الشروح والتأليف المنظمة الحديثة ما يسد حاجة الطلاب .

وقد فقد الأزهر كثيراً من مزايا الدراسة الحقة بإلغاء الحلقات الدراسية الشهيرة ، التي لبثت قروناً تزين أروقته وساحاته ، فقضى عليها النظام الجديد ، ولم تبق منها إلا آثار ضئيلة ، تتمثل في إلقاء بعض الدروس العادية في علوم الدين أو اللغة بالجامع الأزهر وبعض المساجد الأخرى التي توجد بها المعاهد الدينية ، وتقرأ فيها الكتب القديمة ، ويشهد لها الطلاب غير النظاميين ، ولا سيما الغرباء وبعض أفراد الجمهور ، وتعرف في ظل النظام الجديد بالاقسام العامة .

والواقع أن الحلقات القديمة لم تكن إلا المدرج الجامعي الحديث ، وقد كانت تتفوق بلا ريب في عناصرها الجامعية على فصول السكليات الأزهرية ، وكان خيراً لو أصلحت ونظمت على غرار الدراسات الجامعية العليا ، التي يتولاها أعلام الأساتذة ، وقد كان في استبقائها على هذا النحو تخليداً لذكرى الحلقات الأزهرية التاريخية التي كانت أيام ازدهارها من محاسن الدهر وآلاء الأزهر ، وكانت في كثير من الأحيان تجمع الصفوة من الأساتذة والمستمعين .

ولقد اضطرم الصراع مدى حين بين الثقافتين القديمة والحديثة ، وقد أحرز الجديد نصره النهائي على تراث القديم وأساليبه ، وتبوأَت الثقافة الحديثة في مصر المكان الأول ، وهي تؤكد هذا الظفر كل يوم بما تخرجه من جندها المستنير الطموح إلى الحياة العصرية ، بكل ما أوتى من المزايا المعنوية والمادية . على أن ذلك لا يعني أن مهمة الأزهر قد انتهت ، أو أنها يجب أن تنتهي ، بل بالعكس من ذلك أن للأزهر مهمة جليلة ، يستطيع الاضطلاع بها إذا وفق إلى الوسائل والأساليب الصالحة لتأديتها . تلك المهمة هي العمل على دعم رسالة الاسلام ، ورسالة اللغة العربية والحضارة الاسلامية ، بأساليب مستنيرة .. وقد كان الأزهر معقلاً من معاقل هذه الرسالة طوال العصور الوسطى ، والعصر التركي ، وفي وسعه أن يكون معقلاً اليوم (١)

(١) الأستاذ عبد الله عنان في تاريخ الأزهر

الباب الثالث

شيوخ الأزهر

الفصل الأول

مשיخة الأزهر وشيوخه

وظيفة خطيب الأزهر :

نقل المقرئ في مواضع مختلفة إشارات لبعض مؤرخي الدولة الفاطمية عن « خطيب الجامع الأزهر » . من ذلك ما نقله عن ابن الطوير في تقديم خطيب الجامع الأزهر في إلقاء الخطبة بين يدي الخليفة في أيام الموالد الستة التي كانت تحتفل بها الخلافة الفاطمية ، وهي المولد النبوي ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ، ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة القائم (١) .

وكذلك كان « خطيب الجامع الأزهر » يذكر في وصف الاحتفال بليالي الوقود ، حيث يخطب أيضا بين يدي الخليفة في هذه الليالي الأربع متقدما زملاءه من خطباء المساجد الأخرى (٢) . فالإشراف على الجامع الأزهر - كما يقول عنان - كان يجري في ظل الدولة الفاطمية على هذا النحو :
ما تعلق باصلاحه وعمارتها والاتفاق عليه يرجع أمره إلى الخلفاء أو من يختارونه لذلك من الأمراء والوزراء .

وما يتعلق بشئون الصلاة يرجع إلى الخطيب وإلى عدد من الأئمة والقومة والمؤذنين ، والخطيب في الواقع هو رئيس الجامع الديني وهو الذي يتولى الخطابة في الصلوات الجامعة ، والحفلات الدينية الرسمية بين يدي الخليفة أو نائبه ، ويدير شئون المسجد الدينية بوجه عام .

ويبدو أن وظيفة « خطيب » الجامع الأزهر لبثت تنمو في الأهمية على مر الزمن تبعا لنمو أهمية الأزهر نفسه ، فهي في أواخر الدولة الفاطمية تسند إلى رجال

(١) الخطط ج ٤ ص ٧٦ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٢ .

من أصحاب المناصب الدينية الرفيعة مثل داعي الدعاة ، فقد ذكر ابن ميسر في أخبار سنة ٥١٧ هـ أنه قد أسند إلى داعي الدعاة أبي الفخر صالح د منصب الخطابة بالجامع الأزهر ، مع خزانة الكتب (١) .

أما إدارة المسجد الداخلية من فرش وتنظيم وتحميل فترجع إلى المشرف ومعاونيه من العمال والخدم

وأما ما يتعلق بشئون الدراسة والاساتذة والطلاب والنفقة عليهم ، فقد رأينا أنه يرجع إلى الخلفاء وإلى ذوى البر من أكابر رجال الدولة ، وقد كان العزيز بالله ووزير ابن كلثوم أول من رتب النفقة الدائمة للقراء والاساتذة بالأزهر ، وهذا حدوهما في ذلك الخلفاء والامراء والكبراء ، في مختلف الدول والعصور .

وهذا النظام في الاشراف على الجامع الأزهر ربما لبث متبعاً في جوهرة بعد الدولة الفاطمية ، فمثلاً نرى في أواخر القرن الثامن ، في عهد الملك الظاهر برقوق ، ولاية النظر على الجامع الأزهر ، تسند في سنة ٧٨٤ هـ إلى الطواشي بهادر مقدم الممالك السلطانية ، وفي أثناء ولايته صدر مرسوم ملكي يقضى بأن من توفي من مجاوري الجامع دون وارث شرعي ، وخلف تركة ، فإنها تؤول إلى زملائه المجاورين ، وفي سنة ٨١٨ هـ في عهد السلطان المؤيد ولي نظر الجامع الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب . فكان بمقرره منع المبيت بالجامع الأزهر ، وأخرج المجاورين الذين اعتادوا السكنى فيه (٢) . وبعد ذلك بقليل في زمن السلطان المؤيد أيضاً ولي نظر الجامع شمس الدين محمد الماحوري ، أحد تجار الكارم والجوهر ، وكان من أصدقاء المؤيد . وذلك بطريق النيابة عن له النظر على الجامع (ولعله الأمير سودوب أيضاً) ، فاستعمل القسوة في تنظيم شئونه الداخلية ، وكان يطوف ومعه عصي لردع المخالفين ، وقاسى الطلاب منه شدة (٣) . . على أن ولاية هؤلاء الكبراء النظر على الجامع كانت تقتصر على الناحية الادارية مما يتعلق باصلاحه وتعميره والاتفاق عليه ، وتعيين الموظفين اللازمين لادارته .

أما شئون العبادات فقد كانت دائماً من اختصاص خطيب الجامع وإمامه . وقد كان يلي خطابة الجامع الأزهر في العصور المتأخرة والعصور المتقدمة أكابر

(١) أخبار مصر لابن ميسر ٤٦ .

(٢) المقرئ في الخطط ج ٤ ص ٥٤ .

(٣) التبر المسبوك ص ١٩٨ .

القضاة والعلماء ، فنرى بين خطباء الجامع الأزهر في أواخر القرن السابع الهجري قاضي القضاة تقي الدين أبا القاسم ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز (١) ، وفي أوائل القرن التاسع قاضي القضاة الحافظ ابن حجر العسقلاني (٢) .. وكان يوجد دائماً إلى جانب منصب الخطيب منصب الامام يشغله أيضاً بعض العلماء الاعلام ، وصاحبه يلي الخطيب في الاهمية ، ويعاونه في القيام بشئون العبادات . وثمة منصب هام آخر هو منصب « الواعظ » يليه أيضاً جماعة من أكابر العلماء ، وقد لبثت هذه المناصب الثلاثة قائمة خلال العصر التركي . وكان من مشاهير العلماء الذين تولوا إمامة الجامع الأزهر في العصور المتأخرة الفخر البليبي الضريير أستاذ القراءات ، تولاها في أواخر القرن التاسع الهجري (٣) ، والشيخ رضوان المتوفى سنة ١١١٥ (٤) .. ومن الذين تولوا منصب الوعظ الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق السنباطي المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، والشيخ شمس الدين الصفدي المقدسي المتوفى في حدود التسعين وتسعمائة (٥) . وأما شئون الدراسة فكان المرجع فيها على الأغلب إلى السلطان ووزرائه . وقد كانت مناصب التدريس في الأزهر وما إليه من المدارس الكبيرة يومئذ من المناصب الدينية الهامة ، فلا يعين فيها سوى أكابر الأساتذة والعلماء ، بيد أنه كان للواقفين والواهبين بلا ريب رأى في تعيين أنواع العلوم التي يخصصونها بهياتهم ، وفي اختيار الأساتذة الذين يتولون تدريسها .

منصب مشيخة الأزهر :

وإذا كان من المستطاع أن يتتبع الباحث بعض النصوص والاشارات التي تلقى ضوءاً على نظم الإشراف على الجامع الأزهر في العصر الفاطمي وفي عصور السلاطين ، فإننا لا نظفر بعد ذلك برواية أو نصوص شافية توضح لنا كيف تطورت النظم إلى نظام المشيخة الحالي . ومن المعروف الذائع أن نظام المشيخة الحالي إنما هو نظام حديث يرجع على الأكثر إلى نحو قرنين ونصف . وأنه طبق لأول مرة

(١) النجوم الزهراء ج ٨ ص ٨٢

(٢) التبر المسبوك ص ٢٣١

(٣) التبر المسبوك ص ٣٢ ، ٧٧ ، ٢٣٩ .

(٤) الجبرتي - عجائب الآثار ج ١ ص ٧٢ .

(٥) السكواكب السائرة في أعيان المسألة العاشرة — مخطوط في دار الكتب

في أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، حينما أسندت مشيخة الجامع الأزهر إلى الشيخ محمد عبد الخرشى المالكي المتوفى في شهر ذى الحجة سنة ١١٠١ هـ (١٦٩٠ م) ، وخلفه في المشيخة الشيخ محمد الشرقى المالكي . ولما توفى هذا الشيخ سنة ١١٢٠ هـ (١٧٠٨ م) ، وقعت بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس فتنة شديدة ، وانقسم المجاورون - الطلاب - فرقتين : ترشح إحداهما الشيخ أحمد النفراوى وترشح الأخرى الشيخ عبد الباقي القليني وكلاهما من المالكية . ووقعت بين الفريقين معارك قتل وجرح فيها كثيرون . وانتهى الأمر باستقرار الشيخ القليني في المشيخة والتدريس .

والظاهر أن نظام مشيخة الجامع الأزهر يمت بصلة إلى هذا المنهج في نظام الوظائف الدينية الرئيسية . وقد يرجع التفكير فيه وفي قيامه إلى منتصف القرن العاشر الهجرى . ذلك أن ولاية الأمر العثمانيين كانوا يعلقون على الوظائف الدينية أهمية خاصة ، وكان الجامع الأزهر يحتل يومئذ بين المساجد والمعاهد الإسلامية مركز الصدارة ، ويزخر دائما بجمهرة كبيرة من العلماء المصريين وإخوانهم من سائر أنحاء العالم الإسلامى ، هم صفوة الأئمة والاساتذة في ذلك العصر ، ومن المعقول أن تكون رئاسة الجامع الأزهر ذات أهمية خاصة في نظر ولاية الأمور . وإذا كان الجبرقى لم يذكر شيخا للأزهر قبل الشيخ الخرشى المتوفى سنة ١١٠١ هـ ، فإنه من جهة أخرى لم يقل بصفة قاطعة إنه كان أول من ولى المشيخة . ومع أنه لم يعثر كذلك فيما أتى من المراجع على نصوص قاطعة تلقى ضوءا واضحا على أصل مشيخة الأزهر والوقت الذى بدأ فيه تطبيق هذا النظام . فإنه توجد مع ذلك قرائن عديدة ، تدل على أنه يرجع إلى ما قبل أواخر القرن الحادى عشر بكثير

ومن ذلك ما رواه صاحب كتاب « ذخيرة الأعلام » ، (١) في حديثه عن واقعة الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطى مع داود باشا الذى تولى ولاية مصر سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) ، فقد ذكر أنه حدث في شهر شعبان سنة ٩٥٠ هـ أن الشيخ ابن عبد الحق قال يوما لداود باشا وهو فى موكبته : إنه رقيق لا يجوز له أن

(١) هو كتاب « ذخيرة الأعلام » بتواريخ الخلفاء العلماء ، وأمرام مصر الحكام ، وقضاة قضائهم فى الأحكام ، - مؤلفه الشيخ أحمد بن سعد الدين العثمانى العمرى من علماء أوائل القرن الحادى عشر الهجرى ، وهو مكتوب كله بالنظم (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٤ تاريخ) .

يتولى الأحكام ، وإن أحكامه باطلة ما لم يحصل على عقده .. ثم يقول في قصيدته التي يروى فيها تفاصيل هذه الواقعة :

لما صفى الباشا للكلام هم بضرب الشيخ بالحسام
قال له الجند فدع جند الحسام فإن هذا شيخ الاسلام الامام
وانحاز الجند للشيخ ، فأرسل الباشا نبأ هذه الواقعة إلى السلطان فأنعى عليه
بعقده مع تبليغ الشكر إلى الشيخ . وسعى الباشا بعد ذلك إلى الشيخ واسترضاه
وقبل رجله ، ولم يقبل الشيخ منه مالا ولا هدية ، ولكنه أصبح من ذلك الحين
لا يرد للشيخ رأيا ولا شفاعا (١) .

والمهم في هذه الرواية هو نعمت الشيخ ابن عبدالحق « بشيخ الاسلام الامام » ،
فانا نعرف أن لقب شيخ الاسلام كان يطلق قبل الفتح العثماني على « قاضى القضاة »
الشافعى ، وقد كان آخر من لقب بهذا اللقب من المصريين قاضى القضاة شهاب الدين
أحمد بن عبد العزيز بن على المتوفى سنة ٩٤٩ هـ (٢) ، فلما ألغى الترك نظام القضاة
المصرى ، وأقاموا فى رئاسة القضاة قاضيا تركيا ، كان هذا اللقب يطلق فيما بعد
على أكابر العلماء الذين يصلون إلى مرتبة الزعامة العلمية أو على شيوخ الجامع الأزهر
والأغلب أن يطلق على هؤلاء الشيوخ .

فهل كان ابن عبد الحق شيخا للجامع الأزهر ؟ لقد جاء فى ترجمته أنه كان
واعظا بالجامع الأزهر . وقال معاصره الامام الشعراى عنه ما يأتى : « لم تر أحدا
من الوعاظ أقبل عليه الخلائق مثله . كان إذا نزل من فوق الكرسي ، يقتتل الناس
عليه ، وكان متفطنا فى العلوم الشرعية ، وله الباع الطويل فى معرفة مذاهب المجتهدين .
وكان من رؤوس أهل السنة والجماعة ، وكان قد اشتهر فى أقطار الأرض كالشام
والحجاز واليمن والروم ، وصاروا يضربون به المثل ، وأذعن له علماء مصر الخاص
منهم والعام » ، ثم قال : « ولما مات اظلمت مصر لموته وانهدم ركن عظيم من الدين » ،
وكانت وفاة ابن الحق ، حسبا ذكر صاحب الكواكب السائرة فى أواخر

(١) هذه القصيدة بأكملها فى المخطوط المشار إليه ورقة ١٥٠ و ١٥١ تحت
عنوان (واقعة ابن عبد الحق مع داود باشا) .

(٢) الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة (المخطوط) ج ٢

صفر سنة ٩٥٠ هـ (١)

لا يميل المؤرخون إلى انقطع بأن ابن عبد الحق كان شيخاً للجامع الأزهر .
ونستطيع القول بأنه يوجد ثمة في ترجمته وفيما نعت به صاحب الذخيرة ما يحمل
على الظن بأنه كانت له صفة الرياسة بالأزهر من مشيخة أو غيرها (٢) .

ومن ذلك ما رواه فون همار مؤرخ الدولة العثمانية في تاريخه عما حدث بمصر
من الاضطرابات في سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٨ م) في عهد الوالي محمد باشا المعروف
بشاه سور زاده (ونقله سامى باشا في كتابه) إذ يقول : « جرد هذا الوالى حملة
ضد كاشف البهنسى محمد بك فقتل هذا الأمير وجيء برأسه إلى القاهرة . وقد قتل
غيره من الأمراء ، وأدت زيادة الاضطرابات إلى أن عقد مجلس كان فيه القاضى وشيخ
الجامع الأزهر وغيرهما ، فقرر فيه الفتوى بضرورة محاربتهم لاستمرار مخالفتهم
الأوامر السلطانية ، فجرد عليهم وحاربهم » (٣) .

وهنا - نجد أنفسنا كما يقول عنان - أمام ذكر صريح « لشيخ الجامع الأزهر » ،
وإن كنا لانعرف من هو هذا الشيخ ، وذكره يحىء في مناسبة تتقدم التاريخ الذى
الذى اصطلح على رد المشيخة اليه بنحو أربعين عاما . ومن ذلك ما أورده الجبرتي في
ترجمة العلامة إبراهيم بن محمد ابن شهاب الدين بن خالد البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦
هـ ، فقد ذكر صراحة أنه كان شيخاً للجامع الأزهر (٤) ، ففى كان ذلك ، لا ريب
أنه تولى المشيخة قبل أن يتولاها الشيخ الخرشى في أواخر القرن الحادى عشر ، وقد

(١) راجع الكواكب السائرة (المخطوط المشار إليه) ج ٢ ص ١٧٩ ، ويلاحظ - كما
قال عنان - أنه توجد مفارقة بين تاريخ الوفاة في هذه الترجمة وبين واقعة ابن عبد الحق
مع داود باشا إذ قال صاحب الذخيرة إنها وقعت في شعبان سنة ٩٥٠ هـ أى بعد تاريخ
الوفاة ، فلا بد أنها وقعت قبل ذلك ، أو تكون الوفاة وقعت بعدها .

(٢) ذهب المغفور له أمين سامى فيما أورده عن واقعة ابن عبد الحق وداود
باشا نقلا عن صاحب الذخيرة إلى أبعد من ذلك ، حيث وصف ابن عبد الحق بأنه
« شيخ الجامع » ، أى الجامع الأزهر (راجع كتاب تقويم النيل ج ٢ ص ١٩) .

(٣) كتاب تقويم النيل ج ٢ ص ٥٩

(٤) عجائب الآثار ج ١ ص ٧٠ .

توفي الشيخ الخرشي كما تقدم في سنة ١١٠١ هـ وتولى المشيخة من بعده الشيخ النشري المتوفى سنة ١١٢٠ هـ ، فربما كان البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦ هـ قد تولى المشيخة قبلهما ، أى في أواخر القرن الحادى عشر حوالى سنة ١٠٨٠ إلى سنة ١٠٩٠ هـ .

فشيخة الأزهر إذا ترجع إلى أواخر القرن الحادى عشر فقط ، والشيخ الخرشي كان أول من تولاها غالباً .

والمرجح أن هذا النظام يرجع إلى أواسط القرن العاشر ، وأنه يمت كما قدمنا بصلة إلى التغييرات التى أحدثها الترك العثمانيون فى الوظائف الدينية الكبرى ، وقد كان لشيخ الجامع الأزهر وعلماؤه نفوذ خاص يعتمد عليه ولاية الأمر كلها اقتضت الظروف والحوادث . وقد بلغ هذا النفوذ فيما بعد مبلغ الرياسة والزعامة فى أواخر القرن الثالث عشر ، ولا سيما وقت مقدم الحملة الفرنسية ، حيث كان لكبار الشيوخ رأى بارز فى معظم الحوادث والشئون الداخلية ، وكانوا يعتبرون دائماً ممثلى الأمة ، وكان منهم أعضاء الديوان الذى ألفه الفرنسيون لحكم مدينة القاهرة . وكان لهم نفوذ يذكر فى سير الحوادث فى ذلك الحين .

ومن المعروف أن العصر التركى هو أكثر العصور فى تاريخ مصر الإسلامية غموضاً واضطراباً ، وأقلها وثائق ومراجع ، لما حدث فيه من اضطلال الحركة الأدبية . وفتور الهمم عن التأليف ، وانصراف المؤرخين عن تناول الشئون العامة والأُمور النافعة ، إلى ملق الحكام وتدوين سيرهم الشخصية .

فلم يكن للأزهر إذن شيخ من قبل عهدهم يتولى رياسته الدينية . ويدبر شؤنه الإدارية . بل كان يتولاه الولاية العامة سلاطين مصر وأمرائها ، كباقي المساجد الجامعة بالديار المصرية . ويباشر شؤنه الداخلية مشايخ المذاهب الأربعة وشيوخ الأروقة يعاونهم خطيب المسجد ، والمشرف ومعاونوه من العمال والخدم . . . وبقي هذا النظام متبعاً فى الجامع الأزهر غالباً مدة حكم الفاطميين والأيوبيين والمماليك الأولى (البحرية) ، وفى عهد سلطنة الملك الظاهر برقوق ، أول سلاطين المماليك الثانية (البرجية) عين للأزهر : « ناظر » سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢) ، وكان « ناظر الأزهر » مختار من بين كبار موظفى الدولة ، وكان هذا « الناظر » هو الأمير « بهادر » الطواشى كبير المماليك السلطانية ، وكان « ناظر الجامع الأزهر » ينوب عن سلطان مصر ، أو حاكمها ، فى الإشراف على شئون الأزهر ، والقيام على تنفيذ الأوامر والأحكام (١٠ - الأزهر)

السلطانية ، والسهر على رعاية مصالح الجامع الأزهر ، ومصالح أهله من علماء وطلاب . وقد عرف من « نظار » هذا العهد المملوكي أيضاً الأُمير « سودوب » ، القاضي وحاجب الحجاب ، ولى « نظارة الجامع الأزهر » سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) . . . ولما استولى الأتراك العثمانيون على مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) ساروا على نهج من سبقهم من سلاطين مصر وأمرائها ، لحافظوا على الأوضاع المرعية فى الأزهر ، واهتموا برعاية شئونه ، والسهر على مصالح أهله ، واقتدى الولاة العثمانيون بسلاطين آل عثمان فعرفوا لهذا المعهد العلمى الدينى الاسلامى حقه من الرعاية والتقدير ، وجددوا به كل دارس ، وزادوا فى عمارته ، ووسعوا من رقعته ، وأوقف الأمراء ، والولاة وكبار رجال الدولة والأعيان ، الكثير من الاموال والاملاك ، والعقارات على علمائه وطلبته ، فاتسعت إدارته ، وتشعبت مصالح أهله ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى وجود شخص يتفرغ للإشراف على شئون هذا المعهد الدينية والادارية معا ، ويكون رئيساً لشيوخ المذاهب والاروقة ، وسائر علماء الأزهر وطلابه ، ومستولاً مباشرة أمام الولاة والسلاطين ، وحلقة اتصال بين الحكومة وأقسام الأزهر المختلفة ، فاستحسنتم « الدولة العلية » قبيل نهاية القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) أن يعين للأزهر : « شيخ عموم » يدير شئونه ، ويراقب أموره من تعاليم وغيرها ، ويلقب : « بشيخ الجامع الأزهر » . ومنذ العهد التركى العثمانى والجامع الأزهر يحتفظ بهذه الوظيفة ، التى تطورت مظاهرها ، واتسعت اختصاصاتها على حسب تطورات الزمن ، ومقتضيات الظروف والأحوال ، حتى آلت إلى ماهى عليه الآن .

واليوم يختار « شيخ الجامع الأزهر » من بين جماعة كبار العلماء ، ممن تتوافر فيهم الشروط الآتية : أن تكون سنه خمساً وأربعين سنة على الأقل ، وأن يكون معروفاً بالورع والتقوى فى ماضيه وحاضره ، وحائزاً لشهادة العالمية منذ خمس عشر سنة على الأقل ، وأن يكون قد اشتغل بالتدريس مدة خمس سنوات على الأقل فى إحدى كليات الجامع الأزهر ، أو بالقسم العالى المقرر بالقانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ م ، أو يكون قد شغل منصب مفتى الديار المصرية ، أو كان عضواً بالمحكمة العليا الشرعية . ويعين « شيخ الجامع الأزهر » بأمر جمهورى ، ويصير من يعين شيوخاً للجامع الأزهر من غير جماعة كبار العلماء عضواً فى هذه الجماعة بحكم القانون .

شيوخ الأزهر :

وقد تولى مشيخة الأزهر كثير من الأئمة الأعلام ، وهم :

١ - الشيخ الخرشي المالكي - وترجمته في تاريخ الجبرتي الجزء الأول ص ٦٥ - وقد توفي الخرشي سنة ١١٠١ هـ (١) .

ويعد أول من تولى مشيخة الأزهر ، وهو الشريف الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي المالكي ، والخرشي نسبة لبلدة يقال لها أبو خراش من البحيرة بالديار المصرية ، انتهت إليه الرياسة في مصر حتى لم يبق بها في آخر عمره إلا طلبته ، وكان متواضعاً عفيفاً واسع الخلق كثير الأدب والحياء كريم النفس حلو الكلام كثير الشفاعات عند الأمراء مهيب المنظر دائم الطهارة كثير الصمت كثير الصيام والقيام زاهداً ورعا متقشفاً في مأكله وملبسه ومفرشه ، وكان لا يصلي الصبح صيفاً وشتاء إلا بالجامع الأزهر ، وكان يقضى مصالحه من السوق بيده ومصالح بيته في منزله ، يتعمم بشملة صوف بيضاء ، وكانت ثيابه قصيرة على السنة المحمدية واشتهر في بلاد الأرض من بلاد المغرب والتكرور والشام والحجاز والروم واليمن ، وكان يغير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب مع السهولة إثارة لوجه الله تعالى ، ولا يمل في درسه من سؤال سائل ، وكان أكثر قراءته بالآقبغاوية ، وكان له في منزله خلوة للعبادة ، ومن مشايخه : على الاجهوري وإبراهيم اللقاني ، والده الشيخ عبد الله الخرشي ، ومات في ٢٧ ذي الحجة ١١٠١ هـ ودفن مع والده بقرب مدفن سيدي محمد البنوقري بواسطة قرافة المجاورين . وله شرحين على متن خليل ، وكتاب في الكلام وهو أول شيخ تولى مشيخة الأزهر الشريف ، وكان في العلم غاية لاتنال . . ويقول الشيخ منصور رجب من مقال نشره عنه في مجلة الأزهر :

أول شيخ تولى مشيخة الأزهر هو الشيخ محمد عبد الله على الخرشي المالكي المتوفى سنة ١١٠١ هـ نسبه إلى قرية من قرى مديرية البحيرة اسمها « أبو خراش » . وهذه القرية يقول عنها المرحوم علي مبارك باشا في خططه (٢) : « إنها بقسم شبراخيت واقعة في بحرى الكوكبة بنحو ستمائة متر ، وفي قبلي « محلة نابت » بنحو ثمانمائة متر ، وأبنيتها باللبن ، وبها جامع ضريح لولي عليه قبة ، وفي مشرقها ضريح سيدي عطية ، وبها إيعادية لمنصور باشا يكن ، وفيها - لعمدتها محمد عمر - دوار ومضيغة وزراعة متسعة نحو ألف فدان ، وبها بستان نضر ، وأكثر أهلها مسلمون » .

والشيخ الخرشي هذا ترجمه الشيخ على الصميدى العدوى فى حاشيته على شرحه الصغير لمتن خليل ، فقال : د هو العلامة الامام ، والقدة الهام ، شيخ المالكية شرقا وغربا ، قدوة السالكين عجا وعربا ، مربى الميدين ، كهف السالكين ، سيدى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن على الخرشى ، ونسب عصبته بأولاد صباح الخير ، انتهت اليه الرياسة فى مصر حتى لم يبق بها فى آخر عمره إلا طلبته وطلبة طلبته ، وكان متواضعا عفيفا ، واسع الخلق ، كثير الأدب والحياء ، كريم النفس ، جميل المعاشرة ، حلو الكلام ، كثير الشفاعات عند الأمراء وغيرهم ، مهيب المنظر ، دائم الطهارة ، كثير الصمت ، كثير الصيام والقيام ، زاهد اورعا ، متعشفا فى مأكله وملبسه ومفرشه ولا يصلى الصبح صيفا ولا شتاء إلا بالجامع الأزهر ، ويقضى بعض مصالحه من السوق بيده ومصالح يئته فى منزله . ويقول من عاشره : ماضبطنا عليه ساعة هوفها غافل عن مصالح دينه أو دنياه ، وكان إذا دخل منزله يتعمم بشملة صوف بيضاء ، وكانت ثيابه قصيرة على السنة المحمدية ، واشتهر فى أقطار الأرض ، كبلاد الغرب والشام والحجاز والروم واليمن ، وكان يغير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب ، مع السهولة إثارا وجه الله تعالى ، ولا يمل فى درسه من سؤال سائل ، لازم القراءة سيما بعد شيخه البرهان اللقاني وأبى الضياء على الأجهورى . وكان أكثر قراءته بمدرسة الاقبغاوية . وكان يقسم متن خليل نصفين : نصف يقرؤه بعد الظهر عند المنبر كتلاوة القرآن ، ويقرأ النصف الثانى فى اليوم الثانى ، وكان له فى منزله خلوة يتعبد فيها ، وكانت الهدايا والندور تأتية من أقصى بلاد الغرب وغيرها فلا يمسك منها شيئا ، بل أقاربه ومعارفه يتصرفون فيها .

أخذ العلوم عن عدة من العلماء الاعلام كالأمام الشيخ على الأجهورى ، وخاتمة المحدثين الشيخ إبراهيم اللقاني ، والشيخ يوسف القيشى والشيخ عبد المعطى البصير ، والشيخ يسى الشامى ، ووالده الشيخ عبد الله الخرشى ، وتخرج عليه جماعة حتى وصل ملازموه نحو مائة ، منهم العارف بالله الشيخ أحمد اللقاني ، والشيخ محمد الزرقانى ، والشيخ على اللقاني ، والشيخ شمس الدين اللقاني ، والشيخ داود اللقاني ، والشيخ محمد النفراوى ، وأخوه الشيخ أحمد ، والشيخ الشبراخيتى ، والشيخ أحمد الفيومى ، والشيخ إبراهيم الفيومى ، والشيخ أحمد الشرفى ، والشيخ عبد الباقي القلبنى والشيخ على المجدولى . ولما توفى فى صبيحة يوم الأحد السابع والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ١١٠١ دفن مع والده بقرب مدفن الشيخ العارف بالله سيد محمد البنوقرى

بوسط تربة المجاورين .

يقول : وقبره مشهور ، وما رأيت في عمري أكثر خلقاً من جنازته إلا جنازة الشيخ سلطان المزاحي ، والشيخ محمد البابلي .

وله مؤلفات ، منها شرحه الكبير على متن خليل ثمانية أجزاء ، وشرحه الصغير على خليل أيضاً أربعة أجزاء ، وله جزء في الكلام على البسملة نحو أربعين كراسة ، وغير ذلك .

هذا هو الشيخ محمد الخرشي أول شيخ من أبناء الأزهر تولى هذه الرياسة الدينية العامة . ولقد كانت مصر أول ما عرفت من مذاهب الفقهاء عرفت مذهب مالك ، فلقد دخلها به عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمع وتوفي بالاسكندرية سنة ١٦٣ ، في أيام الليث بن سعد ، واشتهر بمصر هذا المذهب ، ولم يزل مشتهراً حتى قدم محمد بن إدريس الشافعي في سنة ١٩٨ . أما مذهب أبي حنيفة فلم يكن أهل مصر يعرفونه كما يعرفون مذهب مالك والشافعي . والحنابلة لم يسمع عنهم بمصر إلا في القرن السابع .

وكان التفاف الناس في ذلك العصر حول مذهب مالك والشافعي أكثر من التفافهم حول مذهب أبي حنيفة ، حتى إن مدرسة محمد بك أبي الذهب قبيل عصر الشيخ الخرشي بقليل لما وظف بها المدرسون وكانوا ستة عشر مدرساً ، كان منهم سبعة من شيوخ الشافعية وستة من شيوخ المالكية ، وثلاثة من شيوخ الحنفية . وكان الإفتاء في ذلك الوقت لا يقتصر على مذهب بعينه ، بل كان لكل مذهب مفت . وكان المفتون يجلسون بعد دروسهم لإفادة الناس ، فكان بجامع محمد بك ثلاثة أماكن برسم جلوس ثلاثة من المشايخ المفتين ، وكان منهم الشيخ أحمد الدردير مفتي المالكية ، والشيخ عبد الرحمن العريشي مفتي الحنفية ، والشيخ الكفراوي مفتي الشافعية . وكان الأزهر يتولى شئونه في أول عهده رجل يسمى مشرف . وفي عهد المماليك كان يتولى أمره رجل من كبار الموظفين يسمى ناظراً ، منهم الأمير الطواشي بهادر المقدم على المماليك السلطانية ، ولى نظره في سنة ٨٧٤ هـ وهو الذي أنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق الخاص بجعل أبناء الأزهر أسرة واحدة يرث بعضهم بعضاً إذا مات أحدهم ولم يكن له وارث شرعي . ومنهم الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب ، ولى نظره سنة ٨١٨ .. أما تلك الرياسة الدينية العلمية فعرفها الأزهر في العهد التركي بلقب « شيخ الأزهر » .. ولقد توالى على هذه الرياسة منذ إنشائها حتى الآن أربعون شيخاً ، وأولهم الشيخ الخرشي هذا .

٢ - وتقلدها على الأرجح بعده الشيخ إبراهيم بن محمد البرماوى الشافعى وبقي فيها إلى أن توفي سنة ١١٠٦ هـ .

٣ - الشيخ محمد الشرقى المالكى وقد توفي عام ١١٢٠ هـ (١) وهو ثالث شيخ للأزهر

٤ - وخلفه الشيخ عبد الباقي القلبنى المالكى فى المشيخة والتدريس (٢) ، ولما مات تقلدها بعده الشيخ محمد شبن .

٥ - الشيخ العلامة شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد شبن المالكى . . توفي سنة ١١٣٣ هـ عن سبع وسبعين سنة (٣) .

٦ - الشيخ إبراهيم بن موسى الفيومى المالكى شيخ الجامع الأزهر . . تفقه على الشيخ محمد بن عبد الله الخرشى ، قرأ عليه الرسالة وشرحها ، وكان معيدا له فيهما . وتلبس بالمشيخة بعد موت الشيخ محمد شبن ، ومولده سنة ١٠٦٢ . . وأخذ عن الشبرايملى والزرقانى والشهاب أحمد البشيشى وغيرهم كالشيخ الغرقاوى وعلى الجزايرلى الحنفى . وأخذ الحديث عن يحيى الشاوى وعبد الرحمن الأجهورى والشيخ إبراهيم البرماوى ، وله شرح على العزبة فى مجلدين ...

توفى سنة سبع وثلاثين ومائة وألف عن خمس وسبعين سنة (٤) .

٧ - ولما مات الشيخ الفيومى المالكى شيخ الجامع الأزهر عام ١١٣٧ هـ ، انتقلت المشيخة إلى الشافعية ، فتولاها الشيخ عبد الله الشبراوى . ويتحدث الجبرتى عن جاهه ومكانته ويذكر أسماء بعض شيوخه ، ومنهم : الشيخ خليل اللقانى ، والشهاب الخلبى ، ومحمد ابن عبد الباقي الزرقانى ، وأحمد النفرأوى ، والشيخ منصور المنوفى ، وصالح الحنبلى ، وسواهم (٥) .

وكان طلبة العلم فى أيام مشيخته فى غاية الأدب والاحترام .

ومن آثاره : مفاتيح اللطاف فى مدائح الأشراف ، وشرح الصدر فى غزوة

بدر (١) وتوفى سنة ١١٧١ هـ ، عن ثمانين سنة ، وصلى عليه بالأزهر (٥) .

وصار لأهل العلم فى مدته رفعة ومقام ومهابة عند الخاص والعام ، ولم يزل يملئ ويدرس ويفيد ، وعد إماما عظيما . وكان مقبول الشفاعة ، وهاداه الأمراء ،

(١) ٢٠٨ ج ١ الجبرتى (٢) ٢٠٩ ج ٢ الجبرتى

(٣) ٧٣ ج ١ تاريخ الجبرتى طبعة ١٢٩٧ هـ

(٤) ٨٧ ج ١ الجبرتى

(٥) ٢٠٩ ج ١ الجبرتى

وعمر داراً عظيمة على بركة الازبكية بالقرب من الرويعي . ومن آثاره « شرح الصدر في غزوة بدر ، و « مفاتيح الاطاف في مدائح الاشراف .

وهو ديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطيع ، وقد ذهب الجبرتي وغيره الى أن مفاتيح الاطاف هذا كتاب غير الديوان ، وليس كذلك فانه يقول نفسه في مقدمة الديوان « وسميته مفاتيح الاطاف . . . ، وهو القائل (١) لهذه القصيدة العذبة التي تسيل عذوبة ورقة المشهورة على ألسنة بعض المغنين :

بحقك أنت المني والطلب وأنت المراد وأنت الأرب
ولي فيك يا هاجري صبوة تحير في وصفها كل صب
أيدي أسامر نجم السما إذا لاح لي في الدجى أو غرب
وأعرض عن عاذلي في هواك إذا نم يامنيتي أو عتب
أمولاي بالله رفقا بمن إليك بذل الغرام انتسب
فاني حشيتك من ذى الجفا وياسيدى أنت أهل الحسب
ويا هاجرى بعد ذاك الرضا بحقك قل لي : لماذا سبب ؟
فاني محب كما قد عهدت ولكن حبك شيء عجب
متى يا جميل المحيا أرى رضاك ويذهب هذا الغضب ؟
أشاع العذول بأنى سلوت وحقك ياسيدى قد كذب
ومثلك ما ينبغي أن يصد ويهجر صبا له قد أحب
أشاهد فيك الجمال البديع فيأخذني عند ذاك الطرب
ويعجبني منك حسن القوام ولين الكلام وفرط الأدب
وحسبك أنك أنت المليح الكريم الجدود العريق النسب
أما والذى زان منك الجبين وأودع في اللحظ بنت العنب
وأثبت في الخد روض الجمال ولكن سقاء بماء الذهب
لئن جدت أوجرت أنت المراد وما لي سواك مليح يحب

٨ - الشيخ محمد بن سالم الحفنى الشافعى الخلوقي الحسيني (١١٠٠ - ١١٨١ هـ)
ولد في حفنا قرب بلبيس ، وقرأ بها القرآن إلى الشعراء . . ثم أكمله في القاهرة
ثم اشتغل بحفظ المتن ، وأخذ العلم عن علماء عصره ، وأجازوه بالافتاء والتدريس ،
فدرس الكتب الدقيقة كالآشمونى وجمع الجوامع والمنهج ويختصر السعد ، وشهد له

معاصروه بالتقدم في العلوم . . وكان يتردد على زاوية سيدى شاهين الخلوتى بسفح الجبل متحشدا . . واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه ، وعانى النظم والنثر ، وتخرج عليه غالب أهل عصره .

ومن تأليفه : حاشية على شرح رسالة العضد على السعد ، وعلى الشنشورى فى الفرائض ، وعلى شرح الهمزية لابن حجر ، وعلى مختصر السعد ، وعلى شرح السمرقندى للياسمينية فى الجبر والمقابلة .

وهو صاحب . . أحدثك حدوتة ، بالزيت ملتوتة ، حلفت ما آكلها ، حتى يجي تاجرها الخ .

وتوفى عام ١١٨١ هـ (١) .

وكان قطبا وعلما شهيرا ، وأوحد أهل زمانه علما وعملا ، وهو الامام محمد بن سالم الحفناوى الشافعى الخلوتى ولد بحفنة قرية من قسم بلبيس من مديرية الشرقية بالقطر المصرى على رأس المائة الحادية عشرة وهو شريف حسنى من جهة أم أبيه نشأ بالقرية المذكورة وحفظ بها من القرآن إلى سورة الشعراء وألزمه أبوه بالمجاورة بالأزهر فكمل حفظ القرآن ، ثم قدم مصر وحفظ المتون واجتهد فى تحصيل العلوم وأخذ من علماء عصره حتى مهر ، وأفاد حياة أشياخه وأجازوه بالافتاء والتدريس فدرس الكتب الدقيقة من غالب الفنون وكان فى ضيق من العيش فاشتغل بنسخ الكتب ، ثم من الله عليه بكرامات فترك النسخ فأقبلت عليه الدنيا وكان يتردد إلى زاوية الشيخ جاهين الخلوتى فى سفح الجبل ، وكان يمكث فيها الليالى متحشدا أى متعبدا وتخرج من درسه غالب علماء عصره ، وله مؤلفات كثيرة منها حاشية على شرح العضد للسعد وحاشية على الشنشورى فى الفرائض وحاشية على مختصر السعد وحاشية على شرح السمرقندى للياسمينية فى الجبر والمقابلة وحاشية على شرح العزيزى للجامع الصغير . . وكان كريم الطبع جدا وليس للدنيا عنده قدر .

٩ — الامام العلامة الفقيه شيخ الاسلام الشيخ عبد الرؤوف بن محمد السجيني الشافعى الأزهرى شيخ الأزهر . . تولى مشيخة الأزهر بعد الحفنى إلا أنه لم تطل مدته . . وتوفى سنة ١١٨٢ هـ (٢) .

وقد أخذ العلوم عن عمه الشمس السجيني ولازمه ، وبعد وفاته درس فى موضعه

(١) ٢٨٩ — ٣٥٣ هـ الجبرتي

(٢) ٣١٦ هـ الجبرتي .

وبعد أن تولى مشيخة الأزهر سار فيها بشهادة وصرامة وتوفي سنة ١١٨٢ هـ، وصلى عليه بالأزهر ودفن بجوار عمه بأعلى البستان، واتفق أنه وقعت له حادثة قبل مشيخته على الجامع الأزهر بمدة وهي التي كانت سبباً لاشتهاره بمصر، وذلك أن تاجراً من تجار خان الخليلي تشاجر مع رجل خادم فضربه ذلك الخادم وفر من أمامه فتبعه هو واثنتان من أبناء جنسه فدخل الفار بيت الشيخ السجيني فدخل التاجر خلفه وضربه برصاصة فأصاب رجلًا من أقارب الشيخ فمات وهرب الضارب وطلبوه فامتنع عليهم وتعصب معه أهل خطته فاهتم الشيخ وجمع المشايخ والقاضى وحضر إليهم جماعة من أمراء الوجافة وانضم إليهم الكثير من العامة وثارَت الفتنة وأغلقت الناس الأسواق واعتصم أهل خان الخليلي بدائرهم وأحاط الناس بهم من كل جهة وقتل بين الفريقين عدة أشخاص واستمر الحال على ذلك أسبوعاً، ثم اجتمعوا بالمحكمة بعد حضور على بك واجتمع الأمر على الصلح ونودي في صديحتها بالأمان، وفتحت الحوانيت والأسواق.

١٠ - الشيخ الامام أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى الأزهرى (١١٠١ - ١١٩٢ هـ).

ولد بدمنهور وقدم الأزهر وهو صغير فجد في الطلب، وأجازه علماء المذاهب الأربعة، وولى مشيخة الجامع الأزهر بعد الشيخ الحنفى عام ١١٨٢ هـ. وله مؤلفات كثيرة، منها حلية اللب المصون بشرح الجواهر المكنون، والقول الصريح في علم التشريع، والزهر الباسم في علم الطلاسم، ومنهج السلوك إلى نصيحة الملوك. وكان مسكنه ببولاق وصلى عليه بالأزهر (١).

وكان يدرس بالمشهد الحسينى في شهر رمضان وهابته الأمراء لكونه قوالاً للحق أماراً بالمعروف، وقصدته الملوك من الأطراف وهادته بالهدايا، ومن مؤلفاته شرح الجواهر المكنون ومنتهى الارادات في تحقيق الاستعارات ونهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف والفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى، وطريق الاهتداء بأحكام الامة والابتداء على مذهب الامام الاعظم وإحياء الفؤاد بمعرفة خواص الاعداد والرقائق الالامية على الرسالة الوضعية وعين الحياة فى استنباط المياه والوفى المئينى، والقول الصريح فى علم التشريع وإقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة والزهر الباسم فى علم الطلاسم.. وله غير ذلك من غالب الفنون، وتوفى سنة ١١٩٢ هـ.

وكان منزله ببولاق، فخرج بمشهد حافل، وصلى عليه بالأزهر ودفن بالبستان رحمه الله.

١١ - الشيخ عبد الرحمن بن عمر الحنفى الأزهرى ولد بقلعة العريش من أعمال غزة وبها نشأ وحفظ بعض المتون ثم حضر فى الأزهر وتولى مشيخة رواق الشوام، وعين مفتى الحنفية.

وأقيم وكيلًا للشيخ الدمنهورى، فلما توفى الشيخ الدمنهورى تولى المشيخة، ولكن علماء الأزهر لم يرضوا عنه وكتبوا للأمراء بأن مشيخة الأزهر من مناصب الشافعية، وليس للحنفية فيها قديم عهد أبداً، وخصوصاً إذا آفاقيا ليس من أهل البلدة، ورشحوا للشيخة الشيخ أحمد العروسى، واستمر الاضطراب سبعة أشهر، ثم ثبت العروسى للشيخة (١) . . وتوفى سنة ١١٩٣

١٢ - الشيخ أبو الصلاح أحمد بن موسى العروسى الشافعى، ولى المشيخة وبقى فيها إلى أن توفى فى أواخر شعبان سنة ١٢٠٨ هـ، ومولده ١١٣٢ هـ، ومن تآليفه شرح على نظم التنوير فى إسقاط التدبير، وحاشية على الملوى على السمرقندى

١٣ - الشيخ عبد الله الشرقاوى الشافعى شيخ الجامع الأزهر، ولد بالطويلة بشرقية بلبس عام ١١٥٠ وتعلم فى الأزهر، وصار من شيوخه ومدرسيه

ولما مات الشيخ أحمد العروسى تولى مشيخة الأزهر بعده، وكانت تعارضت فيه وفى الشيخ مصطفى الصاوى، ثم انتهى الأمر باسنادها إليه وتوفى عام ١٢٢٧ هـ (٢)

كان لما تخرج وحفظ القرآن قدم إلى الجامع الأزهر وسمع الكثير من العلوم عن الشهابين الملوى والجوهري والشمس الحنفى والشيخ الدمنهورى والسيد البليدى والشيخ عطية الاجهورى والشيخ محمد الفارسى والشيخ عمر الطحلاوى، وأخذ الطريق عن الشمس الحنفى ثم عن الشيخ محمود الكردى ولازمه وحضر معه فى اذكاره، ودرس بالجامع الأزهر وبمدرسة السنانية بالصنادقية وبرواق الجبرت والطيرسية وتميز فى الالقاء والتحرير وأفتى فى مذهبه، وله مؤلفات دالة على سعة فضله منها حاشية على التحرير وشرح نظم الشيخ يحيى العمرى ومتمن العقائد المشرقية مع شرحها، وشرح رسالة عبد الفتاح العادلى فى العقائد ومختصر الشمايل مع شرحه وشرح الحكم

(١) ٥٣ و ٥٤ ج ٢ الجبرتى

(٢) ١٥٩ ج ٤ الجبرتى وما بعدها

لابن عطاء الله وشرح الوصايا الكردية في التصوف وشرح ورد السحر للبكرى ومختصر مغنى اللبيب في النحو وحاشية على شرح الهدى في التوحيد وطبقات فقهاء الشافعية المتقدمين والمتأخرين وتاريخ مصر، وله غير ذلك .. وكان في قلة من العيش ثم بعد مدة اشتهر ذكره ووصله بعض التجار بالهدايا، فراج حاله وتجميل بالملابس واشترى دارا بحارة كتامة وهي المعروفة الآن بالدوادارى قرب جامع العيني، واستمر حاله في تحسن إلى أن مات الشيخ أحمد العروسي فتولى بعده مشيخة الأزهر، وكانت تعارضت فيه وفي الشيخ مصطفى الصاوي، ثم حصل الاتفاق عليه .. وقد أنشأ رواق الشراقة بالأزهر لأسباب عديدة، وحصلت أيامه حوادث الحملة الفرنسية وتوفي في يوم الخميس ثاني شوال سنة ١٢٢٧، ودفن بمدفنه الذي بناه لنفسه بقرافة المجاورين، ثم عملت أتباعه وأولاده له مولدا في أيام مولد الشيخ العفني وكتبوا بذلك فرمانا من الباشا.

١٤ - وتولى الشيخ محمد الشنواني مشيخة الأزهر بعد الشيخ الشرقاوي عام

١٢٢٧ هـ.

وقد توفي عام ١٣٣٣ هـ (١) .. وتولى المشيخة قصة، هي أنه لما توفي الشيخ الشرقاوي في السنة المذكورة طلع المشايخ إلى القلعة للباشا بعد وفاته بثلاثة أيام واستأذنه فيمن يجعلونه شيخا على الأزهر، فقال لهم اعملوا رأيكم واختاروا شيخا يكون خاليا عن الاغراض وأنا اقلده ذلك فنزلوا إلى بيوتهم واختلفت آراءهم، فالبعض اختار الشيخ المهدي الكبير والبعض اختار الشيخ الشنواني وامتنع الشيخ الامير عن المشيخة وكذلك ابن الشيخ العروسي، وكان الشيخ الشنواني منعزلا عنهم يقرأ دوسه بجامع الفاكهاني ويديه وظائف خدمته وعند فراغه من الدرس يغير ثيابه ويكنسه ويغسل القناديل ويعمرها ويكنس المراحيض فلما بلغه أنهم ذكروه تغيب .. ثم ان الباشا أمر القاضي بهجت افندي أن يجمع المشايخ ويتفقوا على شخص يكون شيخا بالشرط المذكور، فجمع القاضي أكبر العلماء كالقويسى والفضالى، إلا ابن العروسي والهيثمي والشنواني فأرسلوا اليهم فحضروا، ولم يحضر الشنواني فإرسلوا اليه رسولا فرجع بورقة ويقول: ان له ثلاثة أيام غائبا عن داره وقال لأهله إن طلبوني فاعطوهم هذه الورقة، فأخذ القاضي الورقة ففضها وقرأها فإذا فيها بعد البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: لحضرات مشايخ الاسلام اننا نزلنا عن المشيخة للشيخ بدوى الهيثمي، فعند ذلك قام

(١) ١٦٤ ج ٤ الجبرتي، ٢٩٤ ج ٤ الجبرتي أيضا،

الحاضرون قومة واحدة واكثرهم من الشوام وقالوا هولم يثبت له مشيخة حتى ينزل عنها، وقال كبارهم لا يكون شيخاً إلا من يفيد الطلبة، فقال القاضي ومن الذي ترصونه؟ فقالوا نرضى الشيخ المهدي، وقام الكل وصاحوه وقرؤا الفاتحة وكتب القاضي اعلاما بذلك، وركب المهدي إلى بيته في كبكبة وحوله المشايخ والمجاورون وشربوا الشرابات، وهنتوه وانتظروا جواب الاعلام من الباشا فلم يأت، والمدبرون يدبرون شغلهم، وأحضروا الشيخ الشنواني من مصر القديمة وتمموا تدبيرهم، واحضروا الشيخ منصور اليافى ليعيدوه إلى مشيخة الشوام وجمعوا بقية المشايخ آخر الليل وركبوا في الصباح إلى القلعة فخلع الباشا على الشيخ محمد الشنواني فروة سمور وقرره شيخاً، وكذلك على السيد منصور اليافى وقرره على رواق الشوام كما كان، وأتى اليه الناس أفواجا بهنتونه بالمشيخة.

١٥ - الشيخ محمد العروسي . . وقد تولى المشية بعد الشيخ الشنواني وتوفي في عام ١٢٤٥ هـ (١).

١٦ - الشيخ أحمد بن علي الدهموجي . . وتوفي في ٩ من ذي الحجة عام ١٢٤٦، وهو نسبة إلى قرية دموج قرب بنها.

١٧ - الشيخ حسن بن محمد العطار، توفي عام ١٢٥٠ هـ وكان أبوه فقيراً عطاراً له إلمام بالعلم وكان يستخدم ابنه هذا في صغار شئون الدكان ويعلمه البيع والشراء فاختلف إلى الجامع الأزهر خفية عن أبيه حتى قرأ القرآن وجد في التحصيل على كبار المشايخ كالشيخ الصبان والشيخ الأمير . ولما دخل الفرنسيون مصر فر إلى الصعيد كجماعة من العلماء . ولما رجع اتصل بهم فكان يستفيد منهم ويفيدهم اللغة العربية وكان يقول : إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ويتعجب مما وصلت اليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة . . ثم ارتحل إلى الشام وكان يقول الشعر دون اهتمام به كما هو عادة كثير من العلماء ، ومن شعره :

اني لا كره في الزمان ثلاثة ما إن لها في عدها من زائد
قرب البخيل وجاهلا متفاصحا لا يستحي وتودداً من حاسد
ومن البلية والرزية أن ترى هذي الثلاثة جمعت في واحد
وارتحل إلى بلاد الروم وأقام بها مدة وتأهل بها ثم عاد إلى مصر وعقد مجلساً

(١) ٢٩٤ / ٤ الجبرتي .

لقراءة تفسير البيضاوى، كان يحضره أكابر المشايخ . وله تأليف كثيرة منها :

١ — حاشية على جمع الجوامع نحو مجلدين .

٢ — حاشية على الأزهرية فى النحو .

٣ — حاشية على مقولات السجاعى .

٤ — حاشية على السمر قندية .

وله رسائل فى الطب ، والتشريح ، والرمل ، والزيارحة وكان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية .

١٨ — الشيخ حسن القويسنى نسبة إلى قويسنا توفى سنة ١٢٥٤ هـ ، وكان مع انكشاف بصره مهيباً جداً عند الأمراء وغيرهم .

١٩ — الشيخ أحمد الصائم السفطى نسبة إلى سفط العرفاء قرية جهة الفشن بمديرية المنيا توفى سنة ١٢٦٣ هـ .

٢٠ — الشيخ إبراهيم الباجورى من الباجور بمديرية المنوفية توفى سنة ١٢٧٧ هـ ، وكان قويا فى علمه ضعيفاً فى إداراته ، وكان عباس الأول يزوره فى درسه وبعد موته بقى الأزهر مدة بلاشيخ بل بمجلس مؤلف من أربعة وكلاء تحت رئاسة الشيخ مصطفى العروسى . وهم : الشيخ العدوى المالكي ، والشيخ الحلبي الحنفى ، والشيخ خليفة الفاشنى ، والشيخ مصطفى الصاوى الشافعيان ، وكان هذا المجلس قد ألف لمباشرة أمور الأزهر بعد أن ضعف الشيخ الباجورى وكثرت حوادث الأزهر ، ولما كانت سنة ١٢٨١ هـ تقلد المشيخة الشيخ العروسى .

٢١ — تقلد الشيخ مصطفى العروسى كاتبيه وجده المشيخة إلى عام ١٢٨٧ هـ . ولقد أبطل الشيخ العروسى كثيراً من البدع كالشحاذة بالقرآن وعزم على إدخال الامتحانات بالأزهر ففاجأه العزل من المنصب فنفذ ذلك خلفه .

٢٢ — الشيخ محمد العباسى المهدي الحنفى (١٢٤٣ - ١٣١٥ هـ) . حضر فى الأزهر ودرس فيه وتولى الافتاء عام ١٢٦٤ هـ وجلس للتدريس فى الأزهر أيضاً ، وتولى مشيخة الأزهر جامعاً بين هذا المنصب ومنصب الافتاء ، ووضع أول قانون لأصلاح الأزهر وعزل من المشيخة عام ١٢٩٩ وتولى بدله الشيخ الانبائى وانفرد هو بالإفتاء ، ثم استقال الانبائى فأعيد الشيخ المهدي للمشيخة ، ولكنه استقال بعد مدة فأعيد الشيخ الانبائى شيخاً وعين الشيخ محمد البنا مفتياً ، ثم أعيد المترجم له

إلى الافتاء - وله الفتاوى المهدية (٦٧ - ٨٠ تراجم اعيان القرن الثالث عشر -
أحمد تيمور) .

وقد عاش الشيخ محمد المهدى الحنفى - وهو من شيوخ الأزهر الاجلاء - إلى أن توفى
عام ١٣١٥ هـ .

وكان المهدى العباسى الحنفى مفتى الديار المصرية ورئيس السادة الحنفية ، وقد
تقلد المشيخة أواخر سنة ١٢٨٧ هـ ، فسار فيها سيرا حسنا ودان له الخاص والعام وزاد
الامراء فى تعظيمه ، وهو أول من تقلدها من العلماء الحنفية ، ولما تقلدها قلت على
يديه الشرور والمفاسد فى الأزهر وكثرت به المرتبات من النقود والكساوى
والجرايات المتجددة ، وصار لاكثر أهل الأزهر مرتبات من المالية وغيرها ،
وأثرى كثير منهم بسببه ، وخلصت عليهم الخلع ودعوا فى المجامع الشريفة ، وكان له
سير بليغ فى صرف الاستحقاقات والمشى على شروط الواقفين وقوانين الحكام
وهو الذى سن امتحان التدريس للعلماء . . وذلك أنه استأذن ولى الأمر فى
عمل قانون الامتحان ، واجتمع الرأى بينهم على تعيين ستة لذلك من أكابر العلماء من
كل أهل مذهب من المذاهب الثلاثة اثنان ، سوى مذهب ابن حنبل لقلته ، وجعل
الامتحان فى احد عشر علما من العلوم المتداولة بالأزهر وهى ، الحديث ، والتفسير
والاصول ، والتوحيد ، والفقه ، والنحو ، والصرف ، والمعانى ، والبيان ،
والبديع ، والمنطق ، ومن يريد الامتحان لابد أن يكون قد حضر هذه الفنون
بالجامع الأزهر وحضر كبار الكتب مثل : السعد وجمع الجوامع ، ثم يقدم طلبا
لشيخ الجامع يذكر فيها أنه يريد الدخول فى حومة العلماء المدرسين وينتظم فى سلك
المعلمين ويبين انه حضر كذا وكذا من الفنون وحضر مختصر السعد وابتدأ فى جمع
الجوامع مثلا ، فيؤخر الشيخ تلك الرغبة عنده حتى يستخبر عن أحواله ممن
يعرف حقيقة أمره ، ثم يكتب للمشايخ باعطاء الشهادة فى حقه بالكتابة فيشهد له
جمع من المشايخ اقلهم ثمانية ، ثم يعين له من كل فن درسا ويعطيه ميعادا يطالع فيه
كل فن فى يوم وعلى رأس الأحد عشر يوما ينعقد مجلس الامتحان فى بيت شيخ
الجامع (وصار ينعقد فى الأزهر بالرواق العباسى) ، ويجعل مریدا الامتحان بمنزلة
الشيخ والمتحدين بمنزلة الطلبة فيدرس وهم يسألونه وهو يجيبهم ولا يحضر فى ذلك
المجلس غيرهم فاذا أجاب فى كل فن كتب من الدرجة الاولى ، وإذا أجاب فى أكثر
الفنون كتب من الدرجة الثانية ، وإذا أجاب فى الأقل كتب من الدرجة الثالثة ، وإذا

لم يجب لم يؤذن له في شيء ، ثم تكتب الشهادة لصاحب الدرجة الاولى وترسل إلى الخديوى ، فتكتب له عريضة تشريف متوجة بختم الخديوى تكون معه ، ويخلع عليه فرجية وشريط مقصب يجعله في عمامته في موضع التشرifiات ويكتب للجهات باحترامه ويخفف عنه في السفر نصف الاجرة ، وكان قد استحسن أن لا يمتحن في العام أكثر من ستة ، فإذا تراكت الطلبات من طالبى الامتحان نظر الشيخ في موجبات الترجيح كالشهرة بالعالمية أو الوجاهة أو سبق التاريخ أو كبر السن ... فكان هو أولى من سن قانونا لامتحان طلبة الجامع الأزهر ... وولد الشيخ المذكور بالاسكندرية سنة ١٢٤٣ وقدم مصر سنة ١٢٥٥ واشتغل بالعلم في سنة ١٢٥٦ وتولى الافتاء سنة ١٢٦٤ وكان يحضر في مقدمة السعد على الشيخ إبراهيم السقا وفيها جلس للتدريس ، ثم تولى المشيخة سنة ١٢٨٧ وانصرف عن المشيخة والافتاء ورجع اليهما مرتين ، ومن مؤلفاته الفتاوى المهدية الشهيرة المستعملة كثيرا في أيدى القضاة والمفتين ، وكان له من الاولاد اثنان من المدرسين بازهر وارباب المكنة بمصر ، وهما الاستاذ الشيخ محمد أمين والشيخ عبد الخالق .. وتوفى الشيخ ليلة الاربعاء ١٣ رجب سنة ١٣١٥ ودفن بزاوية الاستاذ الحنفى بقرافة المجاورين ، ورثته العلماء والفضلاء بقصائد شتى قيل في تاريخ بعضها « جزاؤك يامهدى في جنة الخلد » ، وقال بعضهم في مرثيته عليه دمع الفتاوى بات منحدرا وللمحارب حزن ضاق عن حد فيها المسائل قد باتت تؤرخه مات المجيب الامام المقتدى المهدى

٢٣ - الشيخ محمد الامباني الشافعى ، وقد تولى المشيخة عام ١٢٩٩ ، ثم تركها وعاد إليها الشيخ محمد المهدى الحنفى ثانية ، وبقي فيها إلى أن استقال منها في ١٣٠٤ هـ وتقلدها بعده الشيخ محمد الامباني ثانية ، وبقي فيها إلى أن استقال منها عام ١٣١٣ هـ .

ولد الشيخ المذكور بالقاهرة سنة ١٢٤٠ وحفظ القرآن الشريف والمتون بالجامع الأزهر ، وفي سنة ١٢٥٣ شرع في تلقى العلوم فاجتهد في الطلب وأخذ عن شيخ الاسلام الشيخ البجورى والشيخ إبراهيم السقا والشيخ مصطفى البولاقى وأضرابهم وشغل ليله ونهاره بالمطالعة حتى فاق أقرانه وتمكن تمكنا زائدا ، ودرس في سنة ١٢٦٧ وقرأ جميع الكتب التى تدرس في الأزهر ، وكتب عليها تقارير وحواشى . . ومنها تقرير على حاشية العطار على الأزهرية ، وتقرير على حاشية السجاعى على القطر ، وتقرير على حاشية الأمير على شرح الشذور ، وتقرير على حاشية السجاعى على شرح ابن عقيل ، وتقرير على شرح الأشموني ، وتقرير على التجريد حاشية

مختصر السعد، وتقرير على جمع الجوامع وتقرير على حاشية البجورى على السلم وتقرير على آداب البحث وتقرير على حواشى السمرقندية وتقرير على مختصر السنوسى وحاشية على رسالة الصبان، وحاشية على مقدمة القسطلانى شرح صحيح البخارى، وحاشية على رسالة الدردير فى البيان وتقرير على حاشية البرماوى على شرح ابن قاسم فى فقه الشافعى . . ومنها فتاوى فقهية، ورسالتان فى البسملة صغرى وكبرى، ورسالتان فى «زيد أسد، صغرى وكبرى» رسالة فى علم الوضع، ورسالة فى «من حفظ حجة على من لم يحفظ» . . وله غير ذلك من التأليف النفيسة، وبالجملة فقد جمع بين العلم والعمل والدنيا والدين، وقد تخرج على يديه كثير ممن تصدروا للتدريس . . والانباى نسبة إلى انبا به وهى تجاه بولاق مصر من الشاطئ الغربى للنيل ولم يكن الشيخ منها وإنما نسب إليها لكون والده كان منها واشتهر بالنسبة إليها وكان والده من أكبر التجار بالقاهرة، ولما توفى الشيخ حزن عليه العلماء وأظهرت الأمة الحزن عليه، وورثته الشعراء بقصائد كثيرة.

٢٤ - الشيخ حسونة النواوى الحنفى (١٢٥٥ - ١٣٤٣)

تعلم فى الأزهر وصار مدرسا فى دار العلوم ومدرسة الادارة (الحقوق)

ثم عين رئيسا لمجلس الأزهر الأعلى عهد الشيخ الانباى - ولما أقيل الشيخ الانباى عام ١٣١٣ عين المترجم له شيخا للأزهر

وأضيف إليه منصب الافتاء بوفاة الشيخ محمد المهدي العباسى المفتى عام ١٣١٥ وأقيل أول عام ١٣١٧ وأقيم ابن عمه الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى شيخا للأزهر والشيخ محمد عبده مفتيا. وتوفى ابن عمه بعد شهر من ولايته على الأزهر سنة ١٣١٧، فعين الشيخ سليم البشرى شيخا له عام ١٣١٧ ولما أقيل آخر عام ١٣٢٠ ولى الشيخ على الببلاوى على الأزهر، واستقال فى ٩ المحرم عام ١٣٢٣، وعين بعده الشيخ عبد الرحمن الشرينى شيخا ثم استقال فى ١٦ ذى الحجة عام ١٣٢٤، فعين النواوى شيخا للأزهر للمرة الثانية، واستقال من المنصب عام ١٣٢٧، فأعيد الشيخ سليم للمشيشة، (٥٦ - ٦٣ أعيان القرن الثالث عشر - أحمد تيمور)

وسن الشيخ قانونا لأهل الأزهر، وفى أواخر مشيخته أسس مجلسا لإدارة الأزهر بأمر الخديو، وسن قانونا لإصلاح الأزهر . . وكان بعد استعفاء الشيخ الانباى عن المشيشة تولاها فى سنة ١٣١٢ بأمر الخديو وكانت جملة كبار العلماء قدموا التماسا بطلب المشيشة فلم يلتفت الخديو إليهم، ثم سن قانونا آخر مشتملا على ستة أبواب تشتمل على

اثنين وستين مادة .. ولنذكر بعض أبوابه .

الباب الاول في الادارة العمومية ، وفيه تشكيل مجلس إدارة الأزهر من خمسة أعضاء غير الرئيس منهم ثلاثة من أفاضل علماء الأزهر واثنان من العلماء الموظفين بالحكومة وانهقاده على الأقل كل خمسة عشر يوما مرة واختصاصه بتصدير القرارات والقواعد التي يكون بموجبها سير التدريس وضبط الطلبة والاعمال وكل ما له علاقة بالأزهر وغير ذلك .

الباب الثاني في شروط الانتظام في سلك طلبة الأزهر ، ومنه أن لا يعتبر من طلبة العلم في الأزهر إلا من بلغ من السن خمس عشرة سنة على الأقل وأن يكون له دراية بالكتابة والقراءة وأن يكون حافظا لنصف القرآن ، ويتعين حفظ كله على كفيف البصر ، وغير ذلك .

الباب الثالث في التعليم ، ومنه منع قراءة الحواشي والتقارير منعاً باتاً في جميع العلوم في الأربع سنوات الاول وبعدها تخير الطلبة والاساتذة في النظر في الحواشي ، أما التقارير فلا يجوز استعمالها إلا بقرار من مجلس الإدارة ، وغير ذلك .

الباب الرابع في الامتحان ، وفيه انقسام الامتحان إلى قسمين : الاول امتحان شهادة الاهلية لمن أمضى ثمان سنوات فأكثر في الأزهر وحصل ثمانية علوم على الأقل ، ويؤلف لجنة الامتحان من ثلاثة من العلماء تحت رئاسة شيخ الجامع الأزهر ، أما امتحان شهادة العالمية فلين أمضى اثني عشرة سنة ، وتؤلف لجنة الامتحان من ستة من أكابر المدرسين من كل مذهب اثنان والدرجات التي يمنحها الطالب : أولى ، وثانية ، وثالثة .. ثم تكوين مجلس إدارة الأزهر وفي مقدمته صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، وكان برئاسة الشيخ حسونه النواوي لإجراء مقتضيات هذا القانون ، فقرر قواعد الانتساب والانتظار والاستحقاق في الجرايات والتدريس والمساحات والعلوم ، وأوجدوا في الأزهر نهضة علمية عظيمة ، واحضروا للعلوم الرياضية امهر المدرسين ، ووضعوا امتحانا سنويا ، وحرفوا ستمائة جنيه مكافأة للناجحين في أي فن كان ، وتقدم طلاب الأزهر تقدما كبيرا . . وانضمت للشيخ وظيفة الافتاء سنة ١٣١٥ بعد وفاة الشيخ المهدي بعد ما قام وكيلا عنه مدة ، وهو ثاني من جمع بين الافتاء والمشيخة الأزهرية من الحنفية . . وفي مشيخته انشئت المكتبة الأزهرية ، وبني الرواق العباسي ، وأكثر من امتحان طالبي التدريس ، وزيد في مرتبات

العلماء ومشايخ الأروقة والمحارات من الأوقاف ، وحرف عن الاقتناء والمشيخة في ٢٥ محرم سنة ١٣١٧ ، وولد الشيخ سنة ١٢٥٥ بنواى قرية من أعمال أسيوط بمركو ملوى وقدم الأزهر وأخذ عن كبار المشايخ وتربى على يده كثير من المدرسين ودرس بجامع القلعة وألف كتابا في الفقه الحنفى يدرس بها .. ومن أولاده الشيخ محمد حسونة من علماء الأزهر .

٢٥ - السيد على الببلاوى المالكي (١٢٥١ - ١٣٢٣ هـ) حضر في الأزهر ودرس فيه ، وتولى نظارة دار الكتب عام ١٢٩٩ هـ ثم عين شيخا لمسجد الحسين سنة ١٣١١ هـ ، وأقيم نقيباً للإشراف عام ١٣١٢ هـ .

وعين شيخا للأزهر عام ١٣٢٠ هـ بعد استقالة الشيخ سليم البشرى - وظل في المشيخة إلى أن استقال منها أول عام ١٣٢٣ هـ (٨١ - ٨٥ أعيان القرن ١٣ - أحمد تيمور) .

٢٦ - الشيخ سليم البشرى المالكي ، وظل فيها إلى أن أقبل منها في ذى الحجة ١٣٢٠ هـ ، بسبب حادث مسجد السيدة نفيسة مع حاكم مصر وقتئذ .

ولد الشيخ بمحلة بشر سنة ١٢٤٨ ، وهى قرية من مديرية البحيرة بمركز بلاد الأرز شرقى ترعة الخطاطبة بالقطر المصرى ، وقدم إلى مصر بعد ما حفظ القرآن الكريم واشتغل بالعلم على مذهب الامام مالك رضى الله عنه ، وجد في التحصيل على كبار العلماء كالشيخ البجورى والشيخ عليش واضرابهما حتى مهر ، ودرس في سنة ١٢٧٢ ، ودرس جميع الكتب المعتادة بالأزهر مرات عديدة وتخرج من درسه كثير من أكابر ومشاهير العلماء المدرسين بالأزهر كالشيخ الفاضل الشيخ محمد راشد أمام المعية والمرحوم الشيخ البسيونى البيبانى والمرحوم الشيخ محمد عرفه ، وغير هؤلاء من افاضل المدرسين بالأزهر ، ولما عين شيخاً للجامع الزينى وكان خالياً من المدرسين رتب نحو السبعة من العلماء للتدريس به منهم من يقرأ الحديث ومنهم من يقرأ الفقه على الاربعة المذاهب ومنهم من يقرأ الاخلاق وغير ذلك ، وطلب لهم مرتبات من الاوقاف ، ورتب لهم ذلك حتى صار ذلك الجامع كانه قطعة من الأزهر ، وفي ١٣٠٥ هـ صار شيخا للمالكية وكانت قد ألغيت نحو خمس سنوات بعد الشيخ عليش فأحيها الشيخ وقد جمع بين المشيختين . ومن تأليفه تحفة الطلاب في شرح رسالة الآداب ، وحاشيته على رسالة عليش في التوحيد . وكان ابنه الشيخ عبد العزيز البشرى من افاضل العلماء والكتاب ، وتوفي عام ١٩٤٣

٢٧ - السيد علي محمد البيلوي المالكي وقد بقي فيها إلى أن استقال منها في أوائل محرم سنة ١٣٢٣ هـ .

٢٨ - الشيخ عبد الرحمن الشريفي ولي المشيخة في ١٣ محرم ١٣٢٣ هـ وبقي فيها إلى أن استقال منها في ذي الحجة ١٣٢٤ هـ .

٢٩ - الشيخ حسونة النواوي للمرة الثانية ، واستقال في السنة نفسها فتولاها مرة ثانية .

٣٠ - الشيخ سليم البشري ، وتوفي سنة ١٣٣٥ هـ .

٣١ - محمد أبو الفضل الجيزاوي ولي المشيخة إلى سنة ١٣٤٦ هـ ، ثم خلفه في ذي الحجة ١٣٤٦ هـ ٢٢ مايو ١٩٢٨ المراهي .

٣٢ - الشيخ محمد مصطفى المراهي ، ولي المشيخة إلى أن استقال في سنة ١٣٤٨ هـ أكتوبر سنة ١٩٢٩ .

٣٣ - محمد الاحمدى الظواهري (المتوفى في ١٣ مايو سنة ١٩٤٤) ، وقد عزل من المشيخة في ٢٣ محرم ١٣٥٤ هـ - ٢٦ ابريل ١٩٣٥ .

٣٤ - الشيخ محمد مصطفى المراهي للمرة الثانية .

وظل في المشيخة الشيخ المراهي رحمه الله . . حتى توفي في ١٤ رمضان عام ١٣٦٤ هـ - الموافق ٢٢ أغسطس عام ١٩٤٥ . . وقام بأمر المشيخة بعده الشيخ محمد مأمون الشناوي وكيل الأزهر في ذلك الحين . . ولما استقال من الوكالة خلفه الشيخ عبد الرحمن حسن في وكالة الأزهر والاشراف عليه .

٣٥ - ثم عين الشيخ مصطفى عبد الرازق - شيخا للأزهر في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٥ هـ - وظل فيها حتى توفي في منتصف فبراير عام ١٩٤٧ (١٣٦٤ - ١٣٦٥ هـ)

٣٦ - وعين الشيخ محمد مأمون الشناوي في المشيخة عام ١٣٦٧ هـ ، ١٨ يناير ١٩٤٨ وظل فيها حتى توفي في ٢١ من ذي القعدة عام ١٣٦٩ هـ ، ٤ سبتمبر عام ١٩٥٠ ، وامتاز عهده بضعف أثر العصبية في الأزهر ، وبالقضاء على الفتن والاضطرابات وزيادة البحوث الإسلامية الوافدة على الأزهر ، وزيادة العلماء الذين أرسلوا إلى الأقطار الإسلامية ، وبمكانة الأزهر في المجتمع ، وبإلغاء البغاء وتحديد الخمر وجعل الدين مادة رسمية في المدارس ، وبارتفاع ميزانية الأزهر إلى نحو مليون وثلاث ، وبكثرة خريجي الأزهر في مدارس الحكومة . . وأنشئ في عهده معهد محمد علي بالمنصورة ، ومعهد منوف ، وضم معهد سمنود إلى الأزهر . وكذلك

معهد الفيوم والمنيا . . وقد شيعت جنازته إلى مقرها الأخير يوم الثلاثاء ٥ سبتمبر عام ١٩٥٠ (١) .

٣٧ - وعين بعده الشيخ عبد المجيد سليم شيخا للأزهر في يوم الأحد ٢٦ من ذي الحجة ١٣٦٦ هـ ، ٨ أكتوبر عام ١٩٥٠ ، وظل في المشيخة إلى أن أعفى منها في اليوم الرابع من سبتمبر عام ١٩٥١ ، لمناهضته للحكومة القائمة وعدم الاستقرار والهدوء في الأزهر ، وذلك في ٤ سبتمبر عام ١٩٥١ .

٣٨ - وأسندت المشيخة - إلى الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حروش . . وفي عهده قامت الحركة الوطنية لمناهضة الانجليز والاستعمار ، وكان للشيخ مواقف مشهودة في هذه الحركة . . وقد ظل في المشيخة إلى أن أعفى منها في اليوم العاشر من شهر فبراير عام ١٩٥٢ .

٣٩ - وأسندت المشيخة في هذا اليوم نفسه إلى الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم للمرة الثانية . . وقد ظل فيها حتى استقال منها في ١٧ سبتمبر ١٩٥٢ (٢) ، وقد توفي عليه رحمة الله في صباح يوم الخميس ١٠ صفر ١٣٧٤ هـ - ٧ أكتوبر عام ١٩٥٤ وكان رحمه الله مثلاً كريماً في الغيرة على الأزهر واصلاحه ، وترك فيه آثاراً كثيرة ، وكانت له شهرة عالمية في الإلمام بشق العلوم والمعارف الإسلامية . . وقد ترك فراغاً كبيراً لا يسد ، كما ترك تلاميذ ومريدين يذكرونه بالخبر والاجلال والوفاء .

(١) راجع كتابي « الإسلام ومبادئه الخالدة » الذي ترجمت فيه للشيخ الثناوى وذكرته فيه الكثير من دراساته الإسلامية .

(٢) نص استقالة الشيخ سليم : بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر إلى السيد الرئيس اللواء أركان حرب محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة ، رئيس مجلس الوزراء . . سلام الله عليكم ورحمته . أما بعد ، فقد علمت أن الحكومة لم تر اجابتي إلى مطلبي بشأن المناصب الأزهرية الأربعة ، ولما كنت لا أستطيع القيام بواجبي على النحو الذي أعتقد أنه يرضى ربي إلا بتحقيق ما طلبت ، فإنني أبعث إليكم بهذا الكتاب راجياً أن ترفعوا استقالتي من مشيخة الجامع الأزهر إلى مجلس الوصاية المؤقت ، والله أسأل أن يوفقني وإياكم إلى ما فيه الخير للأمة ولدين الله القويم ، والسلام عليكم ورحمة الله . . القاهرة في يوم الأربعاء ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٧١ هـ - ١٧ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

٤ - الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين ، وقد تولى المشيخة بعد الشيخ عبد المجيد سليم ، وبدأ عمله بإحالة وكيل الأزهر الشيخ عبد الرحمن حسن إلى المعاش وتعيين الشيخ محمد عبد اللطيف دراز والشيخ محمد نور الدين الحسن وكيلين ، وبإلغاء منصب السكرتير العام ومدير المعاهد - واستمر في المشيخة إلى أن استقال منها في أوائل يناير ١٩٥٤

٤١ - الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج ، وقد تولى المشيخة بعد الشيخ محمد الخضر حسين في يوم الجمعة ٢ جمادى الأولى ١٣٧٣ هـ - ٨ يناير ١٩٥٤ ، وبدأ عمله بإحالة الوكيلين الشيخ دراز والشيخ نور الدين الحسن إلى المعاش ، وبتخفيض سن الإحالة على المعاش لعلباء الأزهر إلى الخامسة والستين ، وبإحالة أعضاء جماعة كبار العلماء الذين بلغوا هذه السن إلى المعاش كذلك .

والشيخ تاج مولود عام ١٨٩٦ بأسسوط ونال العالمية عام ١٩٢٣ وشهادة التخصص عام ١٩٢٦ ، وسافر عام ١٩٣٦ إلى فرنسا ، حيث عاد منها عام ١٩٤٣ بلبق دكتور ، وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء ١٩٥١ م .

الفصل الثاني

تراجم لبعض شيوخ الأزهر

الشيخ محمد الأحمدى الظواهري

توفي رحمه الله في ١٣ مايو عام ١٩٤٤ ، وقد تولى المشيخة خمس سنوات كان الأزهريون والشيخ فيها في نضال مستمر ، مع ما كسب الأزهر فيها من استتباب الدراسة وقوة الروح العلمية .

ولى مشيخة معهد طنطا ، في سن مبكرة ، وبقي شيخا له ، إلى أن نقل شيخا لمعهد أسيوط ، في أكتوبر - ١٩٢٣ فأحسن الناس استقباله وراقبهم فيه نظامة مظهره ، وفصاحة منطقه ، وسخاء يده . وسرهم أن يروا لشيخ العلماء مهابة خاصة . ولكن الشيخ في أسيوط ، لم يكن يفارقه الحزن إلا قليلا ، لأنه نقل إلى أسيوط ، وهو غير راض بنقله ، لذا كان كثير المرض ، كثير السفر قليل الاهتمام بالحياة .

وله على معهد أسيوط فضل كثير ، إذ نقل الدراسة من المساجد وأنقذ الطلاب من اقتراش الحصر ، واستأجر للدراسة قصورا فخمة واسعة ، في مناطق عامرة . وتنازل للحكومة عن مستشفى الحيات ، وأخذ بدله تلك البقعة التي أقيم عليها المعهد الجديد ، على شاطئ النيل بالحمراء ، سنة ١٩٢٤ . وحينما وضع الحجر الأساسى فى بناء المعهد ، سنة ١٩٣٠ كان الشيخ شيخنا للأزهر .

ولما عين الأستاذ المراغى ، شيخنا للأزهر سنة ١٩٢٨ وشاع الخبر فى أسيوط ، اتفق أن أصيب الشيخ الأحمدي بمرض شديد ، أثار حوله الاقارب ، ولكنه شفى منه ، وبعد قليل نقل شيخنا لمعهد طنطا ، فى يوليو - ١٩٢٧ .

وفى أكتوبر ١٩٢٩ استقال الشيخ المراغى ، وعين الشيخ الأحمدي ، شيخنا للأزهر .

وفى ٢٨ إبريل ١٩٣٥ استقال من وظيفة المشيخة وعين الشيخ المراغى مكانه ... ويقول الدكتور عثمان أمين عنه من كلمة له :

« يرجع اهتمامى بالشيخ الظواهري إلى ما قرأته عند لأحد المستشرقين ، فى النسخة الفرنسية لدائرة المعارف الاسلامية ، تعريفا بكتاب له عنوانه « العلم والعلماء » ، نشر بطنطا سنة ١٩٠٤ ، وقد أحبت أن اقتطف من مقال ذلك المستشرق ما ترجمته إلى العربية : « إن روح الاخلاص والصفاء التى تظهر فى هذا الكتاب لتعد نادرة حتى بيننا نحن المسيحيين ، فبالك وجودها فى الاسلام الذى دب فيه الجود ، ومن العجب جدا فى هذا الكتاب الجمع بين وجهة النظر الاسلامية والاحساس بفائدة ما يأتى من مصادر أخرى . فالمؤلف يرى أنه يجب أن يأخذ المسلمون ليس عن أوروبا بحسب ، بل عن الصين واليابان أيضا . ويرى أن من بين المواد التى ينبغى دراستها الدعوة للاسلام ، ويرغب المؤلف فى عقد المؤتمرات السنوية لبناء فكرة الجامعة الاسلامية ثم يعين وسائل الثقافة التى تتطلبها لجان من العلماء ، واخراج دائرة معارف ، ونشر التعليم الجامعى بين أفراد الامة ، كما قال إنه يجب تطهير الاسلام من الخزعبلات والعوائق التى تبطله . والكتاب على كل حال برهان ساطع على عقيدة الكاتب الراضية وإيمانه بالمثل العليا . »

أغرائى هذا الوصف الذى قرأته فى باريس بالبحث عن الكتاب فى مصر . فلما قرأت الكتاب بنفسى انكشف لى منه أمران : أولهما أن مؤلفه كان من تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده : فهو يذكره فى الكتاب صراحة ، وهو يتهج فى التعليم

نهجه ، ويدعو الأزهريين إلى ترسم خطاه ، وثانيهما أن هذا الشاب كان فيلسوفا ناشئا ، وإن لم يكن يعلم ذلك عن نفسه ، فانه حين تسكلم في كتابه عن السكال الروحي وعن الصوفية عاج هذه الأمور بروح فلسفية ، ولعل الفلسفة أخذت سبيلها إلى نفسه ، دون وعى ظاهر منه عن طريق أستاذه محمد عبده .

ويرجع توثق الصلة بين الاستاذ والتلميذ إلى سنة ١٩٠٢ حين تقدم الظواهري لنيل شهادة العالمية إلى لجنة الامتحان المنعقدة برئاسة محمد عبده ، فأجاد في الاجابة لإجادة أعجب بها الاستاذ الامام ، فأثنى عليه على مسمع من الحاضرين ، ويقال إنه طلب له شيئا من شراب الخروب وقال له : لقد فتح الله عليك يا أحمدي ، والله إنك أعلم من أبيك ، ولو كان عندي أرقى من الدرجة الاولى لاعطيتك إياها . ولهذا الحادثة نفسها دلالتان : الاولى أنها تشير إلى ذكاء الاحمدي الظواهري وسعة علمه اللذين اشتهر بهما منذ نشأته ، والثانية أنها تشير إلى ما اتصف به الاستاذ الامام من الانصاف وقوة الاخلاق : فقد كان بينه وبين الشيخ إبراهيم الظواهري - والد الشيخ الاحمدي - خلاف في الرأي والمنازعات ، لان إبراهيم الظواهري كان من الشيوخ المحافظين الميالين إلى تصديق الكرامات والاعتقاد بقصص المجاذيب والاولياء ، وكان الشيخ محمد عبده يستنكر ذلك ، لكنه لم يتأثر في حكمه على الابن بما كان بينه وبين أبيه .

وفي مكتبته ذخيرة من العلم المخطوط بيده ، هي مجموعة من مؤلفات كتبها في شبابه منها : خواص المعقولات في أصول المنطق وسائر العقليات ، و : التفاضل بالفضيلة ، و : الوصايا والآداب ، و : صفوة الاساليب ، و : حكم الحكماء ، و : براءة الاسلام من أوهام العوام ، و : مقادير الاخلاق ، ولكن مخطوطا منها استوقفني لطرافته ، وعنوانه : الكلمة الاولى في آداب الفهم . وقد أراد به أن يكون بمثابة ضابط عقلي أو قانون كلي ، لرفع الخلاف القائم في كيفية فهم المتأخرين لاقوال المتقدمين من المؤلفين في العلوم الدينية . وقد جاء في مقدمة المخطوط : : لقد دعاني داعي الاستكمال والتمسك بأذيال الامثال إلى مطالعة أسرار الدين للوصول إلى عين البقين ، والنهوض من مراقد الوهم وظلمات الجهالة إلى مراقى الفهم ونور الحق المبين ، . . . ديد أنه قد تباينت الطرق ، وتنازعت الفرق ، واختلفت أهواء الخلاف في كيفية الوصول إلى مرأى أنظار الاول ، وإصابة الغرض المقصود من عباراتهم ، وتفرقوا شيعا في تقرير المسائل ، فكانت هممة قوم فيما يرجع إلى المعاني

الاصلية ، ومال قوم إلى الخطابة والمجدل ، وآخرون إلى التخريج على المعنى البعيد أو التنبيه على احتمال جديد ، وتنافس البعض في الاستشكال والتغليط ، حتى إنه ليخيل إلى الناظر في ظرائقهم أن الحقيقة صعبة المنال ، وأن اليقين مطلب محال . . . فدفعني ذلك إلى أن أضع حلما شاملا وقانونا جامعاً به تستفاد حقائق المعاني من أصداف الكلام ، ويجمع الناظرين على أقوم طريق به يمكن الوصول إلى تمام المعنى بحيث يوقف القارئ البصير في وقت قصير على كل ما في الحواشي والتقارير . ويرفع الخلاف القائم في كيفية الفهم ، ويزيل التشويش والابهام ، ويمكن أهل العلم من الانتصار على جيوش الاوهام .

وقلما تحمس الظواهري في شبابه لاعلاء شأن الأزهر وإصلاح المسلمين ، كما يتضح من كتاب « العلم والعلماء » ، فأصابه من جراء ذلك ما أصاب غيره من المصلحين ، كما يتضح ذلك من مذكراته التي نشرها ابنة بعنوان « السياسة والأزهر » . ويتبين من الرسالة التي نشرتها مشيخة الأزهر هذا العام لمناسبة المعرض المصري الأخير أن أكثر ما استحدثت من منشآت وما تم من إصلاحات في الأزهر الحديث كان للظواهري فيه أثر بارز . . . وبمقتضى القانون رقم ٤ لسنة ١٩٣٠ الذي صدر في عهد مشيخته أنشئت الكليات الأزهرية الثلاث ، وبمقتضى القانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٣٢ الذي صدر في عهده أيضا نظم التخصص ، وغيرت مناهج التعليم في الجامعة الأزهرية لكي تتماشى مع التقدم العلمي الحديث . وبذلك دخلت الأزهر على يد الظواهري دراسات لم يكن للأزهريين عهد بها من قبل ، كاللغات الأجنبية ، من شرقية وغربية والاقتصاد السياسي والقانون الدولي الخاص ، وأصول القوانين ووسائل الدعوة إلى سبيل الله ، والخطابة واللقاء والمناظرة ، وعلم النفس والتربية البدنية وغيرها ، ويتبين من رسالة مشيخة الأزهر أيضا أن الظواهري قد سبق إلى التفكير في إيجاد بعوث من الأزهر للدعوة للإسلام في الخارج ، فأوفد بعثتين للصين والحبشة وأنشأ مجلة « نور الإسلام » ووضع مشروع الابنية الفخمة للجامعة الأزهرية الحديثة ، وقد تمت في عهده ثلاث من عمائرها الكبرى .

وللشيخ الاحمدى أثر ظاهر في ميدان آخر نحب أن لا يفوتنا التنويه به هنا . ويتجلى ذلك الاثر في تقرير محفوظ بوزارة الخارجية المصرية عن المؤتمر الاسلامي الذي دعا إليه الملك ابن سعود ، وعقد في مكة سنة ١٩٢٦ ، ويتبين منه أن الشيخ الظواهري استطاع وهو رئيس وفد مصر في ذلك المؤتمر أن يكون واسطة العقد

بين المؤتمرين ، وأن يكون رسول سلام وتوفيق بين المتنازعين في موضوع الحرية المذهبية في أرض الحجاز ، كما استطاع بقوة حجته وإقناعه أن يستصدر من المؤتمرين قرار يصرح على رؤوس الأشهاد بوحدة مصر والسودان . وبما يجدر ذكره في هذا المقام أن عبد الخالق ثروت وزير الخارجية المصرية وقتئذ قال حين علم بنجاح الشيخ الظواهري في ذلك المؤتمر : « لم أكن أعلم أن الأزهر يخرج سفراء في السياسة » .

الشيخ محمد مصطفى المراغي

علم من أعلام الفكر الاسلامي المعاصر ، وشخصية نادرة من أشهر الشخصيات الاسلامية في القرن العشرين . ورجل غريب بين زملائه وأقرانه في العصر الذي عاش فيه ، وزعيم وروحى ألقى إليه مقاليد الأزهر فترة طويلة .

ذلكم هو الشيخ محمد مصطفى المراغي ، تلميذ محمد عبده ، والعالم الأزهرى الواسع الافق ، العميق الثقافة ، وقاضى القضاة المصرى في السودان ، ورئيس المحكمة العليا الشرعية ، وشيخ الأزهر من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٢٩ م ثم من عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٤٥ م (١٣٦٤ هـ) حيث وافاه أجله المحتوم .

كان المراغي مثالا نادرا في الاعتزاز بالنفس ، والشعور بالكرامة ، والايان بالاصلاح ، وفي عهد توليه مشيخة الأزهر ، وضع أساسا قويا لصرح الأزهر العلمى برعايته لاقتسام الدراسات للعلما فيه ، وتشجيعه لطلابها وخريجها ، وإشرافه على مواسمها العلمية ، ومناقشته لرسائلها . وكان الشيخ المراغي ذا فكوة قوية عن الثقافة الحديثة ، ورغبة جافزة فى صبغ الأزهر بصبغتها . وقد عمل على إخراج جيل جديد من العلماء المثقفين بشق الثقافات ، ونجح فى ذلك إلى حد بعيد ، وكانت صلات المراغي بأقطاب المجتمع والسياسة والفكر والادب فى عهده عوناً له على بلوغ آماله فى إصلاح الأزهر ، وقد جاهد جهادا خيئاً للنهوض بهذه الجامعة الاسلامية الكبرى ، ولبت روح الحياة والاصلاح فيها . وكانت مكانته فى نفوس الجماهير من العلماء والطلاب تساعد على الاصلاح . وكان أكثر الأزهريين تقديرا للكفايات من العلماء والطلاب وتشجيعا لها ، كانوا يأخذون عليه تدخله فى السياسة ، وقيام إدارته فى الأزهر على العصبية ، ولكن ذلك شئ تافه لا يقاس بجانب ما أحدثه فى الأزهر من ثورة وحياة وتجديد .

لقد انتهت بعد المراغي الاجتماعات فى المناسبات الدينية التى كانت تضم الألوف

من القادة والعلماء والطلاب والجمهير . وحوربت وعطلت أقسام الدراسات العليا في الأزهر . وساءت أمور الأزهر ، وضعف نشاطه العلمي .

استقال رحمه الله من مشيخته الأولى في آخر سبتمبر سنة ١٩٢٩ على أثر تأخر صدور المرسوم الملكي بقانون الأزهر الجديد ، وقد حاول رئيس الوزراء آنئذ وهو المرحوم محمد محمود باشا إقناعه بالعدول عنها ، ولكنه لم يقبل ، وصدر المرسوم الملكي بتعيين الشيخ الظواهري شيخاً للأزهر في أوائل أكتوبر سنة ١٩٢٩ .

وأذكر أنه لما تولى المراغى مشيخة الأزهر للمرة الثانية ، استقبله الأزهر استقبالاً كريماً ، وأقام له حفلة تكريم في يوليو عام ١٩٣٥ بسراى معرض الجيزة بالقاهرة حضرها حشد كبير من الشخصيات الكبيرة ورجال الدين ، ودعى ممثلو طلبة المعاهد الدينية لالقاء كلمات في هذه الحفلة ، وكنت ممثلاً لطلاب معهد الزقازيق الدينى ، وكان ممثل الاساتذة الاستاذ الكبير الشيخ محمود النواوى وكنت قد أعددت حينئذ كلمة لالقاءها في الحفلة ، ولكن عدل عن إلقاء ممثلى المعاهد لكلماتهم ، لضيق الوقت وكثرة الخطباء ، وكان من هذه الكلمة التى أعدتها حينئذ ، وأنا طالب في السنة الرابعة الثانوية بمعهد الزقازيق الدينى :
 ، في هذا اليوم الخالد والحفل الحاشد تتحدث الاجيال عن الأزهر الشاى وشيخه الجديد حديثاً ملؤه الاعجاب والاحلال ، لأنه حديث الأرواح ونجوى القلوب .
 أما الأزهر فهو الأزهر كما يعرفه الخاصة والعامة وكما يعرفه المسلمون في مشارق الارض ومغاربها وكما تعرفه الاجيال الغابرة والاجيال الحاضرة .. هو محط الرحال ، وكعبة الامال ، وجمع الدين والعلم والأدب ومفخرة مصر والشرق والعرب ، هو قلب الاسلام الخافق ولسانه الناطق ، وعلمه المرفوع ، هو تلك الجامعة العظيمة التى أضنى عليها الزمان ثياب الجلال واسبل عليها الخلود ستور الجمال ، فحفظت للاسلام مكانته ورفعت للدين رايتها ومدت على العربية ظلها الممدود ، وحملت لواءها المعقود ، وخرجت أئمة الهدى ومصابيح الحكمة وشعت منها أشعة النور في كل بقعة ومكان - فالأزهر هو دعامة الاخلاق وحصن الفضيلة ومفخرة القاهرة وصرح مصر الخالدة ، بل هو معجزة الدهور وآية القرون .. ومادام للأزهر وجود فله رسالة في الحياة تضارع في جلالها رسالة الانبياء ووحى المرسلين ، وان استمدت آيتها من آيتهم ، وهداياهم من هديهم .

رسالة الأزهر هي العناية بنشر الدين ، والسهر على مصالح المسلمين ، واحياء الاخلاق

الفاضلة، وإقامة المبادئ العادلة التي جاء بها القرآن الكريم، وإيقاظ الشرق الراقدين غفلته، ليكون مهيئ الوحي ومبعث النور ومصدر الهداية ورسول الحضارة، وقائد العالم كما كان الأزهر في أيامه الماضية .

وإذا كان للأزهر مكانة وجلالة ومهمة ورسالة، فله رئاسة جليلة نصبها الإسلام عنه وكيلا وأقامها الأزهر له كفيلا، فالتفت حولها القلوب، وشايعتها الأرواح وآوى إليها الخائف والمظلوم والمكروب .

ولقد أدت مشيخة الأزهر للشرق والإسلام خدمات جليلة، حفظت تراث السالفين وسهرت على تهذيب الناشئين، وأطفأت نار الشك ببرد اليقين .

ولما طفر التعليم المدني في مصر أقبل عليه الناس وجحدوا ما للأزهر من فضل وجليل، وطفقوا ينعون عليه جهوده، ويعيبون عليه جموده، حتى هزمتهم صيحة الإصلاح من رجل الإصلاح الأول حكيم الإسلام وفقيد الشرق المغفور له الإمام محمد عبده، فعارضها المعارضون وسخر منها الجامدون، ولم يقدرها إلا أفراد قلائل كان من بينهم شاب ذكي وفقى نابه اقتنى أثر أستاذه الحكيم، هو الشيخ المراغي .

وجاء من خطبة فضيلة الأستاذ الشيخ علي سرور الزنكلوني في حفلة تكريم الأستاذ المراغي عام ١٣٥٤ - ٣ يوليو ١٩٣٥ ما يلي : « الأزهر كما تحدث عنه التاريخ وكما تصورناه نحن حين رحلنا إليه في نعومة الأظفار، وكما يعرفه المصريون وغير المصريين حين يخطر ببالهم، ويحجون إليه لطلب العلم . هو هذه الشخصية الكبرى البارزة في العالم، والتي ينعكس منها على طلابه ورواده نور العلم وجلال الدين والتي عاشت ألف سنة إلا قليلا، وهي تصارع الأحداث والأحداث تصارعها بما لم يقو على احتماله أضخم بناء في التاريخ، ولولا سر الله الخفي لتلاشى، فهو الذي حفظه ولا يزال يحفظه ويحدد مجده إلى اليوم . . إن الأزهر كما تواضع عليه الناس هو الذي تحيا عليه علوم الإسلام والقرآن، وهي أسمى ما تستكمل به النفس الإنسانية قواها . والأزهر بمقتضى وضعه وطبيعته يجب أن يكون خالصاً لله وحده، فإذا أملت به الأحداث وسلطت عليه تيارات الأهواء الملتوية فله فيه نصيب كبير: دينه، وعلومه . . وهذا الشباب الغض من الطلاب الذين يبعثون إليه بنية صادقة ليتفقهوا في دين الله وليندروا قلوبهم إذا رجعوا إليهم لعلمهم يحذرون، لله فيهم النصيب الأوفر، والله غيور على دينه، وعلى وحيه . وعلى هذا الشباب الغض الذي يحب الخير ولا يريد

إلا الخير .. ومن هنا تدركون سر بقاء الأزهر ونباته على كثرة ما نزل به من أحداث ... ماهى مشيخة الأزهر ؟ لا أريد أن أعرض إلى مشيخة الأزهر بالنظر إلى ماورثته عن العواصم الإسلامية من خلافة العلم والدين ، ولا إلى ما قامت به من جلائل الأعمال في عصور مصر المختلفة ومواقفها المشرفة في وجوه الظالمين ، فذلك للتاريخ وحده ، ولكنني أتحدث عنها الآن بالنظر إلى طبيعتها وإلى ما يفهمه الناس فيها قبل أن يحتكم الهوى وينتشر الفساد . إن مشيخة الأزهر الكبرى هي التي تقوم بمعونة الاساتذة والطلاب على حراسة الدين وأحياء تعاليمه ، فإذا فكر العقل تفكيراً مستقيماً ولم يلتفت إلى زخارف الحياة الكاذبة ، فلا يستطيع أن يدرك الجلال الحق إلا في كنف هذه الرعاية السامية ، لأن شرف الأشياء بشرف غاياتها ، ومشيخة الأزهر تقوم على حراسة ما به تؤدي وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ووظيفة الرسل إذا أدت على وجهها فكلها خير وكلها سعادة ، فإذا تنسكب الأزهر الطريق يوماً ، فليس ذلك من طبيعة الدين الذي يقوم على حفظه ، ولا من طبيعة علومه التي هي نور للعقل وقوة للإنسان ، وإنما منشأ هذا التنسكب هو القوى التي تسلط عليه وتوجهه إلى طريقها ، وإذن لا تلوموا الأزهر مادام غير قائم على قدميه بنفسه ، وإنما اللوم على من يمتلكون أمره ويوجهونه حيث تأبى طبيعته أن تتوجه ... إن أعدل ميزان تعرفون به الفرق في كل عصر بين رجل الأزهر القائم على حراسة دين الله وبين عبد الشهوات الجامحة وإن تربع بين الأزهريين ونال أكبر مناصبهم أن ترى عزة النفس وخشية الله ماثلتين في رجل الأزهر خصوصاً إذا عظمت المحنة واشتد البلاء ، أما عبد الشهوات فتراه دائماً مغموراً بخشية الناس والطمع فيما بأيديهم . وقلب المؤمن الصادق في إيمانه لا يتسع لخشيتين ، فأظهر مظاهر الإيمان العميق خشية الله وحده إذا اشتد الخطب ، وأظهر مظاهر الإيمان الرقيق الذي لا يزن مثقال ذرة أن يخشى صاحبه الناس أشد من خشية الله ، وإن كثرت وتفرعت صور عبادته لأنها في ميزان الدين والعلم ليست أكثر من صور كاذبة تولدها العادة أو الرياء .. إن الحقائق لا يغيرها ولا ينقص من جلالها الذاتي ما قد يطرأ عليها من أمراض وعلل تدفعها يد الشهوة على غفلة من أهلها ، ولهذا يعاقب الله حراس الحقائق أولاً فأولاً ، بمقدار غفلتهم وإهمالهم ، ثم يكتب النصر لهم في النهاية إذا ما انتبهوا .. أما المبطلون المفتونون باستشراء الضعف ليتمتعوا بباطلهم فلا يعاقبهم الله أولاً فأولاً ، وإنما يمهلهم لتتجلى حكمة الله في قوله : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملئ لهم ان كيدى متين » . ان من

الغرور وعدم الانصاف أن يقال: ما فائدة الأزهر وأين جلال مشيخته؟ . وأقوى رد على هذه الغفلة وهذا الغرور أن نقول لأصحابهما: اذن ما فائدة علوم الحياة كلها؟ وهي اليوم تولد الجشع في قلوب الأمم وتقلبها مبيعاً كاسرة وحيوانات مفترسة . . فالدين خير كله والعلم خير كله بمقتضى طبيعتهما فعليهما أن يتنباها إلى من يعمل على تغيير وضعهما ، فإذا حرص الاشرار على أداء وظيفتهم بمقتضى طبيعهم ، فحرص الاخيار يجب أن يكون أشد وألزم . . هذا هو الأزهر على ما يجب أن يكون وهذه هي مشيخته كما نفهم عظمتها وجلالها . فإذا ظهر ايوما ما في غير مكانهما فالمصريون شركاء في المسؤولية أمام الله وأمام التاريخ ، لأن العلماء غير معصومين . والأمم الحية هي التي تقوم على حراسة قواها الطبيعية والمعنوية ، ولا ترتفع المسؤولية عن الأمم إلا إذا كانت في طفولتها أو في شيخوختها ، وقد أدت الأمة المصرية والحمد لله واجبها نحو مشيخة الأزهر . . وقد ألقى المراغى كلمة في حفلة تكريمه جاء فيها :

أحمد الله جل شأنه على ما أولانيه من الكرامة بهذه المنزلة في نفوسكم ، وأشكر الحضرات الداعين المحتفلين برهم وكرمهم وعاطفة الحب الفياض البادية في قلوبهم وفعلهم في شعرهم ونثرهم ولحضرات المدعوين تشريفهم واحتمالهم مشقة الحضور الذي أعربوا به عن جميل عطفهم وحبهم .

ويسهل على قبول هذه المنزلة كلها واحتمالها إذا أذنت لي في صرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصي الضعيف واعتبارها كلها موجهة إلى الأزهر الشريف الذي تجلونه جميعاً ، وتعتبرونه بحق شيخ المعاهد الاسلامية في مصر وغيرها من البلاد .
ولئن دل هذا الاجتماع بالقصد الاول على غرض التكريم فقد دل بالإشارة على ما هو أسمى من غرض التكريم .

دل على أن الأزهر خرج عن حاله التي طال أمدها ونهض يشارك الأمة في الحياة العامة وملاساتها وعزم على الاتصال بها ليفيد ويستفيد ، وهذه ظاهرة من من ظواهر تغير الاتجاه الفكري الذي نشأ عن تغير طرائق التعليم فيه وعن شهوره بأن في الحياة معارف غير معارفه القديمة يجب أن تدرس وتعرف ، وطرائق في التعليم يجب أن تحتذى ويتهدى بها . ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب والهندسة والتاريخ في الأزهر وحول فائدة تعليمها لعلباء الدين ومنذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية في الفلسفة في داره على شرط أن نكتب الامر لثلاثتهم الناس ويهتمونا بالزينة والزندقة . . والآن تدرس في كلية أصول الدين الفلسفة

القديمة والحديثة ، وتدرس الملل والنحل ، وتقارن الديانات ، وتعلم لغات أجنبية شرقية وغربية . ومن الحق علينا ألا ننسى في هذه المناسبة والحديث حديث الأزهر والأزهريين ذلك السكوكب الذي انبثق منه النور الذي نهتدى به في حياة الأزهر العامة ، ويهتدى به علماء الاقطار الاسلامية في فهم روح الاسلام وتعاليمه ، فلك الرجل الذي نشر الحياة العلمية والنشاط الفكري ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ومكارم الاخلاق ، ذلك الرجل الذي لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن في التاريخ ، ذلك هو الأستاذ الامام محمد عبده قدس الله روحه وطيب ثراه ، وقد مر على وفاته ثلاثون حولاً كاملة ، ومن الوفاء بعد معنى هذه السنين ونحن نتحدث عن الأزهر أن نجعل لذكره المكان الاول في هذا الحفل ، فهو مشرق النور وباعث الحياة ، وهين الماء الصافية التي نلجأ اليها إذا اشتد الظما ، والدوحة المباركة التي نأوى إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير والأزهر كما تعلمون هو البيئة التي يدرس فيها الدين الاسلامي الذي أوجد أمماً من العدم ، وخلق تحت لوائه مدينة فاضلة ، وكان لهذا الاثر الضخم في الارض فهو يوحى بطبعه إلى شيوخه وابنائهم واجبات انسانية ، ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية ، يعدون مقصرين آثمين أمام الله وأمام الناس إذا هم تهاونوا في ادايتها وانهم لا يستطيعون اداء الواجب لربهم ودينهم ولمعهدهم وأنفسهم إلا إذا فهموا هذا الدين حق فهمه ، وأجادوا معرفة لغته ، وفهموا روح الاجتماع ، واستعانوا بمعارف القدامى ومعارف المحدثين فيما تمس الحاجة اليه بما هو متصل بالدين ، أصوله وفروعه ، وعرفوا بعض اللغات التي تمكنهم من الاتصال بأراء العلماء والاستزادة من العلم وتمكنهم من نشر الثقافة الاسلامية في البلاد التي لا تعرف اللغة العربية ، هذا كله يحتاج إلى جهود تتوافر عليه وإلى التساند التام بين العلماء والطلبة والقوامين على التعليم ، ويحتاج إلى العزم والتصميم على طي مراحل السير في هدوء ونظام وحب وصدق نية وكال توجه إلى الله وحب للعلم لا يزيد عليه إلا حب الله وحب رسوله .

والمسلمين في الأزهر آمال ، ومن الحق أن يتنبه أهله لها وهي :

أولاً — تعليم الأمم الاسلامية المتأخرة في المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الاسلامي وتاريخ الاسلام ورجاله ، وقد كثرت

تطلع هذه الأمم إلى الأزهر في هذه الأيام وزاد قاصدوه منها أفراداً وجماعات، واشتد طلبها لعلماء الأزهر يرحلون إليها لأداء أمانة الدين وهي بيانه ونشره .

ثانياً — إثارة كنوز العلم التي خلفها علماء الاسلام في العلوم الدينية والعربية والعقلية وهي مجموعة مرتبط بعضها ببعض ، وتاريخها متصل الحلقات ، وقد حاول العلماء كشفها فنقبوا عنها وبذلوا جهوداً مضنية وعرضوا نتائج بعضها صحيح وكثير منها غير صادق ، وعذرهم أنهم لم يدرسوا هذه المجموعة دراسة واحدة على أن بعضها متصل بالآخر ، كما هو الحال في دراسة الأزهر . فاذا وفق الله أهل الأزهر إلى التعمق في دراسة هذه المجموعة دراسة قديمة حديثة ودراسة المعارف المرتبطة بها وأنقذوا طرق العرض الحديثة أمكنهم أن يعرضوا هذه الآثار عرضاً صحيحاً صادقاً بلغة يفهمها أهل العصر الحديث وإذا ذلك يكونون أداة اتصال جيدة بين الحاضر والماضي ويطلعون العالم على ما يهر الانظار من آثار الاقدمين ، وأعتقد أن التعليم الأزهرى على النحو الذى أشرت إليه هو الذى يرجى لتحقيق الأمل ، وأنه مدخر لأبنائه إن شاء الله .

ثالثاً — عرض الاسلام على الأمم غير المسلمة عرضاً صحيحاً فى ثوب نقي خال من الغواشى المشوهة لجماله ، وخال بما أدخل عليه وزيد فيه من الفروض المتكلفة التي يأبأها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

رابعاً — العمل على ازالة الفروق المذهبية أو تضيق شقة الخلاف بينها ، فان الأئمة فى محنة من هذا التفرق ومن العصية لهذه الفرقة ، ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي يهدى إلى الحق فى أكثر الاوقات ، وان بغض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة فى القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلقت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسى ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكو إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها ، وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن وجعلتها شيعا فى الأصول والفروع ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء بين من يلبسون ثوب الدين ، ونتج عنه سخف مثل ما يقال فى فروع الفقه الصحيح ان ولد الشافعى كف لبنت الحنفى ، ومثل ما يرى فى المساجد من تعدد صلاة الجماعة وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف فى التوسل والوسيلة وعذبات العاثم وطول اللحى حتى ان بعض الطوائف لا تستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين .

إن من الخير والحق أن نتدارك هذا ، وأن يعنى العلماء بدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عبدة وتقدير ، لما فيها من هداية ودعوة إلى الوحدة ، دراسة من شأنها أن تقوى الرابطة بين العبد وربّه ، وتجعل المؤمن رحب الصدرهاشا باشالحق مستعدا لقبوله عاطفا على إخوانه فى الانسانية كارهاً للبغضاء والشحناء بين المسلمين .. قد أتهم بانى تخيلت نخلت ، ولا أبالى بهذه التهمة فى سبيل رسم الحدود ، ولفت النظر اليها وفضل الله واسع وقدرته شاملة ، وما ذلك على الله بعزيز .

والآن وقد أوضحت بالتقريب آمال المسلمين فى الأزهر ، ترون أن العبء الملقى على عاتق الأزهر ليس هين الحمل ، فانه فى حاجة إلى العون الصادق من كل من يقدر على العون : إما بالمال أو العقل ، أو بالمعارف والتجارب ، وكل شىء يبذل فى طريق تحقيق هذه الآمال هين ، إذا أنت الجهد بهذه الثمرات الطيبة المباركة ، .

ولقد ولد الشيخ محمد مصطفى المراغى فى اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٨١ فى المراغة من أعمال مديرية جرجا بمصر العليا وحفظ القرآن الكريم بمكتب القرية وتلقى على أبيه بعض العلوم ثم التحق بالأزهر ، واتصل بالأستاذ الامام محمد عبده فثقف نفسه عليه فى دروس التفسير التى كان يلقاها بالرواق العباسى .

ونال شهادة العالمية عام ١٩٠٤ ، وكانت سنة إذ ذاك أربعاً وعشرين سنة ، وكان بذلك من أصغر الحاصلين على هذه الشهادة يومذاك .

وكان تاريخ دخوله امتحان الشهادة العالمية هو ١٢ ربيع الثانى ١٣٢٢ هـ ، وقد أعجب به الامام محمد عبده إعجاباً شديداً .

ولم يكن رحمه الله ، من العاكفين على تناول علوم الأزهر وحدها وإنما كان يضيف إليها ما يشعر به هو نحو العلم من احتياحات ، شأن الشبان الفائقين ، فلقد أخذ دراساته الشخصية ، من بطون الكتب ، ومن منابعها الاصلية فى المخطوطات والهوامش والمتون .. كما كان عاكفاً على دراسة الادب ، ودراسة الفلسفة وعلم الكلام ، وما ذلك إلا استجابة منه للوقوف على روح الثقافة ، ولذلك فقد نشأ صاحب عقلية مرنة مبسوطه ، تمضى إلى الدقائق وما يخفى امره على الكثيرين .

ولا جرم بعد ذلك أن يشيع اسمه بين الطلبة الذين أقبلوا حول حلقاته بالجامع الأزهر ، وهو يلقى عليهم الدروس بعد تخرجه ، بطريقة جديدة ، كان هدفها البحث عن الحقيقة ، ووسيلتها التعرّيج بعقلية السامع إلى فنون الأدب وأشتات الفلسفة وأمشاج الكلام .

ورشح بعد لمنصب كبير ، هو منصب القضاء لمديرية دنقلة في السودان ، ذلك المنصب الذي ساعده على تسليق الحواجز المياسية ، واعلاء شأن كبة الدين والحق بين الشمال والجنوب ، فتعلم عليه الكثيرون من أبناء الجنوب ، بعد أن استساعوا لذة الوطنية الاسلامية من شروح الشيخ الجليل لقضايا الوطن بين خلاصاته وصفوة تلاميذه في السودان ، وكان يعنى بذلك المسلك أن رجل الدين إنما هو من رجال السياسة يدلي بدلوه فيها دون انغماس ، حتى يكون القائد إلى تحقيق الوطنية الاسلامية ، وفقا لتعاليم الدين ، لانهيارا إلى المعتقدات السياسية .

لقد كان الشيخ المراغى - رحمه الله - يعرف رسالة رجل الدين تماما ، وهي رسالة العالم الذي يعمل للحياة كلها ، وللوطن الاسلامي كله ، فلا يصدر رأيا إلا إذا كان الرأي لبننة في بناء هذا الوطن الكبير .. ومن ذلك ، أن سلاطين باشا يوم أن عرض عليه قبول منصب قاضي قضاة السودان - قبل أن يتولى منصب رئيس المحكمة الشرعية العليا - اشترط لقبول المنصب أن يكون تعيينه فيه بأمر يصدره خديو مصر ، لرجال السلطة الانجليزية في السودان .

وفي عام ١٩٢٣ عين رئيسا للمحكمة العليا الشرعية ، فواجه بمنصبه ذلك تلك الحوائل التي تمنى أن يقضى عليها بالمحاكم

وكانت المحاكم الشرعية في ذلك الوقت تحكم في قضايا الزواج والطلاق وسائر الاحوال الشخصية ، وفق القول الراجح من مذهب أبي حنيفة . ولما كانت هناك أحكام أخرى تحقق التيسير على المتقاضين ، فقد رأى أن يؤخذ بهذه الاحكام ، وأن يعدل قانون المحاكم الشرعية .

وكان من رأيه الأخذ برأى ابن تيمية ومحمد بن القيم الجوزية في جعل الطلاق الثلاث في لفظ واحد طلقة واحدة ، وما كاد يجهر بهذا الرأي في مشروع أعده ، حتى استهدف لحملة عنيفة من بعض العلماء ورجال القضاء الشرعي .

ولكن تاريخه في العلم ، والدراسة ، وتشربه من روح الامام الاكبر الشيخ محمد عبده مكنته من الثبات للمعركة ، والعمل على تيسير القضاء ، وتم له ما أراد .

ولعل ما كتبه في الرد على العلماء الذين تناقشوا معه في تيسير تعاليم الاسلام في المحاكم الشرعية مما يشرح عقلية الرجل المبسوطة في ثقافة الاسلام الممدودة في بطون أسفار العلوم الاسلامية ، قال رحمه الله :

أثار مشروع قانون الزواج والطلاق حركة فكرية اجتماعية دينية، فنشط العلماء للبحث والاستنباط والرجوع إلى كتب الشريعة المطهرة، وتطبيقها على القانون، ونشط غيرهم إلى بحثه من الوجهة الاجتماعية، وما لنا لا نغضب بهذا، وقد تستمر هذه الحركة، ويتجدد نشاط الفقه الاسلامي بعد ركوده في المتون والشروح، وتوجه اليه الانظار وتتولد فكرة تهذيبه باختيار ما صح دليله وما قام البرهان على أن فيه مصلحة للناس من أقوال أئمة الهدى وفقهاء الاسلام.

وقد يقضى على تلك الفكرة الخاطئة فكرة وجوب تقليد الاثمة الاربعة دون سواهم سواء أوافقت مذاهبهم أم خالفها مصلحة المجتمع.

أما جهوده في إصلاح الأزهر والعناية بإعادة سالف مجده اليه كأقدم جامعة في التاريخ، والجامعة الكبرى التي قامت على حفظ التراث الاسلامي ولغة القرآن لحديث معاد.. ويقول فيه الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم:

«لقد كان المراغي ذا فطرة سليمة صافية، يمدحها ذكاء شديد، واستعداد طيب، وكان بما أفاده وخرجه تخرجاً قوياً تلذته على الرجلين العظيمين المغفور لهما الشيخ أحمد أبي خطوة والشيخ محمد عبده، فعنهما اكتسب الاستقلال في التفكير والميل إلى الحرية، والقصد في الاعتقاد بما يراه أهل التقليد، وكان له مع هذا كله قدرة عظيمة على التعبير عن أفكاره، في لفظ رائق وأسلوب قوى وبيان فصيح، وهذا هو السر في أنه ظهر بين شيوخ الأزهر مبرزاً قوياً، مجلجلاً مدوياً، وإن لم يكن أكثر علماً من الشيخ أبي الفضل ولا من الشيخ الشربيني.

إن العلم كسائر ما وهبه الله للناس، منه مبارك فيه، يجعل به النفع، ويسرى من صاحبه إلى غيره سهلاً مفيداً، ومنه ما ليس كذلك، وليست العبرة على كل حال بالقلة أو الكثرة، وقد كان المغفور له الشيخ المراغي كالمغفور له الأستاذ الامام الشيخ عبده من أصحاب العلم النافع المبارك فيه.. ثم قال:

لقد كنت أنا والشيخ المراغي صديقين حميمين، كلانا يحب صاحبه، ويقدر فيه مواهبه، ولم تكن هذه الصداقة عارضة بل كانت أصيلة، مرت بها عهود، وأعمال مختلفة اشتركنا فيها، ولكننا مع ذلك اختلفنا بعد لائى من مشيخته الثانية للأزهر، وكان خلافتنا معروفاً للخاصة والعامة من الأزهريين وغيرهم، وسببه الجوهرى ميله رحمه الله إلى ناحية السياسة الحزبية وشدة نفورى من ذلك، فاني أرى أن الخير

كل الخير في أن يجنب العلماء السياسة الحزبية ، وينأوا عن مكاييد الحزبية ومناعبها التي تفضي إلى ما لا يحمد من العواقب ، ولكن هذا الخلاف لم يخرج بي ولا به عن الجادة ، وما ينبغي أن يكون عليه أهل العلم من المودة والنصيحة ، فكنت أبدي له ودي ونصحي ، وأنقد مع ذلك بعض تصرفاته التي أرى أن مبعتها غالبا هو ذاك ، وكان يتقبل ودي ، ويبادلني إياه ، ويعتذر عن عدم مشاطرتي الرأي فيما أنقده فيه ، أو يبدي من المبررات ما يراه لفعله . وعلى كل حال لم يكن هذا الخلاف بالذي يقطع ما بيننا من محبة وتعاون ، بل كان خلاف الشرفاء والحمد لله .

لقد كان رحمه الله في عهد مشيخته الأولى مؤيدا تمام التأيد ، وكنت معجبا بأرائه وأفكاره الإصلاحية وطريقته في الإدارة ، وتركيزه قواه وما آتاه الله من مواهب في الأزهر وإصلاح شأنه ، ولقد كنت أعاونه معاونة قوية ، وقد ظلمت أقوم على رئاسة قسم التخصص وأنا في منصب الافتاء مدة طويلة ، أشرفت فيها على تخريج مئات من العلماء الأقوياء الذين يحملون الآن على عواتقهم أهم أعباء الأزهر ، وكنت أشترك معه في كثير من اللجان العلمية : كلجنة الأحوال الشخصية ولجنة مناقشة الرسائل العلمية التي كان يتقدم بها طلاب شهادة العالمية من درجة أستاذ ، وقد كانت هذه اللجنة تعقد أحيانا في الرواق العباسي ، ويشهداها — والمناقشات العلمية على أتم ما تكون قوة ودقة — علماء الأزهر وطلابه والراغبون في العلم والبحث من غير الأزهريين .. وكما كان يتجلى في هذه المناقشات الحرة ذكاء الشيخ المراغي وعلمه وقوة تفكيره وإخلاصه للفكرة العلمية وحرصه على تبين الحق ، وضرب المثل لا بناء الأزهر في تقبله والنزول على حكمه .

وكتب الاستاذ محمد فريد وجدي بمناسبة وفاته يقول : رزئت أسرة العلم في العالم الاسلامي كله بوفاة عميدها ، غير مدافع ، الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر ، فلا نقول : كان لها أثر بالغ في النفوس ، ولكننا نقول : إنها كانت كارثة على الجهود النبيلة التي يبذلها العارفون بأمور الأزهر ، ويعملون على إحلاله المكانة التي تناسب عظمة الاسلام ، وتمثله على حقيقته في نظر العالم . نعم إن البذر الذي وضعه رحمه الله ، لينتج هذا الاثر الفخم ، بطيء النمو ، ولكنه

هو الدواء الوحيد لداء المسلمين في مشارق الارض ومغاربها . لئلا نغنى باصلاح الازهر ترتيب الدروس في أوقاتها ، وتوزيع مقررات الدراسات عليها ، وتعيين المدرسين الاكفاء لتدريسها ، ومراعاة كفاياتهم في تحديد مراتبهم ، كل هذه الشؤون أعراض لا تمت إلى الباب في شيء ، وإنما لإصلاح الصحيح ينحصر في أن يصبح جهة دينية يسندها العلم وتؤيدها الفلسفة ، بحيث يتفق ذلك وحقيقة الاسلام ومعناه ، ولا يدع في صدر مستشكل اعتراضاً بأن الازهر يمثل عهداً لا يمت إليه اليوم أحد بسبب . هذا الاصلاح ، إن لم يصل إليه الازهر في يوم من الايام ، في غير تطرف ولا تعسف ، تلبس المسلمون ما يمثل مطالب روحهم في مكان آخر ، أو — وهو الأرجح — اندفعوا في تيار الفلسفة المادية لا يلبون على شيء ، على مثال غيرهم من الأمم الأخرى . إن الشيخ المراغي كان يجيد فهم هذه الناحية من نفسية المعاصرين ، وكان يعمل في سبيل الوصول إلى ما أشرنا إليه في تودة ورفق ، صابراً على ما يحتوش هذه التودة ، بما يخيل أنها الوقوف بل القهقري بل الانحلال الذريع ، والحقيقة كانت غير ذلك لمن يتأملها تحت ضوء النظر البعيد ، والتفكير العميق في مستقبل العقيدة الاسلامية .

كان المراغي يعلم أن العالم المتمدن اليوم انتهى إلى حد من عقائده ، أملت عليه فلسفة بوختر وهايكل وموانخوت النخ ، وأن العالم الاسلامي يترسم خطواته شبرا بشبر ، مدفوعا بطبيعة الدراسات العلمية التي لا بد له منها ، وكان يعلم أن الازهر في حالته التي هو عليها لا يصلح أن يقف حائلا دون هذا التطور ، وأنه لا بد له من انقلاب ذريع يطرأ عليه ليصبح جديراً بالمهمة التي أرادها مؤسسوه منه في كل عهد فإذا يفعل ؟ وليس بين يديه من يحسبون بهذا الخطر سوى عدد نزر ، لا يكفون لاحداث انتفال خطير ، يتأدى به إلى غرضه بالسرعة المرجوة ؟

اضطر لان يسير وتيدا ، والسير الوئيد في مثل هذا العهد جريمة . فإذا يعمل والاحوال حوله تجري في تيار معا كس ؟ وكثيرا ما رأى أن الأولى به التخلي عن وظيفته ، لولا أن الشعب كان يرى أن ليس لهذه المهمة العالمية غيره فيتمسك به . فالذي يهم المعارفين اليوم أن يخلف المراغي من يشاركه في هذا الشعور ويجري على سنته فيه ، مشجعا العوامل التي تسكب الاسلام المظهر الذي صورناه

في مقدمة هذه الكلمة ، ولا شيء ينتج هذا الأثر أكثر من تشجيع الارساليات إلى أوروبا ، والاستكثار من خريجيها في كليات الأزهر ، وكل ما نطلبه أن ينتخب الذين يرسلون إلى أوروبا من ذوى العقليات الواسعة ، ومن الذين لا يحجب عنهم الحقائق ما يسدل عليها من حجب مهمل ، والذين يعرف عنهم ميل إلى الترقى العقلي ، وعدم الجود على الوراثة . وهذه الناحية في المراعى كانت أظهر مافيه ، وهى أكرم جميع نواحيه ، وأحقها بالاحترام ، لأن ثمرتها تمثيل الاسلام ديننا يصح أن تعنص العقلية العصرية بحماه من وخزات الشكوك والريب ، في عهد الفلسفة الحسية .

فان كانت الثمرة المرجوة لما تنضج ، ومظاهرها غير مشجعة ، فانها لا بحالة ستصل إلى حالة النضج ، إذا صادفت من يسلك طريقة الشيخ الراحل .

توفى رحمه الله في ليل الثلاثاء بمسشفى المؤساسة فجأة ، وكان أوى إليه ليستجم ، فأبلغ الأمر إلى ولى الأمر فزار المسشفى وقرأ له الفاتحة ، وكان لوفاته أثر مؤلم في نفوس الناس كافة ، وخاصة في نفوس الذين كانوا ينتظرون أن يظهر الأزهر على يديه بمظهره الجديد .

الشيخ مصطفى عبد الرازق

ولد رحمه الله عام ١٨٨٥م بابى جرج من أعمال مديرية المنيا ، وهو الابن الثانى من أولاد المرحوم حسن عبد الرازق باشا ، وبعد أن أتم تعليمه الأولى حفظ القرآن الكريم وجوده ، ثم التحق لطلب العلم بالأزهر الشريف وتخرج في سنة ١٩٠٦ وحصل على شهادة العالمية من الدرجة الأولى بين زملائه الشافعية . وعين للتدريس في مدرسة القضاء الشرعى ، وفي سنة ١٩٠٩ سافر إلى فرنسا والتحق بجامعة السربون ليضم إلى ثقافة الشرق ثقافة الغرب وندبه مسيو لابيير لتدريس بعض المباحث الاسلامية بجامعة ليون ، ثم عاد من فرنسا في أوائل الحرب الكبرى وعين سكرتيرا لمجلس الأزهر وكان ذلك في سنة ١٩١٦ وفي سنة ١٩٢١ عين مفتشا في المحاكم الشرعية ، ثم عين سنة ١٩٢٧ أستاذ للفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وظل في كرسى الأستاذية حتى اختير في سنة ١٩٣٨ وزيرا للاوقاف في وزارة المغفور له محمد محمود باشا الثانية واخبر عدة مرات في وزارات مختلفة لتولى هذا المنصب حتى انتقل المغفور له الشيخ المراغى شيخ الأزهر إلى جوار ربه ، فاختر لهذا المنصب وهو وزير الاوقاف وصدر الأمر المملكى بتعيينه شيخاً للأهر في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، وظل في هذا المنصب حتى لقي الرفيق الأعلى

ثم اختير أمير الحج في العام الذي توفي فيه ، فكان خير مبعوث لمصر بين أبناء البلاد الإسلامية عند البيت الحرام . ويقول عنه الأستاذ محمد فريد وجدى حين وفاته :
انتقل إلى عالم الأرواح الخالدة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق ، شيخ الجامع الأزهر ، وهو أصبح ما يكون جسما وعقلا ، فكان لهذه الفجاءة أثر في النفوس لم نشهد مثله لأحد قبله ؛ لأن الناس كانوا أحوج ما يكونون إلى مثله في هذا العهد من الانتقال ، وفي هذا الدور من الاعتراك بين القديم الحديث ، وكان الأستاذ بشخصيته الممتازة ، وسعة أفقه الثقافي خير من يدرك آثار هذا العهد في حياة الامم ، وأصلح من يوكل إليه أمر التوفيق بينهما لمصلحة الدين والدنيا معا . فلا غرو إن ساور الملح كل نفس تنتظر عهد الاستقرار والهدوء والتقدم . لم أرفق من قابلت من القادة والاعلى أكرم خلقا في غير استكاته ، ولا أهدأ نفسا في غير وهن ، ولا أكثر بشاشة في غير رخوة ، من الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، وكل ذلك إلى حزم لا يعتوره لوث ، واحتياط لا يشوبه تنطع ، وأناة لا يفسدها فتور ، وإدماح على العمل ينسى معها نفسه ، وهي صفات كبار القادة . وعليه المصلحين ، بمن خلقوا المعالجة الشئون المعقدة ، وحسم المنازعات الشائكة ، والتوفيق بين المطالب المتنافرة ، وهذه مواقف كما تقتضى مضاء العزيمة ، تحتاج إلى هواة الاناة ، وكما تستدعى سرعة البت ، لا بد لها من القدرة على إزالة الحوائل ، وقديما قالوا : رب عجلة أورث ريثا ، ورب إقدام جر إلى نكوص ، فكان بما حباه به بارئه من هذه المواهب النادرة ، كفاء المهمة التي وفق المسئولون في إسنادها إليه ، وكنت لا أشك في أنه بما جبل عليه من حب الإصلاح ، وما اتصف به من الصفات التي سردناها آنفا ، سيصل إلى حل مشكلة الأزهر حلا حاسما ، يعيش تحت نظامه آمنا شر العوادي ، وفي منجاة من عوامل القلق والاضطراب . ذلك أنه بما تضلع من إلمام بنظم الجامعات ، وما حصل من علم بمقوماتها وحاجاتها ، لتضيته في صميمها سنين طوالا من حياته طالبا ومدرسا ، يعرف من أسرار حياتها وبقائها وبواعث عللها وأعراضها ، مالا يعلمه إلا الافلون ، والأزهر لا يخرج عن جامعة قديمة في دور انتقال ، تتفاعل لتتناسب والعهد الذي تعيش فيه ، فهي في حاجة إلى أن تحصل على المقومات التي تواتيها بهذا التناسب ، وهو لا ينحصر في زيادة ميزانيتها ، ولا في تهذيب برامج دراستها ، ولكنه يتعداهما إلى ما هو إيجاد المجال الحيوي لخريجها . وهو أمر

لا يستطيع حله إلا بعد تمهيد الطريق إليه ، ورفع العقبات دونه ، والشيخ الراحل لما اتصف به من بعد النظر ، وتخير الظروف ، كان أجدر الناس باصالة هذا الغرض البعيد ، ولكن الله آثر له الدار الآخرة ، فكان ما أراد ، وترك الامر لمن يخلفه ، والله في ذلك حكمة ، وهو يتولى الصالحين .

ولد فقيدنا أجزل الله ثوابه في قرية أبي جرج بمديرية المنيا سنة (١٣٠٤) هـ الموافقة لسنة (١٨٨٥) م وتلقى التعليم الاولي فيها ، ثم بعث به والده إلى الازهر فلبث فيه اثنتي عشرة سنة . ولما نال درجة العالمية فيه أسندت إليه مهمة التدريس في مدرسة القضاء الشرعي . ثم رأى أن الاولي به أن يتم ثقافته بالمعارف الغربية ، فأمر بداريس ، والتحق بجامعة (السوربون) المشهورة ونال إجازة في الأدب الفرنسي والفلسفة ، وانتقل من السوربون إلى معهد الدراسات الاجتماعية العليا لينال حظا من معارفها . ثم دعاه الأستاذ لاميير إلى ليون ليلقي محاضرات في الشريعة الاسلامية ، ويقوم بتدريس اللغة العربية هناك ، فلم تمنعه هذه الاعمال من متابعة دراساته في الفلسفة والأدب الفرنسي . وفي هذه الاثناء تقلد للأستاذ جوبلو ، الذي كان مرجع علم المنطق في فرنسا إذ ذاك ، ولما عاد إلى مصر سنة ١٩١٦ ، عين سكرتيرا لمجلس الازهر الاعلى ، ثم مفتشا للبحاكم الشرعية سنة ١٩٢١ . وفي سنة ١٩٢٧ عين أستاذا للمنطق والفلسفة الاسلامية بجامعة فؤاد ، واليه يرجع الفضل في إحياء المصطلحات العربية القديمة واستعمالها في تعليم فروع الفلسفة .

وبما هو جدير بالذكر أن جميع مدرسي الفلسفة في عهدنا الحاضر بجامعة فؤاد والاسكندرية من تلاميذه ، ولم تنقطع صلتهم به ، وقد أسندت إليه وزارة الأوقاف مرتين ، ولما توفي الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي ، وعز وجود من يملأ مكانه ، أسندت المشيخة إليه في ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٤٥ .

ومن مؤلفاته العديدة :

- ١ - ترجمة فرنسية لرسالة التوحيد تأليف الشيخ محمد عبده ، وضعها بالاشتراك مع الأستاذ ميشيل ، وحلاها هو بمقدمة طويلة .
- ٢ - رسائل صغيرة بالفرنسية عن المرحوم الأثرى الكبير بهجت بك ، وعن معنى الاسلام ومعنى الدين في الاسلام .
- ٣ - كتات التمهيد لتاريخ الفلسفة ١
- ٤ - فيلسوف العرب والمعلم الثاني . لاسلامية .

٥ - الدين والوحى فى الاسلام .

٦ - الامام الشافعى .

٧ - الامام محمد عبده ، وهو مجموع محاضرات ألقى فى الجامعة الشعبية سنة ١٩١٩ وكلها مؤلفات تعتبر غاية فى الإفادة .

وله كتب لم تنشر ، منها مؤلف كبير فى المنطق ، وكتاب فى التصوف ، وفصول فى الأدب تقع فى مجلدين كبيرين . وكان رئيسا لمجلس إدارة الجمعية الخيرية ، التى كان والده من مؤسسيها ، وكان عضوا فى مجمع اللغة العربية ، والمجمع العلمى المصرى .

وفى ٢٧ مارس عام ١٩٤٧ أقيمت حفلة لتأيينه فى جامعة فؤاد الاول ، ألقى فيها لطفى السيد وعبد العزيز فهمى والدكتور حسين هيكل ومنصور فهمى وإبراهيم دسوقي أباطة وطه حسين وأمين الخولى والعقاد وسواهم كلمات وقصائد فى الاشادة بمناقبه . وألقى الشيخ محمد عبد اللطيف دراز فى الحفلة كلمة جاء فيها :
عرفت مصطفى عبدالرازق سكرتيراً عاماً لمجلس الازهر الاعلى ، وعرفته موظفاً فى وزارة العدل بعد إبعاده عن الازهر بسبب موقف وطنى كريم ، وعرفته أستاذاً فى الجامعة ، ووزيراً ، وشيخاً للجامع الازهر ، وخالطته أطول مخالطة ، وخبرته أشد الخبرة فى كل ما ينبغى أن يعرف حديق عن صديق ، وأخ عن أخ ، فاشهد ما تقلب به دهر ، ولا حاد عن عهد ، ولا زال عنه من خلق الرجال ما يزول عن المسترجلين والمتعاضمين ، إذا دالت الدولة ونبا الزمان وتقطعت بهم الأسباب ، فهو راض وإن سخط غيره ، وهو سميع وإن تعسر الزمان .

كان مصطفى عبد الرزاق مثقفاً ، ولكن أية ثقافة هى ؟ هى الثقافة الاسلامية التى أفنى العمر فى تصويرها والدعوة إليها ، وحمل الامة عليها جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد مصطفى المراغى وغيرهم من قادة النهضة وأئمة الاسلام فى عصرنا القريب . كان هو المثال الذى تمثلت فيه هذه الثقافة الحية الناهضة الجامعة بين خير مافى الشرق وخير مافى الغرب من تراث الاسلام الطاهر ، وثمرة العقول الناضجة ، وبهذا نعلم مقدار خسارتنا وخسارة الازهر والاسلام بفقد هذا الرجل . كان مصطفى عبدالرازق مؤمناً ، وإيمانه هو الذى كون له

هذه النفس القوية العظيمة ، فإن الثقافة وحدها لا تصنع النفوس ، فنحن نرى بعض المثقفين يتخذون من ثقافتهم طريقاً لمجرد كسب العيش ، وهي في البعض الآخر طريق إلى الشرور والمآثم والفتن ، تشقى ولا تسعد ، وتدمر ولا تعمّر ، ونهلك الحرث والنسل ، ويبغى بها الناس بعضهم على بعض ، ويسعون بها في الأرض فساداً ، فما أبعد الفرق بين هذه الثقافة وبين كرائم الإيمان ! . تلك مادية صرف ، وليس من هذا فقط كان فسادها فقد تنفع المادة وتصلح ، ولكن فسادها كان من أن الشيطان تولى زمامها فصرها عن غايتها المثلى وأركسها في الشهوات والآهواء . أما مواهب الإيمان فهي نفحات قدسية تملأ القلب هداية ونورا ، وسكينة وثباتا ، وأمنا وسلاما ، ومحبة ورضا ، وأملا في الله ومراقبة له ، وعملا لوجه ربك ذي الجلال والإكرام . وهذه هي السعادة التي جاء بها المرسلون وجاهد في سبيلها المصلحون ، وسعد بها المؤمنون ، فإذا هيء لنفس طيبة نائلة أن تجمع بين هبة الدين الحق والعلم الصحيح ، فقد أشرقت بنور على نور ، ونور الإيمان بالله يملأ القلب ، ونور العلم يهتدى به العقل في الوصول إلى الحق . وكذلك كان فضل الله ونعمته على فقيدنا الكريم عليه رحمة الله : جمع الله له من خير ما يحمد لعباده الصالحين ، فنحه سلامة الفطرة ، فكان من أسلم الناس نفسا ، ومنحه سداد العقيدة فكان من أنفذ الناس بصيرة في الدين ، ومن أشدهم استمساكا به واعتصاما بهديه ، ومنحه العلم الصحيح والمعرفة الواسعة فكان من أجمع الناس لعلوم الشرق والغرب ، تملأهما عن خبرة ودراية وإمامة ، وهو بهذا من الأمثلة الكاملة في الشرق للثقافة الإسلامية الكاملة .

فإذا أراد الأزهر مثالا أعلى لا بنائه وإذا أراد الأزهر مثالا أعلى لشيوعه ورؤسائه ، فإن مصطفى عبـد الرازق هو المثل الذي يعز نظيره ويندر وجوده . وهل هناك أدلة على بنوته الأصيلة للأزهر من أن ثقافته الحديثة لم تحل بينه وبين أزهريته في جميع مراحل حياته ، وبقي ابناً للأزهر في روحه وعمله وفي وفائه لأصدقائه ؟ وقد بالغ في التمسك بأزهريته إلى حد أنه وقد تقلد منصب الوزارة لم يستطع أن يغير زيه الأزهرى وقد قيل منه ذلك على روى . وهل هناك دليل على تأصل الروح الأزهرى في نفسه أظهر من هذا ؟ إن الطلبة الأزهريين الآن يحاولون أن يخلعوا أزياءهم ليبرزوا في صورة أخرى زعموا أنها هي الموافقة لروح العصر ، فكيف نقول في رجل سافر إلى أوروبا وتولى من المناصب وخالط من الأشخاص والهيئات والبيئات ما كان يلح في دعائه إلى تغيير زيه فلم يحد منه ذلك كله إلا إباء

وامتناعا واعتصاما بكل ما يدل على أنه ابن الأزهر ؟ ومسألة الزى عندنا مسألة شكلية ، ولكنني قصدت أن أشير إلى مظهر للأزهرية الأصيلة في نفس مصطفى عبد الرازق ، وهذه الأزهرية الصحيحة هي التي مكنت له أن يجمع بين ثقافة الشرق والغرب فلم يختلفا عليه ، ولم يستعصر عليه أمرهما كما استعصى على غيره . وإذا تحدثت متحدث عن مصطفى عبد الرازق فلن يستطيع أن يغفل الحديث عن سماحة نفسه وعطفه على المحتاجين ، وإن كان حديثه معادا ، لأن في تكرار هذا الحديث متعة لنفس المتحدث ونفوس السامعين ، يعرف هذه السباحة كل موطن من المواطن التي عاش فيها الفقيد موظفا وغير موظف ، في الجامعة وفي الأزهر ، يعرف الطلبة الذين كاد الفقر أن يحول بينهم وبين غايتهم ، فكان مصطفى عبد الرازق هو الذي يكفهم ، وهو الذي يفرج عنهم — بفضل الله عليهم وعليه — هذه الشدة ، وتعرفه عائلته فقيرة أخى عليها الدهر ، فكان مصطفى عبد الرازق غوثها ومددها وعائلتها ، يخفى ذلك عن الناس ، ولو استطاع لاختفاه عن نفسه ، حتى لا تعرف شماله ما تنفق يمينه .

وفي مارس عام ١٩٤٧ أيضا أقام معهد المنيا الديني حفلة تأبين للمغفور له الأستاذ الأكبر الراحل ، ألقى فيها صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبو العيون خطبة بليغة جاء فيها : فجع الأزهر في شيخه فجأة ، فكانت صدمة الفجيعة فيه شديدة ، صدمة روعت القلوب ، وأذهلت النفوس ، وأدهشت العقول . وقعت الواقعة في وقت كان الأزهر يستشرف بواكير أعمال شيخه الجليل وإصلاحاته التي وضع أسسها في أيامه القليلة التي قضاها بين ربوعه .. إن الشيخ مصطفى كان يحمل على أطواء قلبه النابض بالخير للأزهر والاسلام بنود العمل المجيد ، والنهضة الصالحة للجامعة الأزهرية بما يكفل لها الحياة الأزهرية القيمة ، والمستوى الرفيع بين جامعات الأمم المتحضرة . وكان طموحه وهدفه أن ييسر للأزهر النهوض برسماته الدينية والجماعية ، ونشر السلام والطمانينة في هذا العالم المملوء بالشرور والقلق الروحي .

كان يجمعنا إليه ويضع الاقتراح في مسألة معينة من مسائل الإصلاح في الأزهر ، وتداول الرأي فيها ويدلي هو برأيه كالمستفهم ، وفي النهاية يستقيم الأمر على الأساس الذي ارتآه في نفسه وفي سيرته . وهكذا دواليك ، حتى اجتمع من ذلك جملة مسائل للإصلاح الذي اتوا به ، ووضع أساسه ، وأزمع لإجرائه . وفي الحق : أنه ما كان يقطع برأى دون الإجماع منا على استحسانه ونفعه ، وكان سبيله في الإقناع

الرفق واللين ، والحجة الناطقة ، والبرهان الواضح . وضع مرة مسألة أمامنا : فقيدنا العظيم ، ووكيل الأزهر ، ومديره ، والمائل أمامكم . تداولنا الرأي في المسألة فكان رأي مخالف للجميع في صلابته . فابتسم المغفور له ابتسامة عميقة الإحساس ، ثم قال : لعل لفلان حجة يكون فيها مقنع لنا . وما زال بي يلفظ ويرق ، ويعالج ويقنع ، حتى جرتني إليه وأساس قيادي ، فكنت في صف الجماعة . وكان هينخنا كثير الحلم والاثانة . وأذكر أنه عرض من بعض الطلبة شيء مخالف قبيل وفاته مما يستفز صدر الحليم ، فرعد وزمع ، وتمعر وجهه على غير عادته ، فقلت : سيدى أين غاب عنك حلمك ، ولم تغيرت عادتك في هذه المرة ؟ ! فقال مبتسما ، وفي صوت مرنان : ومن ذا الذى ياعز لا يتغير ؟ إن الأزهر حين فجع فى شيخه الاكبر ، فإنما فجع فى أسى وأطيب وأعرق الخلال الكريمة التى لو وزعت على جماعة كثيرة لو سعتهم جميعا ، وكان أجل ما فى خلاله الوفاء ، الوفاء الخاص المتصل ، لا صدقائه ولداته ، والعفاة المحرومين الذين اتصلوا به ، وكان إلى جانب الوفاء الكرم والسماحة ، كرم النفس ، وسماحة الصدر إلى حد التضحية بكل نفيس فى سبيل ذلك . وفى جانب الوفاء والكرم والسماحة والحياء .

ومن كلماته كلمة ألقاها بمناسبة اختياره رئيسا فخريا لجمعية المحافظة على القرآن الكريم بعد وفاة الشيخ المراعى ، قال فيها :

« للقرآن مصقلة القلوب كما ورد فى الحديث ، وما أحوج قلوبنا إلى ما يصقلها ويجلو منها الصدا ! والقرآن هدى ونور ، فهل إلا القرآن لما يغشى العالم اليوم من ظلام وضلال ، والقرآن من بعد هذا ثقاف للألسن ، يقوم عوجها ، ويصلح عجمتها ، ويغذى من البلاغة مادتها ، فن عمل على تنشئة أطفالنا على حفظ القرآن وترتيله ومدارسته ، فأنما يصلح القلوب ، ويقوم الاخلاق ، ويخدم العربية ، وما أشرف ذلك مقصداً وأعظمه نفعا ! ويتقاضانا الوفاء بمناسبة أول احتفال سنوى بعد وفاة الرئيس الفخرى السابق رضى الله عنه أن نذكر ما أثره الباقيات فى خدمة القرآن الكريم : كان رحمه الله مسلما صادقا ، وكان يحب القرآن حبا جما ، وقد عنى فى أكثر دروسه الدينية بالتفسير فى أسلوب يلائم جلال كتاب الله ، ويوطد أسباب فهمه لأذواق الأجيال الحاضرة ، كما كان يصنع من قبل أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده . . ووجه الأزهر إلى العناية بالدراسات العالية لعلوم القرآن ، وقد أنشأ معهد القراءات والتجويد ، والمرجو أن يتابع الأزهر السير فى هذه السبيل ، فيقوى

معهد القراءات ويكمله ، وينشئ إلى جانبه دراسات عالية للحديث وعلومه ، حتى يستوفى الأزهر جميع الوسائل التي تعدده لأن يكون كعبة المسلمين في كل ما يتصل بالقرآن والحديث . وفي مجلة الأزهر دراسة عن الشيخ مصطفى عبد الرازق الشاعر (١)

الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى

١٨٨٠ — ١٩٥٠ م

كان رحمه الله من أمثل العلماء فى خلقه ودينه وورعه وتقواه .. ولد عام ١٨٨٠ ونال العالمية من الأزهر الشريف عام ١٩٠٦ وعين مدرسا بمعهد الاسكندرية الدينى ثم اختير للقضاء الشرعى عام ١٩١٧ ، وفى عام ١٩٣٢ اختير شيخا لكلية الشريعة فى عهد الاحمدى الطواهرى شيخ الأزهر الشريف ، وفى عام ١٩٣٤ منح عضوية جماعة كبار العلماء ، ثم اختير وكيلا للأزهر عام ١٩٤٤ ؛ فى ١٨ يناير ١٩٤٨ اختير شيخا للأزهر بعد وفاة شيخه الشيخ مصطفى عبد الرازق ، واستأثرت به رحمة الله فى ٤ سبتمبر ١٩٥٠ وقد ترك رحمه الله آثارا عديدة فى الأزهر ، وتلاميذ عديدين معجبين بفضله وعلمه ، وفى عهده أنشئ معهد المنصورة الدينى وسواه من المعاهد الدينية ... وقد ترجمت له بإفاضة ، وذكرت كثيرا من آثاره العلمية والدينية فى كتابى «الاسلام ومبادئه الخالدة» ، فلا داعى لإطالة الحديث عنه فى هذا الكتاب .

الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم

كان الأستاذ الأكبر عبد المجيد سليم من العلماء للقلائل الذين قل أن شهد لهم الأزهر مثيلا : فى سعة الاق ، وجلال الخلق ، وعظمة النفس ، وقوة النزوع إلى المثل العليا ، فهو بحق خلف عظيم لاسلاف كرام .

تلمذ على الامام محمد عبده ، فتخرج عالما قديرا ، وشيخا جليلا ، ومالبث أن جعلته مواهبه وكفايته وشخصيته علما بين زملائه العلماء . وشاهد الاحداث الكبرى فى تاريخ الوطن الدينى والفكرى والاجتماعى والسياسى ، واشترك فيها موجهما وهاديا وشغل الكثير من المناصب الدينية الجليلة فى الأزهر والقضاء الشرعى والافتاء ، وكان لآرائه الدينية صداها البعيد فى العالم الاسلامى كافة ، ثم عهد اليه بالاشراف على

الدراسات العليا في الأزهر الجامعي ، ثم صارت اليه رئاسة لجنة الفتوى ، فكان له في كل ناحية أعمال خالدة ماثورة .. وإصلاح الأزهر الجامعي في شتى أطواره المختلفة في العصر الحديث مدين لفضيلته بالرأى والتوجيه .

وقد ولد الشيخ عبد المجيد سليم في ١٣ أكتوبر ١٨٨٢ ، وتخرج من الأزهر عام ١٩٠٨ ، حاملا العالمية من الدرجة الأولى .. وشغل وظائف التدريس والقضاء والافتاء ومشيخة الجامع الأزهر . ومكث في الافتاء قرابة عشرين عاما . وله من الفتاوى ما يربو على خمسة ألفا

ولقد تولى مشيخة الأزهر مرتين ، أقيلا في أولها لأنه نقد الملك .

وقد ركز نشاطه في السنوات الأخيرة في الاشتغال بجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وقد جعلت هذه الجماعة من أهدافها أن تتفاهم الطوائف الإسلامية أعلى ما ينفع المسلمين ، وأن تعمل على نسيان الخلاف واستئلال الضعائين من بينهم ، وله في هذه الناحية كتابات ورسائل ومراسلات بينه وبين كثير من علماء البلاد الإسلامية ، فلم يقتصر فضله على العلم في مصر ، ولكنه تجاوز ذلك إلى آفاق الإسلام ، وإلى كل الطوائف ولفضيلته عدة رسائل مخطوطة ، وقد أثر عنه الشجاعة في قول الحق والجهار به أمام الحكام دون خوف أو حذر ، وقد استقال من الافتاء عام ١٩٤٦ حين وجد حكومة ذلك العهد تريد التدخل في شؤون الأزهر ، وقال لرئيس ديوان الملك حين حذره من الخطر الذي سيلحقه : « إنني مادمت اتردد بين بيتي والمسجد فلا خطر علي » . عين فضيلته في مشيخة الأزهر للمرة الأولى يوم ٢٦ ذي الحجة عام ١٣٦٩ هـ - الثامن من شهر أكتوبر عام ١٩٥٠ وأعفي من المنصب في ٤ سبتمبر ١٩٥١ ثم تولى المشيخة لثاني مرة في ١٠ فبراير ١٩٥٢ واستقال من المنصب في ١٧ سبتمبر ١٩٥٢ ، وتوفي عليه رحمة الله في صباح يوم الخميس ١٠ من صفر ١٣٧٤ هـ - ٧ من أكتوبر ١٩٥٤ ، تاركا ذكريات إسلامية لا تنسى .

الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش

ملء القلوب والأسماع ، وحديث الخاصة والعامة ، وشخصية تكاد من جلالتها وتواضعها تعد مع الخالدين الأوائل من كبار أئمة الإسلام .. حجة في علوم الدين واللغة والأدب ، وإمام في المعقول والمنقول ، وشيخ كثير من علماء الأزهر المعاصرين ، تلمذوا عليه ، ونهلوا من معين علمه الفياض ، واستمعوا لأحاديثه وآرائه في اللغة والبلاغة والأدب ، وفي علوم الشريعة وأحكامها ، وفي دقائق الاجتماع والتاريخ ، فكان لهم من

ذلك علم غزير ، ومدد فياض . ، ومجلسه العامر يفيض بالمجد يد الطريف من معارفنا الحاضرة ، وبالقليد القديم من علوم الأوائل ومعارفها ، وإلى جانب ذلك النكتة الرائقة والفكاهة الشائقة ، والآداب الرفيعة ، في سميت الصالحين الورعين ، والزاهدين العابدين ، مع التقوى والتواضع ، وغفة اللسان ، وطهارة القلب ، ويقظة الضمير . وهو صوفي ورع ، محب لآل البيت ، كثير الاجلال لذكرهم ، مع التوكل على الله والتباعد عن السياسة . وهو من أرومة عربية طيبة ، من عرب إقليم البحيرة ، حفظ القرآن ، وجاور في الأزهر ، وتلمذ على الامام محمد عبده ، ونال العالمية من الدرجة الأولى ، وشغل منصب التدريس في الأزهر ، ثم في مدرسة القضاء الشرعي ، ثم تدرج في مناصب القضاء ، ثم اختير شيخاً لمعهد أسيوط ، فشيخاً لمعهد الزقازيق ، فعميداً لكلية اللغة العربية ، فشيخاً لكلية الشريعة . . ثم أسندت إليه رئاسة لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، ثم منصب المشيخة العظمى ، والامامة الكبرى للإسلام والمسلمين . إلى جانب عضوبته في مجمع اللغة العربية منذ نشأته حتى اليوم ، ولقد عاش طول حياته يحلم بإصلاح الأزهر ويعمل مع العاملين لهذا الهدف ، ويشترك في جميع اللجان التي ألفت لذلك .

ولقد تخرج الشيخ إبراهيم حمروش من الأزهر ، عام ١٩٠٦ ، وعين مدرسا في الأزهر ، ثم اختير للتدريس في مدرسة القضاء الشرعي ١٩٠٩ ، ومكث مدرسا بها حتى سنة ١٩١٦ ، ثم عين قاضيا في المحاكم الشرعية ، وظل يرقى في مناصبها ، إلى أن اختير عام ١٩٢٨ شيخاً لمعهد أسيوط ، ونقل بعد شهر شيخاً لمعهد الزقازيق ، ولما أنشئت الكليات الأزهرية اختير عام ١٩٣٢ شيخاً لكلية اللغة العربية ، وفي عام ١٩٤٤ اختير شيخاً لكلية الشريعة ، ثم استقال من منصبه عام ١٩٤٦ احتجاجا على السراى لتدخلها في شئون الأزهر ، وعين عام ١٩٥٠ رئيسا للجنة الفتوى . . وهو عضو في المجمع اللغوي بالقاهرة منذ إنشائه عام ١٩٣٢ .

واللاستاذ الأكبر مكاتته الكبيرة في قلوب الأزهريين ، فهو حيثما حل وحيثما كان موضع التجله والاحترام والتقدير ، من كل أزهري وكل مسلم . . ومكاتته العظيمة في العالم الاسلامي في غنى عن البيان .

وإن معاهد الأزهر وكلياته لتفخر بجهوده في تنظيمها وفي توجيهها لاداء رسالتها ، ولقد نال مكاتته المرموقة بما فطر عليه من نبل خلق وعظمة شخصية وسعة علم وصلاح وإيمان

كان في الوظائف الكبرى التي تقلدها مثالا عاليا للرئيس اليقظ العادل ، والامام الراعى الساهر ، والشيخ الحكيم المدبر ، والعالم الخاني على طلاب العلم وشيوخه . وقد تولى الشيخ حمروش مشيخة الازهر للمرة الاولى في ٤ سبتمبر عام ١٩٥١ وكانت له مواقف خالدة في الحركة الوطنية المصرية الاخيرة ، وأعفى من منصبه في ١٠ فبراير عام ١٩٥٢ لاشتراكه في الحركة الوطنية التي قام بها الشعب بقيادته للمظاهرة الشعبية التي خرجت تهتف بحرية مصر ، ومقالاته عن وجوب محاربة الاستعمار ، وأذكر أنه لما تولى المشيخة للمرة الاولى استقبل في الازهر استقبالا حافلا ، وهنأته بهذه الاثبات :

عاد للدين مجده وسلامه	وحى الدين هذه أيامه
ودع الازهر الغداة ليالي	ه ، ونادته بالمتى أحلامه
تلك آماله للكبار ، وهذا	شيخه الاكبر الحكيم إمامه
يشهد الله أنه كاهل الدين ،	وللازهر العريق سنامه
إن (إبراهيم) الملاذلي بيت الله	تسمى بسعيه أعلامه
أمة وحده ، وفي الله مسعاه ،	وللحق عزمه ومقامه
أمل المسلمين ، والنور يهدي	ليس إلا للكرامات اعتزامه
يا إمام الاسلام بايعك الازهر	شيخا له ، وأنت سلامه
تلك آماله إليك ، وهذا	في يدك الكريمتين زمامه
وعلى منكبيك يرد جلال	صبيغ من نسج الصالحات وسامه
سر على يمن الله تحرس بيت العلم	في يمنى راحتك وسامه
جمعت حولك القلوب وهذا البية	ت جذلان من هداك ابتسامه

والشيخ حمروش ، هو البقية الباقية من علماء الازهر الاعلام ، ومن الجيل القديم ، الذين يعتز بهم الازهر الحديث ، والذين ليس لهم اظير في العلم والفيرة على شئون الاسلام والعروبة ، أمد الله في حياته . . وما من أزهرى اليوم إلا وهو من تلامذته ، أو من تلامذة تلامذته . .

ومن كلماته هذه الكلمة التي القاها في الازهر في ذكرى الهجرة وهي : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين : شاعت في الأمم السابقة خرافات وعقائد باطلة لم تكن وليدة بحث ودرس ونظر واستدلال ، وإنما هي أقوال ملفقة بما يأتونها الخلف عن السلف ، ويقلد فيها الاتيان

آباءهم، من غير فهم ولا روية، وهي موضع تقديرهم، وحل اعتبارهم، وأشد الناس تمسكاً بها ومحافظة عليها المترفون، لأنهم يعتقدون أن في الدين زوالاً لهيبتهم وذهاباً لعظمتهم، قال تعالى، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. وقد أرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بدينه الذي ارتضاه لخلقهم، واختاره لعباده، من يوم مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكان موقف أمته منه موقف الأمام السابقة من رسلها، ولم تستحدث الأيام خلقاً، ولا حالت من الزمن اليهود. بدأ محمد صلى الله عليه وسلم، بدعوة العرب، وكانوا وقتئذ أقل الناس حظاً وأشقام عيشاً، وأبغضهم ضلالة، بأسمهم بينهم شديد، يقتلون لأقل الأمور وأحقها الأسباب، وكانوا متفرقين لا تجمعهم وحدة، ولا يشملهم نظام، وكان يجاور العرب دولتان عظيمتان: دولة الفرس، ودولة الروم الشرقية، استولت كل واحدة منهما على ما جاورها من بلاد العرب، وجعلت عليه حاكماً من العرب، يعمل لها وينفذ إرادتها، ويرعى مصالحها، وبهذا الوضع كان العرب محصورين في جزيرتهم، قانعين بما فيها من مفاوز وصحراوات. دعاهم صلى الله عليه وسلم إلى خير الأمور، وأفضل الأعمال: دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، لأنها لا تنفع ولا تنفع، ولا تعطى ولا تمنع، ولا تدفع عن نفسها أذى، ولا تميظ قذاة، ولا تخلق حصاة، ومع ظهور الحجة ووضوح البرهان، وتنبههم للحق في كثير من الآيات، قال تعالى: «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب»، إلى غير ذلك من الأمثال التي صرفها الله تعالى في كتابه، ومع كل ذلك لم يؤمنوا به، بل كذبوه أشد تكذيب وبالغوا في الإنكار، وقالوا: «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون». ومن جهلهم زعموا أن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى عبادة الله، وترك عبادة الأصنام، لم تكن إلا لأنه صلوات الله عليه يكره الأصنام، ويريد الانتقام منها، لأن بعضها اعتراه بسوء، وألحق به ضرراً، فقالوا: «إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء»، فكان ذلك صراعاً بين الحق والباطل، وبين الحجة والبرهان، والجهل والطغيان، ولم يقفوا عند التكذيب والإنكار، بل تجاوزوا ذلك إلى إيذائه وإيذاء من شرح الله صدورهم للإسلام، فقبلوا دعوتهم، وآمنوا برسالته. وفازوا بشرف السبق،

وكلما بالغوا في الإيذاء ، بالغ صلى الله عليه وسلم في الصبر ، واجتهد في الدعوة . وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص ، عظيم الاهتمام بكثرة الأعوان والألصار ، ليتمكن بذلك من أداء مهمته ، وتبليغ رسالته ، فكان عليه السلام يتلقى من أقبلوا إلى مكة في موسم الحج ، فيدعوهم إلى الاسلام ، ويقرأ عليهم القرآن ، فما أجابه أحد ، ومنهم من رد عليه رداً قبيحاً . وقد اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقابلة الوفود ، ولم يصرفه إيذاء قريش عن دعوته ، ولا الرد القبيح عن السعى في إدراك طلبته ، فكان يقابل الوفود في كل موسم ، ففي موسم التقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بجماعة من الخزرج ، ولما عرض عليهم الاسلام قبلوه ، فكان ذلك الاجتماع مقدمة للنجاح ووسيلة الفوز ، فانهم لما عادوا إلى اهلهم بالمدينة ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدين الذي يدعو إليه ، فأسلم منهم كثيرون ، وفي موسم آخر حضر جمع من مسلمي المدينة والتقى بهم رسول الله وبايعوه ، إن هاجر إليهم ، على أن يمنعه عما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وبعد ذلك أمر صلوات الله عليه ، أصحابه بالهجرة إلى المدينة والحقوق بإخوانهم ، وقال لهم : « إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا يأمنون بها ، فخرجوا أرسالا ، رجالا ونساء ، لإمن حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين ، ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شعبة وأصحاب من غير بلدهم ، وخرج أصحابه من المهاجرين إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، اتهموا على قتله قبل الهجرة حتى يأمنوا حربه . ولما علم رسول الله ما أجمعت عليه قريش ، وعرف الليلة التي يريدون الفتك به في صباحها ، توجه صلوات الله عليه إلى أبي بكر ، وأخبره أن الله أذن له بالهجرة ، فسأله الصحابة ، فأجابه ، إياها واتعدا على الهجرة في تلك الليلة ، وقد أمر النبي صلوات الله عليه على ابن أبي طالب أن ينام مكانه في تلك الليلة ويتسجى ببرده لئلا يرتاب أحد في وجوده ، وأصبحت فتيان قريش ينتظرون خروجه صلى الله عليه وسلم للفتك به ، فإذا بعلى يخرج إليهم ، فعملوا أنهم باتوا يحرسون عليا . ولما علمت قريش بذلك ثارت نائرتهم وأخذوا يقتصون الأثر ، وجعلوا لمن يأتي به حياً مائة من الأبل ، وهاجر صلى الله عليه وسلم بإذن الله وفي رعايته وحفظه إلى أن بلغ المدينة ، ولما استقر بالمدينة أخذ ينشر دعوته ويبليغ رسالته إلى أن بلغ كل ما أمر بتبليغه ، وبذلك تمت الشريعة ، وكمل النظام الذي وضعه العليم الحكيم .

والشريعة التي بلغها سمو بالعقول عن التقليد ، وانبأه القول بلا دليل ، وأمر
بالنظر فيما بث الله في الآفاق من آيات . ونصب في الكون من دلائل تدفعها إلى
الإذعان بوجود الله ، وبما له من صفات الكمال : من القدرة التامة والعلم المحيط
والتفرد بالسلطان فيما عداه ، يمحى فيسه حكمه وينفذ قضاؤه ، وعبادة وخشوع
وتقرب وخشوع . شكرا لمن خلقهم ، وأسبغ عليهم النعم الظاهرة والباطنة ،
وتهذيب نفوس ، وتطهير قلوب ، وبعد عن الآثام والذنوب ، وتنزه عن الصغائر ،
وصدق في القول ، وإخلاص في العمل ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ،
وشجاعة ونجدة ، وإعداد عدة لارهاب الأعداء ، ومساواة فكلهم عند الله سواء ،
لا فرق بين عظيم وحقيق وغنى وفقير ، لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله والتقرب
منه ، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين ، وتعاون وتناصر ، وتواد وتراحم وتعاطف
وطاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المسلمين . إلى غير ذلك مما أمرت به الشريعة .
وحثت عليه . ورغبت فيه . وقد أعد الله تعالى للذين يعملون الصالحات سعادة الدنيا
والآخرة ، قال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في
الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم
من بعد خوفهم أمنا » وقال تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات
الفرديس نزلا » . وقد عملت الأمة بتلك الشريعة ، فأدت أعمالها الصالحة أكلها ،
وأثمرت ثمرتها في بناء الأمة على أسس متينة ، وأخلاق عظيمة ، وربطت بينها
برباط التعاون والمساواة والألفة والمحبة ، والدين والخلق ، فاتحدت بعد تفرق ،
وقويت بعد ضعف ، وسعدت بعد شقاء ، وعزت بعد ذل . فعظم قدرها وعلا
شأنها ، وأحكم أمرها ، فغيرت وجه التاريخ ، وفكت الحصر الذي ضربته دولة
الفرس ودولة الروم . وفتحت بلاد الأعداء الذين كانوا يكيدون لها ويعملون
على مضايقتها . ولا زالت الدولة الإسلامية تنتقل من فتح إلى فتح ومن نصر إلى نصر ،
وعاشت قوية عزيزة ، تقدرها الأمم ، ويرهبها الأعداء ولما انحرفت عن العمل
بالدين ، واتباع هدى سيد المرسلين ، اعتراها الضعف والوهن ، فلانت قناتها .
وذهبت هيبتها .

الاستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين

عين الشيخ محمد الخضر حسين شيخاً للأزهر في يوم الأربعاء ٢٧ من ذي الحجة

١٢٧١ هـ - ١٧ سبتمبر ١٩٥٢

وكان أحمد تيمور في مقدمة الذين قدروا فضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر السابق حين قدم مصر من أكثر من ربع قرن - وقد عثر السيد خليل ثابت رئيس لجنة نشر المؤلفات التيمورية بين آثار العلامة أحمد تيمور على ترجمة لحياة الشيخ محمد الخضر حسين - هذا نصها :

ولد بمدينة نفطة بالقطر التونسي في ٢٧ رجب سنة ١٢٩٣ واشتغل بالعلم وحفظ القرآن الكريم وقرأ بعض الكتب الابتدائية في بلده ، وفي آخر سنة ١٣٠٦ رحل مع أبيه وأسرتة إلى القاعدة التونسية فاشتغل بالطلب ثم دخل الكلية الزيتونية سنة ١٣٠٧ فقرأ على أشهر أساتذتها وتخرج عليهم في العلوم الدينية واللغوية ونبغ فيها وفي غيرها ، فطلب لتولى بعض الخطط العلمية قبل اتمام دراسته فأبى وواظب على حضور حلقات الأكابر مثل الشيخ عمر ابن الشيخ والشيخ محمد النجار وكانا يدرسان التفسير والشيخ سالم بوحاجب وكان يدرس صحيح البخاري .

ثم رحل إلى الشرق في سنة ١٣١٧ ولكنه لم يبلغ طرابلس حتى اضطر إلى الرجوع بعد أن أقام بها أياماً فلزم جامع الزيتونة يفيد ويستفيد ، إلى سنة ١٣٢١ هـ ، فأنشأ فيها مجلة - السعادة العظمى - ولاقى في سبيل بث رأيه الإسلامي ما يلاقيه كل من سلك هذا السبيل . وفي سنة ١٣٢٣ ولى القضاء في مدينة بنزرت والتدريس والخطابة بجامعها الكبير ، ثم استقال ورجع إلى القاعدة التونسية ، وتطوع للتدريس في جامع الزيتونة ، ثم أحيل إليه تنظيم خزان الكتب بالجامع المذكور - وفي سنة ١٣٢٥ اشترك في تأسيس جمعية زيتونية ، وفي هذه المدة جعل من المدرسين المميزين بالجامع المذكور وفي سنة ١٣٢٦ جعل مدرساً بالصادقية وكلف بالخطابة في مواضع لإنشائية بالخلدونية ، ولما قامت الحرب الطرابلسية بين العثمانيين كان من أعظم الدعاة لإعانة الدولة ونشر بحريدة الزاهرة قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

ردوا على مجدنا الذكر الذي ذهباً يسكني مضاجعنا نوم دها حقباً
ثم رحل إلى الجزائر فزار أمهات مدنها ، وألقى بها الدروس المفيدة ، ثم عاد إلى تونس وعاد دروسه في جامع الزيتونة ونشر المقالات العلمية والأدبية في الصحف وفي سنة ١٢٣٠ سافر إلى دمشق ماراً بمصر ثم سافر إلى القسطنطينية فدخل يوم

إعلان حرب البلقان فاختلف بأهلها وزار مكاتبها ، ثم عاد إلى تونس في ذى الحجة من هذه السنة ونشر رحلته المفيدة عنها وعن الحالة الاجتماعية بها ببعض الصحف ، ثم جعل عضواً في اللجنة التي ألفتها حكومة تونس للبحث عن حقائق في تاريخ تونس ثم ترك ذلك لما غزم على المهاجرة إلى الشرق فرحل إليه ، ونزل مصر وعرف بعض فضائلها ثم سافر إلى الشام ثم للدينة المنورة ثم إلى القسطنطينية ثم عاد إلى دمشق معينا مدرسا للغة العربية والفلسفة بالمدرسة السلطانية بدمشق ، وبقي كذلك إلى أن اتهمه مدة الحرب العظمى جمال باشا حاكم سوريا بكتهم حال المتأمرين على الدولة واعتقله ستة أشهر وأربعة عشر يوما ثم حوكم فبريء من التهمة فأطلق سبيله في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٣٥ ومن شعره في حبسه وكانوا حالوا بينه وبين أدوات الكتابه :

غل ذا الحبس يدي عن قلم كان لا يصحو عن الطرس فتاما
هل يذود الغمض عن مقلته أو يلاقى بعده الموت الزواما
أنا لولا همة تحددو إلى خدمة الاسلام آثرت الحساما

ثم استمر على التدريس بالمدرسة بدمشق إلى أن دعي إلى القسطنطينية سنة ١٣٣٦ . ثم هاجر إلى استنبول بعد عام وعمل محررا باقلم العربي بوزارة الحرية ، ثم أرسلته الحكومة إلى المانيا للقيام بعمل سياسي وهو تذكير الاسرى هناك بظلم فرنسا ثم رجع إلى الشام فدرس الفقه بالمدرسة السلطانية العربية . . وبعد أن احتلت فرنسا الشام بعشرة أيام هاجر إلى مصر في عام ١٣٢٩ هـ . ثم نال الشهادة العالمية بالأزهر وتولى التدريس بكلية أصول الدين والتخصص اثنتي عشرة سنة .

وتولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر ولواء الاسلام ورئاسة جمعية الهداية الاسلامية واختير عضوا بهيئة كبار العلماء ١٩٥١ ، وهو إلى ذلك عضوا بمجمع اللغة العربية منذ أنشئ . وقد استقال فضيلته من المشيخة في ٢ جمادى الاولى ١٣٧٣ هـ - ٨ يناير ١٩٥٤

انتهى الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني

وأوله الباب الرابع : أعلام من الأزهر في العصر الحديث

محمد عبده والإصلاح الديني

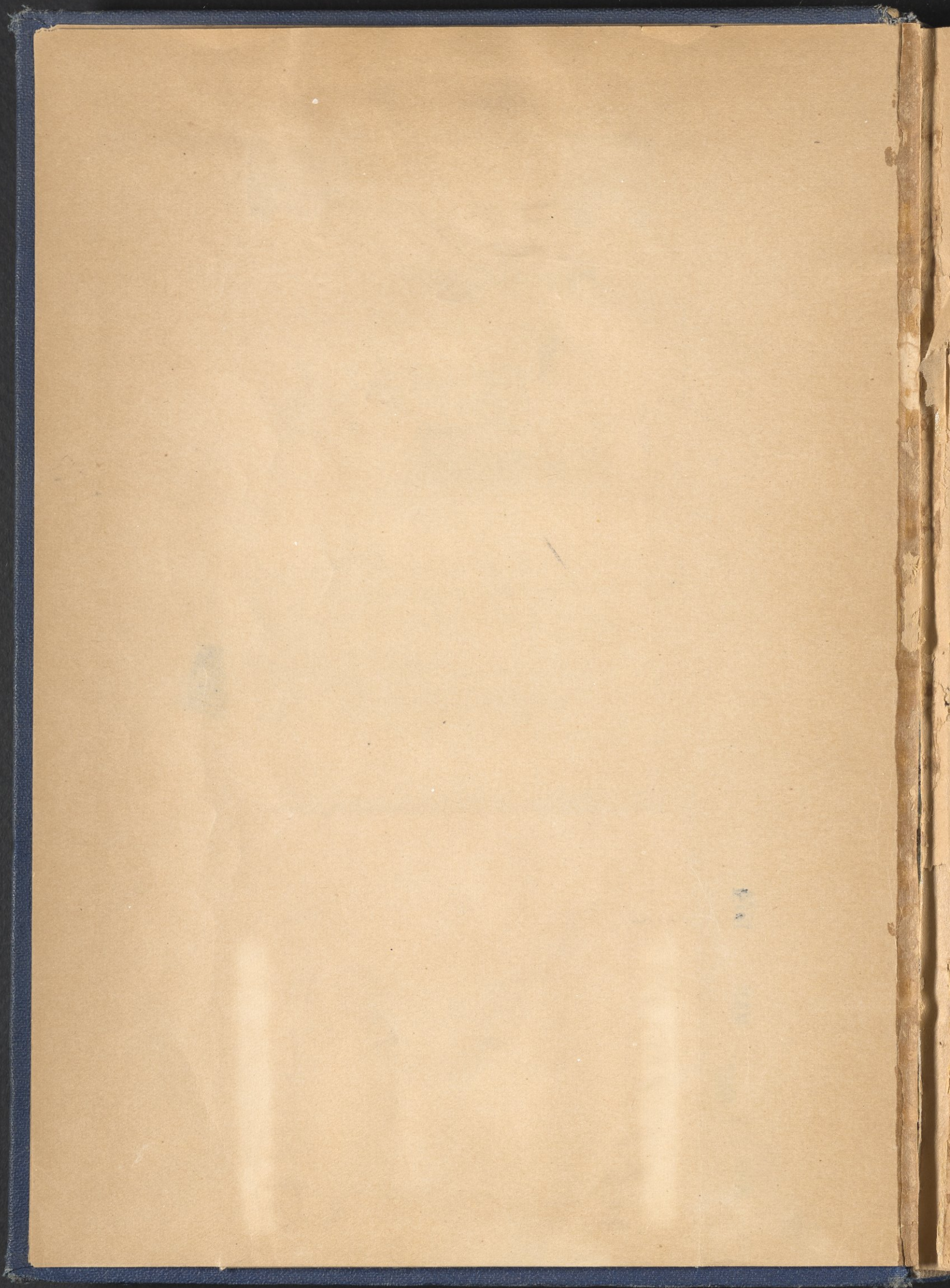
فهرست الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	تصدير
٤	المقدمة
٦	الباب الأول : الأزهر خلال عصور التاريخ
٦	الفصل الأول مصر الإسلامية قبل إنشاء الأزهر
١٠	الفصل الثاني مصر في ظلال الفاطميين
١٥	الفصل الثالث تأسيس الأزهر
٢٦	الفصل الرابع الأزهر في ظلال الفاطميين
٣١	مشاركة الأزهر في الحياة العقلية
٤٣	الأزهر جامع الدولة الرسمي
٥٠	الأزهر وتجديد مبانيه
٥٦	الفصل الخامس الأزهر في عهد الأيوبيين
٦١	العلماء وهل للأزهر أثر فيهم ؟
٦٢	الفصل السادس الأزهر في ظلال المماليك
٧٦	الفصل السابع الأزهر في ظلال العثمانيين
٨٥	الأزهر والحركة العلمية في هذا العهد
٨٩	الأزهر وتاريخنا القومي
٩٢	الفصل الثامن بعد الحكم العثماني
٩٢	الأزهر والغزو الفرنسي لمصر
٩٥	جهاد الأزهر الوطني
٩٩	عمر مكرم الأزهرى
١٠٤	فحول العلماء في قرنين
١١٠	الباب الثاني : من تاريخ الأزهر الحديث
١١٠	القوة الشعبية في الأزهر
١١٤	الأزهر يسير في حياته العلمية
١١٦	جهاد الأزهر في الثورة العراقية
١١٨	الأزهر يغذى ثورة عراقى

الصفحة	الموضوع
١٢٥	قوانين الأزهر
١٢٥	بعد الثورة للعرابية
١٢٨	الأزهر والحركة الوطنية عام ١٩١٩
١٣٠	بعد الثورة
١٣٤	والثورة المصرية الثالثة
١٣٤	النوابغ الدين تخرجوا من الأزهر
١٣٥	أشهر رجال الأزهر في القرن الرابع عشر الهجرى
١٣٦	نظرة إلى المستقبل
١٣٩	الباب الثالث شيوخ الأزهر
١٣٩	الفصل الأول مشيخة الأزهر وشيوخه
١٦٥	الثاني تراجم لبعض شيوخ الأزهر
١٦٥	الشيخ الأحمدى الظواهرى
١٦٩	الشيخ المراغى
١٨١	الشيخ مصطفى عبد الرازق
١٨٨	مأمون الشناوى
١٨٨	عبد المجيد سليم
١٨٩	إبراهيم حمروش
١٩٥	الحضر حسين

استدراك

ص	ص	الكلمة	صحتها
٩٤	١٦	وأظهر	وخلفه منو وأظهر
٩٤	٢٨	وزعت	فرض



AUC - LIBRARY



DATE DUE

MAR 26 1987

15 NOV 1992

29 NOV 1992



A.U.C.

MAR 1998



A.U.C.

28 DEC 1998

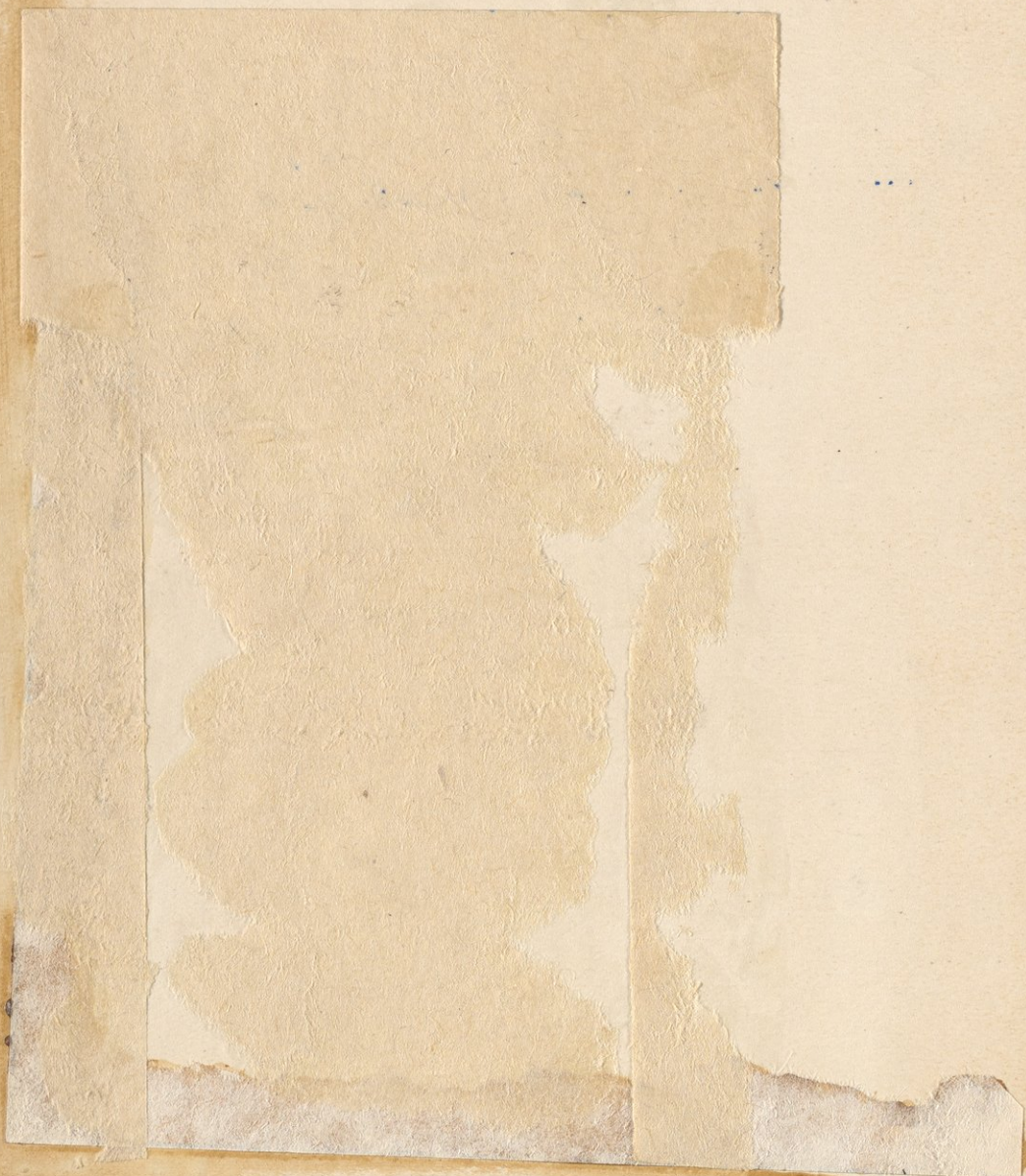
MAR 1974

MAR

MAR 23 1987

LG
511
C45
K45
v.1
c.1

i 15153101
b13271210



مجله

تاریخ

